بعدَ يومين

رواية

القس
نبيل سمعان يعقوب

بَعْدَ يَوْمَيْنِ

بَعْدَ يَوْمَيْنِ

رِواية

القس نبيل سمعان يعقوب

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢ – دمشق.

الكتاب : بَعْدَ يَوْمَيْنِ

المؤلف: القس، نبيل سمعان يعقوب

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-0-1234-2

بريد إلكتروني: ynabeel@hotmail.com

كلّ ما وضع بين قوسين هو اقتباسٌ واستشهادٌ من الكتاب المقدس ترجمة (البستاني- فانديك)، وقد وُضِعَ كما ورد في الكتاب المقدّس حرفياً، دون أيّ تبديل في موضعِ الحركات.

تصميم الغلاف:

جميع حقوق الطبع أو إعادة النشر محفوظة للمؤلف وحده، ولا يجوز استخدام أو اقتباس أي جزء منه دون إذن خطي مُسبق من المؤلف.

التنفيذ الطباعي: مطبعة باب توما
دمشق- سوريا

المحتويات

تَوطِئة ٧

الفصل الأوّل، أُورُشَلِيم أيّام العيد. ٩

الفصل الثّاني، بَعْدَ يَومَين. ١٦

الفصل الثّالث، ماذا تُعْطُونِي؟ ٢٣

الفصل الرّابع، أَعِدَّا لَنَا الْفِصْح. ٢٨

الفصل الخامس، مَنْ هُوَ أَكْبَر؟ ٣٥

الفصل السّادس، وَاحِداً مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. ٤٣

الفصل السّابع، كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ. ٤٨

الفصل الثّامن، نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدّاً حَتَّى الْمَوْت. ٦٣

الفصل التّاسع، كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ. ٦٩

الفصل العاشر، أمامَ حَنَّان. ٧٧

الفصل الحادي عشر، إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُل. ٨٠

الفصل الثّاني عشر، لِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟ ٨٥

الفصل الثّالث عشر، إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ. ٩٠

الفصل الرّابع عشر، أمامَ بيلاطُس الْبُنْطِيِّ (بُنطيوس بيلاطُس). ٩٥

الفصل الخامس عشر، دَماً بَرِيئاً. ١٠٦

الفصل السّادس عشر، فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُس. ١١٠

الفصل السّابع عشر، فَمَاذَا أَفْعَلُ بِيَسُوعَ؟ ١١٥
الفصل الثّامن عشر، إلى الجُلْجُثَة. ١٢٢
الفصل التّاسع عشر، ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ. ١٣١
الفصل العشرون، قَبْرٌ جَدِيدٌ. ١٣٦
الفصل الحادي والعشرون، مُرْ بضَبْطِ القَبْرِ. ١٤٠
الفصل الثّاني والعشرون، زلزالٌ جديدٌ، وقَبْرٌ مفتوحٌ. ١٤٤
الفصل الثّالث والعشرون، سَرَقُوهُ وَنَحْنُ نِيَامٌ. ١٤٩
الفصل الرّابع والعشرون، لقاءٌ مع الرّب المُقام. ١٥١
الفصل الخامس والعشرون، أخبارٌ لا تُصدَّق! ١٥٤
الفصل السّادس والعشرون، على الطريق إلى عمواس. ١٥٦
الفصل السّابع والعشرون، جُسُّونِي وَانْظُرُوا. ١٦١
الفصل الثّامن والعشرون، وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ. ١٦٣
الفصل التّاسع والعشرون، هُوَ الرَّبُّ. ١٦٦
الفصل الثّلاثون، وَهَا أَنَا مَعَكُمْ. ١٧١

تَوطِئة:

قرأت الكثير من الروايات، وأحببتُ بعض أبطالها الَّذِينَ تفاعلوا مع احتياجات النَّاس، وأحياناً قضوا من أجلهم. أغلب هذه الروايات كان يبنيها خيالُ المؤلف ويضيف عليها ما يلزم من عناصر التشويق ليكون بطلها أسطورياً في عطائه، محبوباً من القرّاء، ينطبع في ذاكرتهم إلى وقت طويل.

لكن هناك رِواية قد حدثت على أرض الواقع، منذ ما يقرب من ألفي عام. بطلها تفاعلَ مع احتياجات النَّاس لأبعد الحدود، وعندما اقتضى احتياجهم موته، لم يتردد أبداً، فبذل نفسه لأجلهم.

الَّذِينَ أحبوه كتبوا سيرته، دون إضافات، ودون عناصر تشويق، لأن قصته لا تحتاج لها. البعض ممن دوّن سيرته كان شاهد عيان، والبعض الآخر تتبع الأحداث من معاصريه، فكتبوا ببساطة، ووثّقوا أعظم قصة حب وعطاء سُطّرت في عالمنا هذا. لكن الأمر المميّز في هذه القصة أنّ الَّذِينَ كتبوها تأثروا جداً بها، فعاشوا حياة قريبة من بطلها، وتمثّلوا بتضحيته. حتّى صارت حياتهم قصّةً، تشبه الرِّواية التي كتبوها.

كنتُ واحداً من الَّذِينَ قرأوا هذه الرِّواية. تأثرتُ بها، وأحببتُ بطلها حباً لا يدانيه حبٌ آخر. وقررتُ أن أعيش كما عاش بطلها، وأن أكرّس ما تبقى من حياتي لأجله.

من سيرة هذا البطل الذي أحببتهُ، اخترت الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته التي عاشها في عالمنا، والتي انتهت بموته مصلوباً. اخترت أن أبدأ من قوله: «تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصْلَبَ» (متى٢٦: ٢). فكتبت هذه الرِّواية المأخوذة عن الأصل دون إضافة عناصر تشويق وإثارة. ومع أنها مقتطعة من الأصل، إذ لا تغطي من حياة بطلها إلا ساعات قليلة، لكني أرجو أن تترك في قلوبكم نفس الأثر الذي تركته قِصّته الكاملة في قلبي منذ نحو ثلاثين عاماً.

ق. نبيل سمعان يعقوب

خارطة أورشليم زمن المسيح

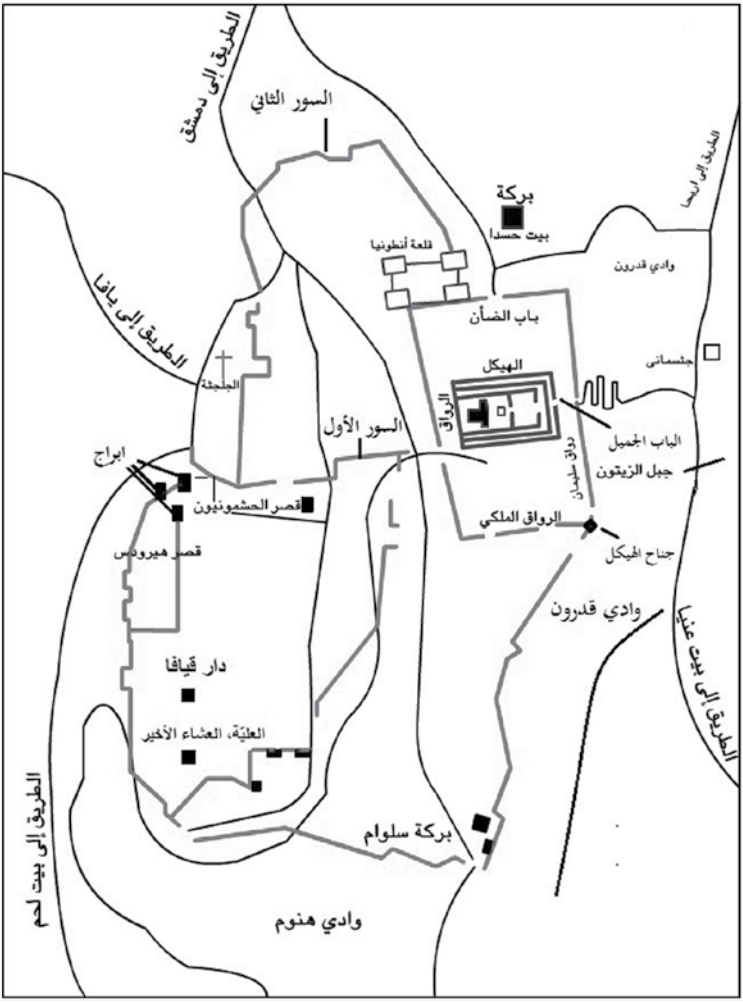

السور الأول: أحاط المدينة في فترة حكم الحسمونيين التي بدأت عام (١٦٧) ق.م

السور الثاني: بناه على الأرجح هيرودس الأول، أو أحد ملوك الحسمونيين

الفصل الأوّل
أُورُشَلِيم أيّام العيد

الأربعاء، ١٢ نيسان العبراني

بعد أن عَبرت شهور الشتاء القاسية في أُورُشَلِيم، حيث البرد الشديد، وتساقط الأمطار، والعواصف المرافقة لهذه الأجواء، أطلّ الربيع بثيابه المزركشة مثلَ نسمةٍ هادئةٍ، فابيضّت الغيوم وتصاغرت إلى حجم الكفّ، وأزهرت الأشجار، واستعادت الأرض خُضرتها وبهاءها الذي غاب عنها لعدّة أشهر.

يا له من ربيع، شمسه وهّاجة، وظلاله وارفة. هواءه لافح ونسيمه وديع. غدرانه هادئة، وسواقيه دافئة. كلُّ شيء فيه يبتهج. فراشاته ترقص على أزهارٍ ملأت الحقول بألوانها التي تريح الأبصار، وأزهاره تتفتح لتملأ الجوّ عبيراً برائحةٍ فوّاحةٍ تدغدغُ الأنوف. طيوره تنسل بين الأشجار مغردة أجمل الأغاني، أمّا السنونو المزقزقة المهاجرة، فهي لا تكف عن الرقص في الفضاء حتى تخالها في مهرجانٍ من الألحان.

فصل الربيع هو فصل الأحلام. حيث العصافير تحلم بالفراخ، والأشجار تحلم بالثمار، والحيوانات تحلم بصغارها تدبّ حواليها، والفلاّح يحلم بالسنابل التي دفن بذورها في الأرض. إنها يقظة الحياة بعد هجوعها.

في يوم أربعاء، هو الثاني عشر من شهر نِيسَان العبري، الموافق لربيع عام (٣٢ م)، لبست مدينة أُورُشَلِيم مبكرة ثياب عيد الفصح، فظهرت بحلّة بديعة. ولأن العيد بعد يومين[١]، ويعقبه مباشرةً سبعةُ أيّامِ عيدٍ آخر، هو عيد الفطير، في الخامس

[١] – كان العيد يبدأ مساء اليوم الرابع عشر من شهر (أبيب) العبري.

عشر من الشهر ويستمر إلى الثاني والعشرين منه، كان للعيد بهجةٌ خاصةٌ، زادها بهاءً، أنّ يوم الفصح من السّنة هو يومُ إشراق البدر الكامل، وأول شهور السّنة الدينيّة العبريّة[1].

كلُّ شيء في المدينة كان يوحي بالفرح، فالبهجة تملأ قلوب الجميع، وزادت إطلالة الربيع العيدَ جمالاً وتألقاً وفرحاً.

يوم الأربعاء من ذلك العام كان رائعاً في أُورُشَلِيم ومليئاً بالحركة. فيه الباعة الجوالون انتشروا في أسواق المدينة، وفي أزقّتها، وحول أسوار الهيكل، وبين خيام الحجاج، ويتنقلون من مكان إلى آخر ليعرضوا بضاعتهم على النَّاس. وبينما يتجادلون في الأسعار يُسمع بين الحين والآخر أصوات تُوقف جدالهم، كصهيلِ بعض الأحصنة، أو خوار بعض الأبقار، أو صياح الديكة.

في ذلك اليوم كان الأطفال في الطرقات يهيئون أنفسهم لأفراح العيد، ويتكلمون عن موسى والخروج العظيم من مصر. بينما النسوة يتحادثن عن كل مختمر ينبغي أن يُرفع من بيوتهن، فيفتشون عن أي شيء يكون قد وصل إليه الخمير في البيت، لدرجة أنهم كانوا يمسكون القناديل باحثين في البيت عن أي خمير. أمّا الرجال فيُكْملون اتفاقهم بشأن وليمة الفصح حيث تشترك في تحضيرها عائلتان أو أكثر، لكي يؤكل الخروف بكامله حسب الوصية، ثمّ يتساءلون فيما بينهم برجاء وفرح: تُرى هل سيأتي المسيّا في هذه الليلة.

كان الْهَيْكَل[2] الذي يُعتبر جزءاً من السّور الشرقي لمدينة أُورُشَلِيم، دُرّة المدينة، عظيماً في بنائه، كبيراً في حجمه، إذ بلغ طوله من الشمال للجنوب (٥٤٠) متراً،

---

[1] – للعبرانيين سنتان. سنة دينيّة مقدّسة، أول شهورها (أبيب) الذي دعي بعد السبي (نِيسَان). وسنة مدنيّة أول شهورها (أَيْثَانِيم) الذي دعي بعد السبي (تشري).

[2] – بناه الملك سُلَيْمَان، ثم جُدّد في عهد زَرُبَّابَل، ثمّ في عهد هِيرُودُس الكبير سنة (١٩ق.م)، ولم يكتمل إلا في سنة (٦٤م)، في عهد أَغْرِيبَاس الثاني، ثم دُمرَّ بعد ذلك بنحو ستِّ سنوات.

ومن الشرق إلى الغرب (٣٠٠) مترٍ. وقد أحيط بسور ضخم من الحجارة. وله عدة بوابات، واحدة من الشمال، ومثلها من الشرق تطل على جسرٍ قديمٍ فوق وادي قَدْرُون، وأربع بوابات في الجهة الغربية، وكذلك عدة بوابات في الجهة الجنوبية.

كان الكهنة في الهيكل يغسلون أياديهم في الْمِرْحَضَة[1]، ويمارسون خدمتهم في ثيابٍ فاخرة. وكانت فرق المرنمين تردد مزامير جدّهم داود على أصوات الأبواق، فوق درجات الهيكل.

وتحيط دار الأمم أروقة ضخمة فيها عددٌ كبيرٌ من الأعمدة ذات الارتفاع الكبير، أهمها رِوَاق سُلَيْمَان الذي يمتد على الجانب الشرقي للهيكل. وكان هناك غرف لسكن اللاوِيّين، ومُجمّع أو مدرسة لعلماء اليهود. وكان الكتبة يلقون دروسهم ويعقدون محاوراتهم في أبهاء الأعمدة.

إضافة لذلك، كانت هناك موائد الصَّيَارِفَة، وباعة الحمام، ولوازم العبادة التي كانت تباع أوقات العيد. ومن مسافة ليست بعيدة عن الهيكل، كانت تُسمع أصوات المساومات العالية، وخوار البقر، وثغاء الغنم، وهديل الحمام، وقد امتزجت كلها برنين الفضة وأصوات المخاصمات الصاخبة. ولأن وجود هذه الأمور لا يتم إلا بالاتفاق مع الكهنة، فيَظهر المستوى الروحي الذي انحدر إليه هؤلاء زمن المسيح. ومن هذه الدار كانت تنبعث رائحة روث الحيوانات المقززة التي ملأت المكان، فانتشرت لأبعد من دائرة الهيكل، حتى إن القادمين يشمّون هذه الرائحة قبل أن يصلوا إليه.

في أيام العيد تمتلئ أروقة الهيكل بالجموع، ولأن الوصيّة تُلزم العابدين «وَلا يَحْضُرُوا أَمَامَ الرَّبِّ فَارِغِينَ»، كان الفقراء منهم يخيّم عليهم البؤس. أمّا المقتدرون، فإرضاءً للكهنة الَّذِينَ يفحصون الذبائح، ولا يَقبلون منها إلّا ما يحقق مطالب الناموس، كانوا

---

[1] – حوضاً نحاسياً للاغتسال، مصنوعاً من النحاس، وبدون قياس. لا يحق لأحد الاغتسال به إلا الكهنة فقط من أجل التطهير قبل الدخول إلى الأقداس، أو قبل اقترابهم من مذبح النحاس لتقديم الذبيحة.

يفضلون شراءها من باحة الأمم لئلا يخسروا مع أولادهم بركات الله. ولأنه لا تُقبل العملة في الهيكل إلّا على قياس شَاقِلِ القُدْس[1]، لذا امتلأ المكان بالصَّيَارِفة. ونظراً للمردود الكبير من عمليات البيع والصيرفة، كان الكهنة من وراء السّتار يتقاضون نصيباً من العمولة عن كلّ ذبيحة تباع، أو عملة تُصرف. ولكثرة التّجارة والجّشع، كان الصيّارفة جلوساً لئلا يُفقد منهم شيء. وهكذا صار العيد فرصة تُطفأُ فيها قناديل الأخلاق، ويستحيل الهيكل من مكان يُعبد فيه الله، إلى مكان يُعبد فيه المال.

بين الحاضرين في الهيكل كان كثير من المرضى والمصابين بعاهات أو بمسّ ما. كان احتياجهم لرحمة الله كبيراً، وكان الرجاء أن يجدوها عند الكهنة أوصياء الله على الشعب. لكنّ الذي انشغل بجمع المال والحديث مع سادة الشعب وأغنيائه، لم يجد وقتاً يُكلم فيه طالب رحمة.

كانت مياه بركة سِلْوَام[2] في هذا اليوم زرقاء لامعة كالمرآة، تنعكس على صفحاتها خضرة الأشجار والأزهار الناضرة. أمّا بركة (بيت حِسْدَا)[3] عند باب الضأن، حيث الكهنة يغسلون الغنم ويأتون بها إلى الهيكل، هناك في أروقتها الخمسة «كَانَ مُضْطَجِعاً جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمْيٍ وَعُرْجٍ وَعُسْمٍ». فبدت البركة كأنها لون داكن في لوحة زاهية.

أما نبع (عَيْنِ رُوجَل)، ونبع (جَيْحُون)، فقد جذبا النَّاس ليستريحوا ويستمتعوا ببرودة المكان.

بينما وادي قَدْرُون الذي يحدّ المدينة من جهة الشرق، ويقع بين الأسوار الشرقية لأورشليم وجبل الزيتون، فقد كان ممتلئاً بالمياه العكرة التي تنساب فيه منحدرة إلى

---

[1] – الشاقل: هو وحدة الأوزان للمعادن، أمّا شَاقِلِ القُدْس، فهو وزن عياري كان يُحفظ في الهيكل.

[2] – تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة أورشليم.

[3] – تقع إلى الشمال من الهيكل، يسمونها بالعبريّة بيت زاتا، حولها خمس قاعات (أروقة).

الجنوب، حيث تلتقي مع مياه وادي هِنُّوم[1] المنحدرة من الغرب، ثم تمضي مسرعةً إلى البحر الميت. وعلى هذا الوادي–قَدْرُون– نُصبت عدّة جسور للوصول إلى مدينة أورشليم، أهمّها الجسر المقابل للباب الشرقي الوحيد للهيكل، ويرتفع هذا الجسر عن قعر الوادي بنحو ٤٠٠ قدم، ومنه يمكن الدخول إلى دار الأمم مباشرة.

أما الطريق المؤدي إلى (بَيْتِ عَنْيَا)، التي تقع على المنحدر الشرقي لجبل الزَّيْتُون، رغم كونه عسير المسالك، لكنه كان يعج بالحجاج القادمين إلى أورشليم من النبطية، والمدن العشر، وبيدية. وكانت أشجار الخروب والنباتات الشوكية متناثرة على طرفيه.

أمّا الطريق المؤدي إلى أَرِيحَا المنخفضة عن سطح البحر فيبدأ من شمال شرق أُورُشَلِيم، وتنتشر على جانبيه أشجار النخيل. وكان حاراً في هذا الوقت من العام. وقد امتلأ هو الآخر بالحجاج القادمين إلى أُورُشَلِيم من الجليل والسامرة.

أمّا الطريق المؤدي إلى يافا المدينة الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، والمرتفعة عن سطح البحر فقد انتشرت على جانبيه أشجار الحمضيات. وكان يعج بالحجاج القادمين من إفريقيا إلى أُورُشَلِيم عبر البحر المتوسط، من مصر وليبيا وتونس والجزائر وأماكن أخرى. حيث تَوزّع هناك الكثير من يهود الشَّتَات.

ولأن الفصح اعتُبر أحد الأعياد الرئيسية الثلاثة الكبرى، التي كان مفروضاً فيها على جميع الرجال اليهود الظهور أمام الرّب في بيت العبادة، ومن يهمل تقديم ذبيحة الفصح كان يُنبذ من الشعب. في هذا الوقت امتلأت أُورُشَلِيم بالزوار من سكان البلاد، ومن يهود الشَّتَات.

---

[1]– يدعى أيضاً (وادي الجثث)، أو (وادي القتل). كان قريبا من أسوار أورشليم من جهة الجنوب، عند مدخل باب الفخار، وكان يقع على الحدود بين سبطي يهوذا وبنيامين. كانت نفايات المدينة، وجثث المجرمين بعد إعدامهم تُلقى هناك، ثم تحرق. وهذا ما جعل النّار تظل مشتعلة فيه على الدوام. ومن اسم هذا الوادي اشتقّت كلمة جَهَنَّم الواردة في العهد الجديد.

كان الاستعداد كبيرًا جدًا لاستقبال عيد الفصح الذي فيه يُذبح خروفٌ، أو جديٌ بين العشاءين[1]، نحو غروب الشمس، ويشوى صحيحاً، ثم يؤكل مع فطيرٍ وأعشابٍ مُرّة. لدرجة أن مجمع السنهدريم الأعظم[2]، كان يرسل مندوبين لأصحاب الأغنام والماشية لتوفيرها من أجل الذبائح التي يقدمونها في العيد. وكان يأمر الشعب أن يبيضوا القبور على الطرقات لكي يحترس منها النَّاس، فلا يتنجسوا وهم في سيرهم لتقديم خروف الفصح.

كانت أورشليم في أسبوع العيد لا يوجد فيها موطئ قدم، طُرقاتها وبيوتها وساحاتها في ازدحام، ولأنه ليس فيها مكان للجميع، كان الحجاج يأتون إليها قبل يوم الفصح، وينصبون خيامهم على جبل الزيتون، وحول الهيكل. أمّا السير إليها فكان في جماعات طلباً للرفقة والأمن. وبينما النسوة والشيوخ يمتطون ظهور الدّواب لعبور الطرق الصخرية والمنحدرات، كان الرجال والشّباب والصبية يمشون سيراً على الأقدام.

وإذ تسير الجموع بفرحٍ، كانت الأماكن تذكّرهم بتاريخ شعبهم، وعظائم الله. فيعزف البعض، وترنم الجماعة، وترتفع الهتافات والتسابيح مرددة صدى مزامير جدّها داود. وإذ تبدو لعيونهم أبراج أُورُشَلِيم، تتحد أصواتهم في ترنيمة الظفر: «فَرِحْتُ بِالْقَائِلِينَ لِي: إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ نَذْهَبُ. تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكِ يَا أُورُشَلِيمُ. أُورُشَلِيمُ الْمَبْنِيَّةُ كَمَدِينَةٍ مُتَّصِلَةٍ كُلِّهَا... اسْأَلُوا سَلاَمَةَ أُورُشَلِيمَ. لِيَسْتَرِحْ مُحِبُّوكِ. لِيَكُنْ سَلاَمٌ فِي أَبْرَاجِكِ رَاحَةٌ فِي قُصُورِكِ. مِنْ أَجْلِ إِخْوَتِي وَأَصْحَابِي لأَقُولَنَّ: سَلاَمٌ بِكِ. مِنْ أَجْلِ بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِنَا أَلْتَمِسُ لَكِ خَيْراً».

١– هي تقريباً الفترة الممتدة من الساعة الثالثة ظهراً وحتى غروب الشمس، أي حتى بداية اليوم التالي (تثنية ١٦: ٦).

٢– مجلس اليهود الكبير، أو المحكمة العليا للأمة اليهودية. كان يمثّل الشعب أمام الرومان، ويتكون من واحد وسبعين عضواً، يرأسه الحبر الأعظم، رئيس الكهنة. وقد توقف عمل السنهدريم بعد عام (٧٠ م)، بعد خراب أُورُشَلِيم.

وإذ يدخلون المدينة يبدؤون في إعداد الفصح، وحين يَسأل الأولاد: «مَا هَذِهِ الْخِدْمَةُ لَكُمْ؟»، يقولون: «هِيَ ذَبِيحَةُ فِصْحٍ لِلرَّبِّ الَّذِي عَبَرَ عَنْ بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ لَمَّا ضَرَبَ الْمِصْرِيِّينَ وَخَلَّصَ بُيُوتَنَا».

ربما كان عدد الَّذِينَ حضروا ذلك الوقت ليقدموا خروف الفصح، حوالي ربع مليون شخص، وهذا يعني عشرات الألوف من الخرفان كانت تعدُّ للذبح.

ولضمان الأمن في مدينة أورشليم، لا سيما في الأعياد، كان في الركن الشمالي الغربي للمدينة قلعةٌ، تدعى –قلعة أنطونيا– التي تطل على الفناء الشمالي للهيكل. وكانت هذه القلعة هي مقر الوالي في أثناء إقامته في أورشليم، وكانت الحامية العسكرية المقيمة فيها، على استعداد دائم لقمع أي شغب في الهيكل، أو المدينة.

الفصل الثّاني
بَعْدَ يَوْمَيْنِ

الأربعاء، ١٢ نيسان العبراني

كان طقس الأربعاء مشمساً، والجو حاراً قليلاً في مدينة أُورُشَلِيم، لكن في أطرافها وعلى جبل الزَّيْتُونِ حيث كان المعلّم يبيت مع تلاميذه الِاثْنَيْ عَشَرَ، كانت أشجار الزَّيْتُون تُلطّف حرارة الجو، وتجعل الندى يملأ المكان مع مطلع الصباح. أمّا الْمِعْصَرَة القديمة هناك، فكانت تملأ الجو برائحة الزَّيْتُون، رغم أن الوقت ليس وقت قطافه وعصره.

اعتاد المعلّم في اليومين الماضيين أن يبيتَ مع تلاميذه في منزل قُرب الْمِعْصَرَة، وبينما ينام تلاميذه من شدة التعب، يخرج منفرداً عنهم ليصلي قرب شجرة زيتونٍ بدت ضخمة نوعاً ما مقارنة بأخواتها. ومع أنه كان يمشي إليها بهدوء، لكن بعض الأغصان اليابسة التي تتكسر تحت قدميه، كانت تقلق بعض الحيوانات فتفر من أمامه مذعورة، ولها صوتٌ ينم عن عدم الارتياح.

كان المعلّم يدرك أن ساعته قريبة جداً، فيطيل صلاته إلى ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل. وعندما يبدأ الندى بالتشكل على جسده يعود أدراجه إلى المنزل حيث تلاميذه يغطّون في نوم عميق. وإذ يُفتح الباب الخشبي الثقيل لسور المزرعة كان صوت مفاصل الباب الصدئ يوقظ بُطْرُس، فيلتفت حوله ليجد مكان المعلّم خالياً، فيدرك انه قادم الآن من الصلاة. فيعدّل من وضعه، ثم يضع رأسه تحت الغطاء ويتمتم قائلاً: ألا يتعب المعلّم، ماذا تفعل بضع ساعاتٍ من النوم بعد يومٍ شاقٍ من الخدمة. ثم يتثاءب وينام.

في صباح يوم الأربعاء، تناول التلاميذ طعاماً خفيفاً أعده يُوحَنَّا مع أخيه يَعْقُوب، من خبز الشعير والزيتون والجبن الأبيض، مع الحليب الدسم الذي كان يحضره لهم في كل صباح صاحب المنزل السخي.

كان التلاميذ جميعاً في حالة حزنٍ، لأن معلّمهم قد سبقَ وكلّمهم يوم أمس عن كرْمٍ يخصّهم، يؤخذ منهم ويعطى لآخرين. وعن ابن هو وارث الكرم يقتله الكرامون. وعن صاحب الكرم الذي يغضب فيأتي ويقتل الكرامين ويعطي الكرم لآخرين. وإذ علّق تَتَنَائِيل (بَرْثُولَمَاوُس) ليلة أمس على المثل بالقول: إن المعلّم هو الوارث. اكفهرت وجوههم، وقالوا فيما بينهم: المسيّا لا يموت. كانت أفكارهم مضطربة وذهنهم مشوشاً.

أغلقوا الباب خلفهم دون ضجّة إلا صوت أزيزه المزعج. ومع تلاميذه توجّهَ المعلّم غرباً عابراً بين خيام الحجاج المنصوبة على جبل الزيتون، ونزلَ باتجاه وادي قدرون المليء بالصخور الضّخمة الملساء التي نحتتها مياه الوادي عَبر مئات السنين، ثم سار جنوباً محاذياً للهيكل الذي هو جزءٌ من سور المدينة الشرقي، وإذ تجاوزه، وصل إلى جسر قديم يعلو الوادي، عبرَ منه إلى أُورُشَلِيم، من إحدى بواباتها القريبة من الهيكل الذي نُصبت حوله العشرات من خيام الحجاج. ثمّ تجوّلَ قليلاً في شوارعها كمن يلقي عليها نظرة وداع.

وصل المعلّم غرباً إلى بيت قَيَافَا[1] رئيس الكهنة، وبينما هو ينظر إلى الدّار قال بُطْرُس لأخيه أَنْدَرَاوُس: مررنا كثيراً أمام هذه الدّار، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يقف فيها المعلّم هنا، تُرى هل يرغب بزيارة رئيس الكهنة؟ أجاب أَنْدَرَاوُس: وهل

---

[1] – كان قَيَافَا رئيساً للكهنة من (١٨م إلى ٣٦م). وكان صهراً لحَنَّان رئيس الكهنة السابق، وقد عينه رئيساً للكهنة الوالي الروماني (فاليريوس جراتوس Valerius Gratus) والي سورية، وظلّ قَيَافَا يشغل مركز رئيس الكهنة إلى أن خلعه (فيتليوس Vitellius) والي سورية. يَنعم رئيس الكهنة عادة باعتبار كبير جدًّا، فهو رئيس السنهدريم الذي تصل صلاحيّاته إلى جميع اليهود في العالم.

تعتقد أنه يستقبله؟ فعلّق يَعْقُوبُ بْنُ حَلْفَى بالقول وهو يهزُّ رأسه: لا أعتقد أن حَبر الأمة الأعظم لديه من التواضع ما يكفي لاستقبال معلمنا!

تابَعَ المعلّم سيره غرباً، ثم استدار شمالاً حتى وصل إلى قصر الثعلب هِيرُودُس أنتيباس[1]، المحاذي لسور المدينة الغربي، في القسم العلوي من المدينة. وقد اعتاد هِيرُودُس أن يأتي إلى قصره هذا في المناسبات والأعياد الدينية.

وبينما كان المعلّم متوقفاً أمام القصر، كان التلاميذ في حالةٍ من الحيرة. قال يَعْقُوبُ بْنُ زَبْدِي، وهو يسير في المؤخرة متعباً ومتململاً: ما هذا الطريق الذي نسير فيه، وما بال المعلّم لا يتكلم مع أحد؟ أجاب لَبَّاوُس المُلَقَّب تَدَّاوُس: معك حق، يبدو لي أن المعلّم يخطط لزيارة قَيَافَا رئيس الكهنة، والوالي هِيرُودُس، وربما أيضاً الوالي بيلاطُس!

ضحكَ سِمْعَانُ الْقَانَوِيُّ وقال معلقاً: لو صح كلامك هذا يا أخي، فسنصبح من رواد القصور، ومن علية القوم. أجاب تُومَا ورأسه منكسة للأرض: لننتظر ونرى.

لم يبال المعلّم بأحاديث تلاميذه، ولا وقت لديه للرد عليها، لذلك تابع سيره بالاتجاه الشمالي الشرقي، حتى عاد إلى الهُيْكَل ثانية، فسار موازياً الْهَيْكَل حتى وصل إلى قلعة انطونيا، حيث يقيم الآن فيها الوالي بيلاطُس الْبُنْطِيّ[2]، لمتابعة أحوال المدينة في العيد. ومن مسافة ليست ببعيدة أمكن المعلّم وتلاميذه أن يروا

---

[1] – كان هِيرُودُس والياً على منطقة الجليل وبيرية من (٤ ق.م. إلى ٣٩ م). وهو الابن الثاني لهِيرُودُس الكبير من زوجته الرابعة السّامرية (ملثاكي)، لذلك فإن نصفه أدومي ونصفه سامري. له أخ غير شقيق يدعى فِيلُبُّس، كان هو الآخر والياً على إيطورية وتراخونيتس، اللتان تقعان إلى الشمال من بحر الجليل. هذا هجرته زوجته هِيرُودِيَّا لتعيش مع أخيه هِيرُودُس، فأدانهما يُوحَنَّا الْمَعْمَدَان لأجل هذا الفجور، فما كان من هِيرُودُس إلا أن قطع رأسه وقدمه هديّة لابنة هِيرُودِيَّا. دعاه الرّب يسوع بالثعلب.

[2] – بِيلاَطُس الْبُنْطِيّ، والأصح (بُنطيوس بيلاطُس). هو خامس حُكام مقاطعة يهوذا الرومانية، كان في عهد الإمبراطور طِيبَارِيُوس قَيْصَر، وقد خلفَ (ڤاليريوس گراتوس Valerius Gratus) كحاكم على يهوذا عام (٢٦م). كان يقيم في قيصرية شمال أورشليم. لكنه في الأعياد الكبرى كان يتواجد في أورشليم ليخمد أي ثورة أو فتنة وسط التجمعات في الأعياد.

بيلاطُس الوالي وهو يقف على سور القلعة مع بعض عسكره. عندها قال سِمْعَانُ الْقَانَوِيُّ وهو ينظر إلى لَبَّاوُس الذي علت وجهه الدهشة: يبدو أن نبوتك قد تحققت يا أخي، ألعلنا حقاً سنصبح من رواد القصور؟ أجاب لَبَّاوُس: ليست نبوة يا أخي، إنها مجرد كلمات. لكن دعنا نخمّن الآن إلى أين سيمضي المعلّم! وبحماسٍ قال مَتَّى الْعَشَّار: اسمحوا لي أن أخمّن معكم وأقول، إن المعلّم سيمضي الآن إلى الْهَيْكَل. أجاب نَثَنَائِيل بثقةٍ: أشاطرك الرأي يا مَتَّى.

التفَّ المعلّم جنوباً، ونزل مع سور الْهَيْكَل ليدخل من إحدى بواباته إلى باحة الأمم وسط دهشة التلاميذ الَّذِينَ توقفوا عن المسير قليلاً وهم ينظرون بعضهم لبعض. أمّا المعلّم فتوجه إلى حيث كان كلّ الشّعب يبكرون إليه ليسمعوه، أو يروا آياته، أو انتصاراته على رجال الدّين المرائين في كل حوار. وإذ بدأ يُعلّم في دار الأمم، ازدحمت عليه الجموع. وجاء الْفَرِّيسِيُّونَ لِكَيْ يراقبوه ويَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ.

بعد وقتٍ من الحوار مع الفَرِّيسِيِّين، غادر المعلّم المكان حَزِيناً عَلَى غِلاَظَةِ قُلُوبِهِمْ، وعَبَر إلى دار النّساء. وإذ كان متعباً جلس تجاه الخزانة وحوله التلاميذ، وبدأ يُراقب كيف يضع الجميع نقودهم في الخزانة التي كانت على شكل بوق، توضع فيه النقود فتعطي صدىً قوياً. كان الأغنياء أمام الخِزَانَةِ يتعمّدون رفع أياديهم قبل إسقاط نقودهم التي يعلو ضجيجها ساعة ارتطامها بالخِزَانَةِ، ومع رنين النحاس والفضة تعلو ابتسامات الكهنة والشعب، وترتفع آهات التعجب من كَرَمٍ قلَّ نظيره.

جاءت واحدة من اللواتي أكلَ الكتبة بيوتهن بِعلّة الصلاة. اسمها أَرْمَلَة. ولقبها فقيرة. ثيابها تثير الشفقة، وخشونة يديها تروي قصة عوز وكفاح. هذه أَلْقَتْ كل معيشتها. فِلسَين. وقالت بصوت خفيت: أموت أنا، ويحيا من هو أفقر مني. فأغنت قَرَابِينَ اللهِ بفقرها.

لم يلتفت إليها أحد، ولا سمع كلماتها سوى المعلّم. ومُذ رآها عرفها وابتهج. فدعا تلاميذهِ وقال لهم: «إِنَّ هَذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقَوْا فِي الْخِزَانَةِ». وإذ استغرب التلاميذ، قال بُطْرُس: يا معلّم، فَسِّرْ لَنَا هَذَا القول. نظر المعلّم إلى التلاميذ وهو جالس، ثم قال: هَلْ أَنْتُمْ أَيْضاً حَتَّى الآنَ غَيْرُ فَاهِمِينَ؟.. ثم نظر إلى بُطْرُس وقال: نعم، ألقت أكثر من الجميع، «لأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا. وَأَمَّا هَذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا كُلَّ مَعِيشَتِهَا». وبعد قليل من الصمت علّقَ يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ بالقول: إنهم فِلسَين من النحاس الأحمر، ماذا نشتري بهما؟. سمعه المعلّم لكنّه لم يُعره انتباهاً.

بعدها نهض المعلّم بنشاطٍ، فتبعه تلاميذه. تجول قليلاً في الهَيْكَل وخاصة في رِوَاقِ[1] سُلَيْمَان، ثمَ مرّ بقرب باب الهَيْكَل الَّذي يُقَال لَهُ «الجَمِيل»، فإذا بعض النَّاس يحملون رجلاً كسيحاً منذ مولده. وكانوا يضعونه كل يوم عند هذا الباب ليستعطي الداخلين. توقف المعلّم قليلاً، وكأنه همّ بأن يفعل شيئاً، لكنه لم يفعل. نظر إلى بُطْرُس وَيُوحَنَّا، ثم نظر إلى الرجل الكسيح، ثم أعاد النظر إلى بُطْرُس وَيُوحَنَّا، وكأنه يوصيهما أمراً. ثم تابع سيره فخرج من الباب الشرقي للهَيكَل، إلى جسرٍ قديمٍ، عابراً وادي قدرون باتجاه جَبَلِ الزَّيْتُونِ حزيناً.

وفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ، كان تلاميذه المبهورين بجمال الهَيْكَل يتحدثون عن عظمته، فقال: يَعْقُوب بْنُ حَلْفَى والدهشة تعقد لسانه: بين كل الأمم لا يوجد بناء مثل هذا!

هزّ تَدَّاوُسَ رأسه مؤكداً مصداقية ما سمعَ قائلاً: ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، إنّه تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، نفتخر به على كل الشعوب. ومثله قال الجميع.

---

١ – الرواق: ردهة رحبة في مدخل الهَيْكَل. أمّا (رِوَاق سُلَيْمَان)، فكان بهواً مسقوفاً على أعمدة، يقع في الجانب الشرقي من فناء الهيكل الخارجي، ويطل على وادي قَدْرُون.

أمّا يَهُوذَا ليس الإِسْخَرْيُوطِيّ فاقترب من المعلّم وهو منتشياً بكلام رفاقه وقال: «يَا مُعَلِّمُ انْظُرْ مَا هَذِهِ الْحِجَارَةُ وَهَذِهِ الأَبْنِيَةُ؟». فوضع المعلّم يده على كتفه وأجابه وهو ينظر إلى الْهَيْكَل: «أَتَنْظُرُ هَذِهِ الأَبْنِيَةَ الْعَظِيمَةَ؟ لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ».

وإذ وصلوا ظهراً إلى جبل الزيتون جَاءُوا إِلَى ضَيْعَةِ جَثْسَيْمَانِي، حَيْثُ البستان الذي يقيم فيه المعلّم مع تلاميذه ليبيتوا فيه كالمعتاد، وهناك اختار المعلّم تلك الشجرة الضخمة التي اعتاد أن يصلي تحتها، فتَقَدَّمَ إِلَيْهِ تلاميذهِ والتفوا حوله منفردين، بُطْرُس وَيَعْقُوب وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُس، أمّا البقية فمضوا بحجة التعب والجوع. وكالعادة، بُطْرُس الذي جلس قريباً منه نظرَ إلى رفاقه وكأنه يستأذنهم بالحديث، ثم التفت إلى المعلّم قائلاً: «قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا ؟ وَمَا هِيَ عَلاَمَةُ مَجِيئِكَ وَانْقِضَاءِ الدَّهْرِ؟».

احتاج الجواب إلى وقت طويل من الشرح، والمعلّم لم يبخل عليهم بالكلام، فحدثهم مُطوّلاً رغم تعبه، وهم بذلوا جهداً كبيراً في التقاط المعاني الخفية وراء كلماته، لم يتجاسر أحد على مقاطعته لأنه بدا حازما في بعض الأحيان، وعلا صوته في حين آخر. كان يحدثهم عن المستقبل وكأنه يرى الأحداث أمامه تمر كشريط سينمائي، فيختار بعض الأحداث من هنا وبعض الأحداث من هناك، حتى التبس الأمر على الكثيرين فتاهوا في دهليز المستقبل.

وإذ سمعَ التلاميذ أقوال معلّمهم ازداد ارتباكهم، وقلقوا على هيكلهم، وعلى مستقبل أُمتهم. فخراب الْهَيْكَل بالنسبة لهم يعني خراب أورشليم، ونهاية الزمان، وانقضاء الدهر. أمّا كلماته: «فَاحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ... لِكَيْ تُحْسَبُوا أَهْلاً لِلنَّجَاةِ مِنْ جَمِيعِ هَذَا الْمُزْمِعِ أَنْ يَكُون»، فجثمت كجبلٍ على صدور سامعيه.

كان الْهَيْكَل مهيباً في منظره. عظيماً في بنائه. تعلو منه أصوات الترانيم والصلوات، وروائح البخور والذبائح. بيت كبير شامخ على جبلٍ عالٍ، يروي بحجارته الضخمة

تاريخ شعب أحبه الرّب، ليس لكثرته، ولا لقوته، بل لكونه «الإِلهُ الأَمِينُ الحَافِظُ العَهْدَ وَالإِحْسَانَ»، فارتبط بوجدان الأمة.

وإذ صمدت حجارته الضخمة مئات السنين، ظنّ النَّاس أنّه عصيٌّ على الدّمار لا يُخرب، وإن حدث، فإنها علامة النّهاية. متناسين أن بقاءه ارتكز على طاعتهم، وأن خرابه علامة انتهاءِ عهدٍ بينهم وبين ساكنه.

ولَمَّا أَكْمَلَ المعلّم أقواله كُلَّهَا وهو عالمٌ منَ البَدْءِ «مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ»، قَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصْلَبَ». أمّا هم فلم يفهموا شيئاً، ولا علِقت الكلمات بأذهانهم.

كان الجو بارداً والمساء يلقي بظلاله على الجميع. فانسحبوا إلى مضاجعهم متثاقلين دون أن يلحظوا أسارير المعلّم التي انقبضت. وإذ دخل الشَّيْطَانُ تلك الليلة في يَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ، مضى وحيداً إلى أُورُشَلِيم، إلى دار قَيَافَا، حيث يجتمع هناك رؤساء الْكَهَنَة ومشيخة الشعب، ليسلّمهم المعلّم. أما المعلّم فمضى تلك الليلة كعادته ليصلي ساهراً.

كان غروب الشمس بديعاً تلك الليلة، وبحسب التقويم العبري صار اليومُ خميساً.

الفصل الثّالث
ماذا تُعْطُونِي؟

الخميس، ١٣ نيسان العبراني

في تلك الليلة، في عتمة غرفهم، المختبئين في ظلامها الأسود. «اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَشُيُوخُ الشَّعْبِ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ الَّذِي يُدْعَى قيَافَا، وَتَشَاوَرُوا لِكَيْ يُمْسِكُوا يَسُوعَ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُوهُ».. «لأَنَّهُمْ خَافُوا الشَّعْبَ».. «وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: «لَيْسَ فِي الْعِيدِ لِئَلَّا يَكُونَ شَغَبٌ فِي الشَّعْبِ». لكنّ قصد الله كان موت المعلّم في العيدِ.

كانت المشاورات كثيفة، وفيها الكثير من التوتر، خاصة عندما قال أحدهم: يوجد بين تلاميذ يسوع شخصٌ يُدعى الإِسْخَرْيُوطِيُّ، تواصلتُ معه منذ فترة، وعلمتُ أنهم قد أسلموهُ الصندوق ليصرف منه على احتياجاتهم. إنه شخصٌ ميالٌ لحبِّ المال، ولست استبعد أنّه يسرق من الصندوق. على كلٍ، في أحاديث كثيرةٍ معه، كان يكلّمني كتاجر يبحث عن الربح، وقد عرضت عليه أن يزورنا، وبعد إذنك سيّدي، قلت له، أنك ستكرمه إن لبّى لنا بعض الاحتياجات، أو إن أجاب عن بعض الأسئلة. وكانت المفاجأة سيّدي، أنّه قال لي، بلّغ سلامي للحبر الجليل، وسأكون قريباً في زيارة لكم. فقلت له، إننا نجتمع في هذه الأيام المباركة كلّ مساءٍ لنتدارس أمر العيد، وأحوال الشعب، فوعد أن يزورنا مساء. وأرجو من الله أن يأتي في هذا المساء.

فقال الجميع بصوت واحد: آمين.

وما هي إلا دقائق حتى سُمع أزيز الباب وهو يُفتح، ليدخل مَلْخُس عبد رئيس الكهنة، ويتوجه إلى قيَافَا رئيس الكهنة، ويهمس في أذنه بعض الكلمات التي جعلت وجهه الكميد يشرق ثانية، فهمس في أذني حَنَّان رئيس الكهنة الأسبق: قد استُجيبت طلبتنا.

عاد مَلْخُس إلى الباب وفتحه ليَدخُل شخصاً لم تتضح ملامحه بسبب الإضاءة الخفيفة، هذا وقف أمام رئيس الكهنة قائلاً له: الربُّ معك سيّدي.

قيَافَا: أهلاً ، أهلاً صديقنا العزيز يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ. إنّه أمرٌ طيب أن نراك بيننا.

يَهُوذَا: أشكرك سيّدي، إنه امتيازٌ لي، أن أقف أمام حبر الأمّة الأعظم.

قيَافَا: يا لتواضعك، أخبرني عَمِّينَادَاب بعض الأمور عنك. ثم التفت باتجاه عَمِّينَادَاب قائلاً: ها هو صديقك يَهُوذَا قد جاء لزيارتنا. أجاب عَمِّينَادَاب مبتسماً: لو تعلم سيّدي كم أنا مسرور بزيارته، ومن دواعي سروري أن أشهد أن هذا الرجل يحب الفقراء، وعمل ما في وسعه لمساعدتهم. أجاب قيَافَا: يا لنبل مشاعره. أجاب عَمِّينَادَاب، نعم سيّدي، ثم تابع قائلاً وهو يقترب من يَهُوذَا: تصوّروا يا إخوتي، هذا الرجل النبيل اختلفَ مع معلّمه يوم السبت الفائت عندما كانوا مدعوّين إلى وليمة في بيت سِمْعَان الأَبْرَص، إذ أبدى رأياً صائباً عندما رأى مريم وهي تكسر قارورة طيب ثمنها أكثر من ثَلاَثْمِئَةِ دِينَارٍ وتسكبه على رأسِ يسوع.

أجاب الإِسْخَرْيُوطِيُّ بحماسٍ متأثرا بكلمات المديح: نعم كان يمكن أن يباع هذا الطيب الذي أتلفته مريم بِأَكثر مِنْ ثَلاَثْمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ. من أجل هذا شجعت الجميع لكي يُؤَنِّبُونَهَا.

ابتسم عَمِّينَادَاب وقال: ألم أقل لك سيدي، إنه شخص نبيل.. وها هو قد جاء إلينا لكي يضع حداً لتصرفات معلّمه، فمن غير المعقول أن يستمر الهدر في مال الربّ بهذه الطريقة.. إننا وكلاء على المال وسندفع حساب وكالتنا في يوم الرّب..

أليس كذلك أخي يَهُوذَا؟

أجاب يَهُوذَا وهو مضطرب: نعم نعم، المعلّم يتصرف أحياناً بطريقة لا تعجبني، وينبغي أن نضع حداً له.

تعجّب الجميع، ولم يُعلّق أحد على كلماته التي صدمتهم، فساد الصمت المكان، وهذا ما زاد من اضطراب يَهُوذَا، فبدا التوتر عليه واضحاً. وإذ أراد أن يَخرج من توتره قال وهو يتلعثم: «مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعْطُونِي وَأَنَا أُسَلِّمُهُ إِلَيْكُمْ؟». فبدا لهم رجلاً أحمق، بل مجنوناً.

صدمتهم الكلمات التي سمعوها، ومع أنهم استغربوها، لكنهم فرحوا بها، لدرجة أن أحدهم قال له: أنا مستعد أن أعطيك الكثير من الفضة، ورد آخر بحماسٍ: وأنا أيضاً. ومن مكان آخر جاء الصوت: هذا الرجل يعجبني، وأنا أيضا مستعد لإعطائه الفضة، قل يا يَهُوذَا كم تريد. عندها تغيرت ملامح يَهُوذَا وزال توتره، وتكلم بهدوءٍ قائلاً: ثلاثون شَاقِلَ من الفضة تكفي.

عاد الصمت يلّف المكان من جديد، هل حقاً يريد ثلاثين من الفضة. بعد فترة صمت نظر إليه قَيَافَا رئيس الكهنة بخبث وقال: ألعلّك تفاوضنا لتطلب المزيد.. أقصد، أنت تريد المزيد من الفضة لتوزعه على الفقراء. أمّا هو فبِحماسٍ وثقة قال: لا.. أريد ثَلاَثِينَ شَاقِلَ فِضَّةٍ فقط، أنا لا أساومك.. سأقوم بتوزيع المبلغ على الفقراء.

قال عَمِّينَادَاب بخبثٍ: هذا الأمر لم يفعله معلّمكم أبداً. أجاب الإِسْخَرْيُوطِيُّ بحماس: هذا حق. أما أنا فسأوزع المال الذي تعطوني، وبعد أن أنتهي منه، سيرسل الله لي المزيد لأوزعه على الفقراء، الرب صالح وأنا أثق به. ألم يقل المرنم: «هَلِّلُويَا. احْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ صَالِحٌ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ».

ابتسم قَيَافَا رئيس الكهنة وقال لمن معه: هَلِّلُويَا، هذا الرجل يا إخوتي صادق فيما يقول. ثم أشار إلى مَلْحُس، الذي أحنى رأسه، ومضى، ليعود بعد قليل وقد أحضر

معه ثَلاَثِينَ شَاقِلَ مِنَ الْفِضَّة، سلّمها إلى الإِسْخَرْيُوطِيُّ بعد أن عدّها أمامه. ثم قال له: متى نتمم صفقتنا في استلام معلمكم؟ فما كان من يَهُوذَا إلّا أن واعَدَهُمْ أن يسلّمه إليهم في العيد في فُرْصَةٍ مُوافِقَةٍ بالخفية عن الشعب.

ولأنّ الإِسْخَرْيُوطِيُّ لم يسمع قول المعلّم تلك الليلة: «بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصْلَبَ». ولم يذكر قول الرب: «رَأْيِي يَقُومُ وَأَفْعَلُ كُلَّ مَسَرَّتِي». إذ به يُعدّل دون أن يدري مشورة الْكَهَنَة الَّذِينَ قالوا، ليس في العيد نقتل يسوع لئلا يصير شغب في الشعب. فيتمم كلمات المعلّم بحذافيرها، وقصُدُ الله في أن يموت المسيح في العيد، دون أن يدري.

وقبل أن يمضي، سألوه عن المعلّم، فقال لهم، فيما كان المعلّم صاعداً إلى أُورُشَلِيم تنبأ قائلاً: «هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى الأُمَمِ فَيَهْزَأُونَ بِهِ وَيَجْلِدُونَهُ وَيَتْفُلُونَ عَلَيْهِ وَيَقْتُلُونَهُ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ»». وإذ لم يصدّقوا القيامة تناسوها. أمّا العبارة، «وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى الأُمَمِ فَيَهْزَأُونَ بِهِ وَيَجْلِدُونَهُ وَيَتْفُلُونَ عَلَيْهِ وَيَقْتُلُونَهُ»، فأبهجتهم. وإذ «حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ»، عزموا على تحقيق النبوة.

منذ زمن لم يفرح رجال الدين بتجارة مثل هذه. لو ساوَمَهم الإِسْخَرْيُوطِيّ لأعطوه بدلَ الثلاثينَ من الفضّة كلّ ما لديهم. ويكفيهم عزاء في هذا اليوم أن أحد التلاميذ ثمّنَ معلّمه في دكان التجارة بما لا يزيد عن سعر عبدٍ، وكان «هَذَا أَشَرُّ كُلِّ مَا عُمِلَ تَحْتَ الشَّمْسِ».

كان يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيّ رفيقاً للمعلّم، وسَمع منه كلاماً «تَشْتَهِي الْمَلاَئِكَةُ أَنْ تَطَّلِعَ عَلَيْه»، ومع ذلك قرر أن يسلمه بأبخس الأثمان، «وَمِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ يَطْلُبُ فُرْصَةً لِيُسَلِّمَهُ». أما رؤساء الكهنة، فالثمن الذي أقروه وحسبوا أنه كاف ليتسلموا مَلك إسرائيل بموافقة الخائن، فلا يتعدى ثمن عبدٍ قتله ثورٌ نطّاحٌ حسب

الوصية، «إِنْ نَطَحَ الثَّوْرُ عَبْدًا أَوْ أَمَةً، يُعْطِي سَيِّدَهُ ثَلاَثِينَ شَاقِلَ فِضَّةٍ».

أنهى الإِسْخَرْيُوطِيُّ مهمته عائداً إلى جبل الزيتون، كان الطريق طويلاً والطقس بارداً. فعجّل في سيرهِ حتى صار يلهث. وإذ وصل ضيعة جَثْسَيْمَانِي لمحَ المعلّم يصلي في البستان، فأصابته رعدةً كادت توقف أنفاسه، وإذ لم يحتمل المشهد مضى إلى فراشه، وكيس المال في طيات ثوبه. ولم يَغمض له جفنٌ تلك الليلة.

الفصل الرّابع
أَعِدَّا لَنَا الْفِصْح

الخميس، ١٣ نيسان العبراني

على جَبَل الزَّيْتُونِ ومع شروق شمس يوم الخميس أنهى المعلّم صلاته الطويلة التي قال فيها: «ذَبِيحَةً وَقُرْبَاناً لَمْ تُرِدْ، وَلَكِنْ هَيَّأْتَ لِي جَسَدا...ثُمَّ قُلْتُ: هَئَنَذَا أَجِيءُ. فِي دَرْجِ الْكِتَابِ مَكْتُوبٌ عَنِّي، لأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا أَللهُ». ثم ثبّت نظره على أُورُشَلِيم.

في بستان جثسيماني كان التلاميذ جميعهم قد استيقظوا متأخرين، وبينما هم يتبادلون تحيّة الصباح لاحظ الجميع أن يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ كان متوتراً، ومرتبكاً. وبينما متّى يعدّل فراشه سأله: هل أنت مريض يا يَهُوذَا؟

أجاب يَهُوذَا: لا لستُ مريضاً، إنه قليل من التعب والإرهاق، وبالمناسبة يوم أمسٍ ألم يكن حديث المعلّم غريباً عندما قال عن الهيكل: «لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ».

قال يُوحَنَّا معلقاً وبشيء من الحيرة: أيُّهَا الرِّجَالُ الإِخوة، بينما ذهبتم للمنزل يوم أمس، اجتمع بنا المعلّم في البستان أنا وبُطْرُس ويَعْقُوب وأَنْدَرَاوُس، وقد سألناه عن قوله هذا، فقدّم لنا شرحاً مطولاً، في نهايته طلبَ منّا أن نسهر، ليس نحن فقط بل قال، «وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: اسْهَرُوا». ثم قال كلاماً لم نفهمه جيداً.

توتر يَهُوذَا واقترب من يُوحَنَّا وأمسك بذراعه وهو يقول: هل قال لكم شيئاً يخصني.

ضحك يُوحَنَّا وضحك البعض ثم علّق بُطْرُس بالقول: لا تخف سيبقى الصندوق معك، وسنبقى نعاني من الجوع. ضحك الجميع ليعلّق فِيلُبُّس عليه بالقول: يا

رجل افرد يدك قليلاً ويكفيك تقتيراً علينا. طعام الفطور بالكاد يكفينا اليوم. وإن كنت غير قادر على فعل ذلك أعطِ الصندوق لأخينا مَتَّى.

قال يَعْقُوب وهو يتجاهل تعليق فِيلُبُّس: الكلام الذي حيّرنا كان قول المعلّم، «تعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ لِيُصْلَب». نعم الفصح سيكون غداً، ولكن من سيسلّم ابن الإنسان للصّلب. حقا كلام المعلّم ابتدأ يصير غامضاً. وما إن انتهى من جملته هذه، حتى ابتدأ يَهُوذَا يَسعُل وهو يضع يده على فمه. أمّا بُطْرُس فقال برجولته المعهودة: لن نسمح لأحد أن يمس المعلّم بسوء!

وبينما هم يُعدّون الطعام سمعوا صوت أزيز الباب. قال يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ: إنه المعلّم رأيته يصلي ليلة أمس في البستان. قال تُومَا: ومنذ متى تستيقظ في المساء، يا ثقيل النوم، ثم أردف: ألعلّك شاركته الصلاة. أجاب الإِسْخَرْيُوطِيُّ بغضب: هل تسخر مني؟ أنت تعلم أنّ المعلّم يصلّي منفرداً بشكل دائم، فكيف تريدني أن أشاركه الصلاة!

دخل المعلّم المنزل فرآهم يضحكون إلا يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ الذي كان متوترا على غير العادة، اقترب منه وأمسك بيده قائلاً: كيف كانت ليلتك يا صاحب؟ ودون أن ينتظر منه جواباً، أردف بالقول: تعال اجلس إلى المائدة، أنت تحتاج إلى الطعام، أمامنا يوم طويل وشاق. فعلّق تُومَا بالقول وهو يبتسم: ونحن جميعا يا معلّم نحتاج الطعام أيضاً، أم أن يهوذا لديه مهمة تتطلب أن يأكل أكثر منّا.

انزعج يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ وقال: أيّة مهمة، ها، أيّة مهمة.. ثم جلس حارداً في آخر المائدة.

كان هذا اليوم الربيعي رائعاً في أُورُشَلِيم ومليئاً بالحركة. حيث أسراب السنونو تجول مسرعة بين الأشجار التي اخضرّت أغصانها وأوراقها. يسابقها الباعة الجوالون الَّذِينَ انتشروا في أسواقها، وحول أسوار الهيكل، وفي أزقة الشوارع، يضعون بضائعهم على

الحمير ويتنقلون من مكان إلى آخر ليعرضوها على النَّاس، وخاصة الحجاج الَّذِينَ نصبوا خيامهم حول الهيكل أو على جبل الزيتون.

كان المـّارة في الطرقات يهيئون أنفسهم لأفراح العيد. والأطفال يركضون بدون سبب وهم فرحون، أمّا النسوة فيتحادثن بصوت عالٍ، بينما الرجال يُكملون اتفاقهم بشأن وليمة الفصح حيث كل عشرة أشخاص على الأقل ينبغي أن يكونوا حول مائدة الفصح. وبين الحين والآخر يُسمع خُوار بعض الأبقار، أو صهيل بعض الأحصنة التي يعلو ضجيجها على ضجيجهم. أما رائحة الطعام بين البيوت فكانت ذلك اليوم أدنى من المعتاد.

مضى وقت طويل من النّهار، والمعلّم كأب بين تلاميذه لم يتكلّم بعد عن وليمة الْفِصْح. وفجأة أخبرهم أنّه عازم على الذهاب إلى بَيْتِ لَحْمٍ، المدينة التي تبعد حوالي تسعة كيلومترات إلى الجنوب من أُورُشَلِيم، والتي يقال لها أيضاً أَفْرَاتَة. ففرح التلاميذ لأنهم سيكونون بعيدين عن أعين رجال الدين، وأسئلة معلّمي اليهود الفريسيين المزعجة.

عَبرَ المعلّم وادي قَدْرُون باتجاه الهَيكَل ومن على الجسر القديم دخله من البوابة الشرقية إلى رِوَاقِ سُلَيْمَان، ثم خرج من إحدى بواباته الجنوبية، وتوجه غرباً في شوارع وأزقة أُورُشَلِيم الضيقة.

كان الطريق جميلاً بين البيوت المتلاصقة مع بعضها، حيث رائحة الخشب الرطب تملأ المكان. بينما الشوارع المرصوفة بقطع الحجارة النظيفة غير المستوية كانت تُجبر العابر فيها على التمايل أحياناً يساراً وأحياناً يميناً. أما البعض ممن كان يستخدم حماره أو دابته في المسير كان يُجبر المارة أن يُفسحوا له الطريق ملتصقين بجدران إحدى البيوت. ومن النوافذ كان البعض يَطلُّ ليراقب الطرقات، أو ليطلب من بعض الباعة التوقف لشراء بعض الحاجيات.

موكب المعلّم كان كبيراً، ولضيق المكان كان التلاميذ يسيرون خلف بعضهم، وهم يتحدثون بمواضيع متعددة، وفي بعض الأحيان يَقطع حديثهم أحد الأشخاص الَّذِينَ شفاهم يسوع أو شفى بعض مرضاهم بالتحية المعتادة: الرب معكم.

استمروا بالمسير غرباً حتى قاربوا قصر هِيرُودُس الذي هو جزء من سور المدينة الغربي، فعبروا هناك من إحدى بوابات السور إلى الطريق المؤدي إلى بَيْتِ لَحْمٍ متجهين جنوباً. وفجأة صار الطريق طويلاً وعريضاً لا يوجد فيه أي ازدحام، وهذا ما أشعرهم بالسعادة وهم يقتربون من بَيْتِ لَحْمٍ.

كانت حقول القمح وأشجار التين والزيتون وكروم العنب، تحيط بمدينة بَيْتِ لَحْمٍ، فاستمتع التلاميذ مع معلّمهم في رحلتهم هذه.

قال تَثَنَائِيل مخاطباً سِمْعَانَ الْقَانَوِيُّ: هل تعلم أن سَلْمَا بن كَالِب، يُعتبرَ أَبُو بَيْتِ لَحْمٍ، وأنّ رَاحِيل قد دُفنت هنا. وإذ سمع تَدَّاوُس الكلام أضاف عليه قائلاً: نعم، نعم، وأيضاً سكنت هنا رَاعُوثُ الْمُوآبِيَّةُ مع بُوعَز زوجها الثاني، التي جاء من نسلهما داود.

كان الحديث ممتعاً وشيقاً فانضم إليه يَعْقُوبُ بْنُ حَلْفَى قائلاً: هذا صحيح وقد وُلد هنا داود بن يَسَّى الْبَيْتَلَحْمِيّ، وقد مسحه في هذه المدينة صَمُوئِيل النبي ملكاً خلفاً لشَاوُل الذي رفضه الرّب.

قال بُطْرُس: ولكن المدينة قد فقدت أهميتها الآن.

فأجاب مَتَّى الْعَشَّار محتجاً على بُطْرُس: كلا يا أخي، لقد تنبأ مِيخَا النبي بمستقبل باهر لهذه المدينة إذ قال: «أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْم أَفْرَاتَةَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ». وإذ سَمع المعلّم هذه الكلمات ابتهج قلبه.

قال يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ: أليست هذه نبوة عن المسيّا، إذن، متى جاء المسيّا يبقى للأبد.

قال مَتَّى الْعَشَّار: هذا ما نعرفه، وما يقوله لنا أحبار الأمة، المسيّا يبقى إلى الأبد.

كان المعلّم يستمع إليهم، وبنفس الوقت كانت أفكاره قد ذهبت إلى يومِ مولده في أحد إسطبلات هذه المدينة، وبدأت الأفكار تتوالى في ذهنه كشريط سينمائي يستعرض كل تاريخه حتى وصل إلى ما هو الآن. ثمّ توقف للحظة، وتنسم رائحة حقول القمح التي كان ينظر إليها، ممتزجة برائحة الأرض الرطبة، وقال في قلبه: «إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ».

كان المعلّم يبدو حزيناً تارةً، وشارداً تارة أخرى، لذلك لم يسأله أحد من التلاميذ أو يقاطعه في تأمله. أما يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ الذي كان مضطرباً اكثر من المعتاد، لأن صفقته لم تتم بعد، والصندوق في يده أتعبه. «كَانَ يَطْلُبُ فُرْصَةً لِيُسَلِّمَهُ»، ولم يجد أفضل من الْفِصْح فرصةً. لذلك تشاور مع التلاميذ في أمر العيد، فسألهم بخبث: ألن نشتري خروفاً للفِصْح؟ أعتقد أن الأمر قد تأخر، فغيرنا قد حسم أمره منذ العاشر من هذا الشهر، ونحن قد صرنا في الثالث عشر من الشهر.

قال أَنْدَرَاوُس: الإِسْخَرْيُوطِيُّ محقٌّ. وكذلك قال البعض. عندها قال الإِسْخَرْيُوطِيُّ لسِمْعَان بُطْرُس، وَيُوحَنَّا ويَعْقُوب: اسألوا المعلّم، «أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نُعِدَّ لَكَ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ». وإذ ذهبوا إليه وسألوه لم يجبهم. بل قال لهم: الآن قد حان الوقت لنعود إلى أُورُشَلِيم.

في ذلك اليوم لم ينظر الإِسْخَرْيُوطِيُّ في عيني المعلّم، فخفيتْ عنه محبة الله. وإذ وصل المعلّم مع تلاميذه إلى مشارف أُورُشَلِيم أرسل دون علم البقيّة «بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا قَائِلاً: اذْهَبَا وَأَعِدَّا لَنَا الْفِصْحَ لِنَأْكُلَ». فقالا له: «أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نُعِدَّ لَكَ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟» فقال لهما: «اذْهَبَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَيُلاَقِيكُمَا إِنْسَانٌ حَامِلٌ جَرَّةَ مَاءٍ».. « قُولُوا لَهُ: الْمُعَلِّمُ يَقُولُ إِنَّ وَقْتِي قَرِيبٌ. عِنْدَكَ أَصْنَعُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي»..

«اِتْبَعَاهُ إِلَى الْبَيْتِ حَيْثُ يَدْخُلُ».. «وَحَيْثُمَا يَدْخُلْ فَقُولاَ لِرَبِّ الْبَيْتِ: إِنَّ الْمُعَلِّمَ يَقُولُ: أَيْنَ الْمَنْزِلُ حَيْثُ آكُلُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي؟ ١٥فَهُوَ يُرِيكُمَا عِلِّيَّةً كَبِيرَةً مَفْرُوشَةً مُعَدَّةً. هُنَاكَ أَعِدَّا لَنَا. ١٦فَخَرَجَ تِلْمِيذَاهُ وَأَتَيَا إِلَى الْمَدِينَةِ وَوَجَدَا كَمَا قَالَ لَهُمَا»... «فَفَعَلَ التَّلاَمِيذُ كَمَا أَمَرَهُمْ يَسُوعُ وَأَعَدُّوا الْفِصْحَ». وهكذا ضاعت الفرصة من الإِسْخَرْيُوطِيُّ، إذ لم يعد قادراً على معرفة المكان، وإخبار الكهنة به، ليأتوا ويلقوا القبض على المعلّم، وهذا ما زاد في توتره. وإذ ضاعت الفرصة منه، بدل أن يراجع نفسه، ويعود عن مخططه السيء، حمق في فكره، وأظلم قلبه الغبي.

ذلك اليوم لم يكن فصحاً، لذلك كان غريباً أن تُذبح الخرفان ويرشُّ دمها في الهيكل ثم تشوى دون علم الكهنة. هذا ما يعرفه بُطْرُس، لذلك قال ليُوحَنَّا وهما في الطريق: أليس غريباً أن نجتمع قبل عيد الفصح بيومٍ لنأكل خروفاً مشوياً دون أن يكون هناك خروفٌ. ما هذه الأحجية؟ كيف يمكن لنا أن نجتمع قبل موعد الفصح؟ منذ ألف وخمسمائة عام ونحن نمارس هذه الفريضة دون تغيير!

أجاب يُوحَنَّا: معك حق يا أخي، الفريضة تقول، أن يُذبح خروفٌ أو جديٌ بين الْعِشَاءَيْنِ نحو غروب الشمس، ويشوى صحيحاً دون أن يُكْسَر مِنهُ عظمٌ، ثم يؤكل مع فطيرٍ وأعشابٍ مُرّة. وها هو المعلّم بدل أن يطلب منّا أن نعدّ خروف الفصح غداً الجمعة بين الْعِشَاءَيْنِ، يطلب منّا أن نُعدّ الفصح دون الخروف، والأعجب، في غير وقته! لا أفهم قصد المعلّم.

أجاب بُطْرُس: لابد أن المعلّم يريد أن يصنع أمراً عجيباً، لذلك طلبَ منا أن نفعل كل شيء بسريةٍ تامةٍ.

بعد لحظة صمت، بدا فيها يُوحَنَّا مضطرباً، سأله بُطْرُس: هل هناك ما يقلقك يا أخي؟ قال يُوحَنَّا: كيف لم أفكر بالأمر، هذا غير معقول، ما يفعله المعلّم غير معقول.

ارتبك بُطْرُس وقال: عن أي أمر غير معقول تتكلم يا أخي؟ قال يُوحَنَّا وهو يضرب كفيه ببعضهم: كيف لم نلاحظ أن المكان قريب من بيت قيَافَا رئيس الكهنة. قال بُطْرُس: هل تقصد أننا في خطرٍ عظيم. أجاب يُوحَنَّا: لا أعرف يا أخي، هذا السؤال لا أحد يجيب عليه سوى المعلّم.

كانت العلّية كبيرة، تتسع للمعلّم وتلاميذه، وهي مفروشة بشكل جيد. فدخلها بُطْرُس ويُوحَنَّا ومعهم الأعشاب، والخبز، ونتاج الكرمة الممزوج. وبعد أن انتهيا قال بُطْرُس مازحاً: أين ستجلس يا يُوحَنَّا؟ أجاب بسرعة: عن يمين المعلّم، ثمّ ابتسم وقال، حاول أن تحجز لك مكاناً قريباً منه. أجاب بُطْرُس مازحاً: سأفعل، سأفعل، فمن قال له المعلّم، طُوبَى لَكَ يا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، هذا يستحق الجلوس عن يمينه أكثر من الجميع، ثم توقف برهة ليتابع، أرجو أن لا نتشاجر على الأماكن.

ضحك كليهما، وعادا بسرعةٍ بعد أن أنهيا كل شيء إلى حيث المعلّم والبقية بانتظارهم خارج أورشليم عند سورها الغربي، مقابل قصر هِيرُودُس.

الفصل الخامس
مَنْ هُوَ أكْبَر؟

الخميس، ١٣ نيسان العبراني

كان المعلّم وبقيّة التلاميذ جالسين في أحد البساتين خارج سور أُورُشَلِيم بعيداً عن أعين المارة، وبينما كان التلاميذ فرحين برحلتهم هذه، وبجمال الطبيعة من حولهم. كان المعلّم وحده ينظر إلى الأفق وكأنه ينتظر أمراً ما. أمّا يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ فقد فارقه توتره بعدما رأى ما رآه من اهتمام المعلّم به، وأدرك أن قصته لم يعرفها، ولن يعرفها أحد، أقلّه في هذا اليوم.

لم يطلْ الوقت كثيراً حتى عاد بُطْرُس وَيُوحَنَّا فرحين بإنجاز ما طُلبَ منهما. اقتربا من المعلّم وقالا له: العشاء جاهز أيها المعلّم. نهضَ المعلّم والحزن باد على وجهه، وقال لتلاميذه: هيا،، لدينا عمل كثير. وإذ وصل المعلّم نحو غروب شمس يوم الخميس، «اتَّكَأَ وَالِاثْنَا عَشَرَ رَسُولاً مَعَهُ».

كان المنزل عبارة عن غرفٍ مرتبةٍ حول صالة مربعة فسيحة غير مسقوفة تدعى الوسط[١]، تمدُّ الغرف بالنور والهواء، وفي وسط الصالة بئر مسوّر بالحجارة، ومزين بأحواض الورد. أمّا في صدر الصالة فكان باب الدخول الذي يشرف على دهليز –دار خارجية– قد غاب عنه البواب لسريّة الأمر.

حول الصالة المربعة الشكل كان رواق مسقوف بالستائر، فيه يجتمع الضيوف لكنّه اليوم خالٍ. أمّا على أسطح الغرف فقد بُنيت حجرات برزت فوق الطريق، لها كوى

---

[١] – لوقا ٥: ١٩.

معظمها يُفتح إلى الدار، وبعضها يُشرف على الطريق. كما انه قد بنيت عليّة خاصة للضيوف فوق السطح في وسطه، فيها موقد للتدفئة، قد وُضع قرب النافذة للاستغناء عن المدخنة، صعدَ إليها المعلّم مع تلاميذه بسلّم منفصل من خارج البيت.

تجول المعلّم قليلاً على السطح المحاط بسياج، ومنه نظر إلى المدينة فبدا له دار قيافا شمالاً، وبعده قصر هيرودس، أما غرباً فبدا له سور المدينة الشاهق. هز رأسه ثمّ دخل إلى العليّة، التي لها كوى تُشرف على الطريق.

كانت جدران العليّة مزينة بخشب الأرز، وعليها بعض الجلود، فهنا جلد أسد، وهناك جلد دب، وعلى جدار آخر سيفان دمشقيان قد لمعَ نصليهما. وفي هذه العليّة وُجدتْ غيمة سوداء قبيحة، غير مرئية، جاءت دون إذن، لتنجز عملاً قد أنبأ به الرب منذ البدء[1].

ما أن جلس المعلّم في صدر العليّة في المكان المعد له بعد أن خلع نعليه، حتّى هبطت الغيمة السوداء على تلاميذه، فسارع يُوحَنَّا وجلس عن يمينه. وإذ انشغل بُطْرُس مع أَنْدَرَاوُس بإشعال بعض القناديل قبل مجيء الغروب، سارع الإِسْخَرْيُوطِيُّ هو الآخر فحجز لنفسه مكاناً عن يسار المعلّم، فثارت حفيظة الآخرين عندما انتبهوا ليُوحَنَّا والإِسْخَرْيُوطِيُّ، وسارعوا هم أيضاً وتدافعوا كالأطفال ليحجزوا لأنفسهم مكاناً قرب المعلّم. وإذ أراد بُطْرُس وأَنْدَرَاوُس أن يأخذا لنفسيهما مكاناً، أصابهما الإحباط، فيمين المعلّم ويساره، بل كل الأماكن القريبة منه قد حُجزت. نظرَ بُطْرُس إلى أَنْدَرَاوُس، وقال له: لم يتبق لنا مكانٌ قريبٌ من المعلّم. أجابه أَنْدَرَاوُس: هذا ليس عدلاً. وبوجه يملأه الغضب التفت بُطْرُس إلى يُوحَنَّا وكأني به يقول: ما توقعته يا يُوحَنَّا قد حدث. كلُّ هذا كان يجري أمام عيني المعلّم الحزين، فأضافوا بكبريائهم حزناً لحزنهِ. أمّا هو فأشفقَ عليهم.

---

[1] – عندما سقطَ أبوانا آدم وحواء في خطية العصيان، قال الرب للحيّة (الشيطان): «أَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَاسَكِ وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ».

كان يسوع «عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ». وأنّ تلاميذه سيتركونه ويصيرون وحيدين منهارين بدونه. وإن خاصّته الَّذِينَ أحبّهم سيعاملونه بالجحود والقسوة. وإن الكلاب ستحيطُ به، وجماعة من الأشرار ستكتنفه. وأنه سيشرب كأس الدينونة كأشرّ المجرمين. لذلك بدا مُثقلَ القلب حزيناً والصّمت يلفُّ محياه. وإذ استذكر في لحظاتٍ شريط حياته، وإنه الخروف الحقيقيُّ الغائب عن المائدة، وصوت الآب القائل له: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ بِكَ سُرِرْتُ»، أشرقت عيناه وتبدلت أساريره.

كان الصمت يخيم على الجلوس بانتظار ما سيقوله المعلّم. وبينما كل واحد ينظر إلى المعلّم الذي أحنى رأسه إلى أسفل، وبدا كأنه يستجمع قواه ليقول شيئاً ما. فجأة، رفع رأسه ونظر إليهم واحداً واحداً، ثم قال لهم بحزنٍ وكأني به يودّع تلاميذه، أو يضع اللمسة الأخيرة على رحلته معهم: «شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هَذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ». أصابهم الإرباك وتساءلوا عن الأمر، ثم قال فِيلُبُّس بصوت أسيف: أليس بعد الفصح عيد وفرح، فلماذا يكلمنا عن الألم.

كانوا مُتضجّرين من طول صمته وغير فاهمين لغة حزنه، فلم يرقّوا له، أو يرثوا لمصابه. وبينما يملأه شعور غامر بالتواضع ونكران الذات، انشغلوا عنه تحت تأثير الغيمة السوداء بأمور أخرى، وامتلأت عيونهم بالحسد والمنازعات. ثُمّ عَلت أصواتهم وارتفعت أياديهم كأنهم في سوق للنخاسة.

قال بُطْرُسُ، ليَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ: أنت تجلس مكاني. فأجابه: أنا أمين الصندوق والأقرب للمعلّم. فصرخ بُطْرُسُ في وجهه: لستَ الأقرب، بل الأقرب من قال له المعلّم، طوبى لك يا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا. ومثله قال يَعْقُوبُ بْنُ حَلْفَى، لسِمْعَانُ الْقَانَوِيُّ: أنت تجلس مكاني. أنا أفضل منك كيف تجلس مكاني، فأتاه الجواب: دعك من هذا الكلام، واترك الحكم للرب. ومثلهم قال يَهُوذَا بْنَ يَعْقُوب لمَتَّى الْعَشَّار: أنا الأهم، فأتاه الجواب: كفاك ادعاءً، المكان لي. ومثله فعل بقية التلاميذ. وهكذا

تكلّم الجميع محتجين بأن كل واحد فيهم أفضل من الآخر، وله الحق بأن يجلس عن يمين أو يسار المعلّم، أو في أسوأ تقدير قريباً منه. «وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ أَيْضاً مُشَاجَرَةٌ مَنْ مِنْهُمْ يُظَنُّ أَنَّهُ يَكُونُ أَكْبَرَ».

كان الفصحُ بالنسبة لليهود أكلَةَ التحرير، وطعامَ الفكاكِ من العبودية. والَّذِينَ أكلوه كانوا مباعين عبيداً تحت السُخرة. أمّا التلاميذ فلم يذكروا ذلك، لأن لعبة الكراسي، والجلوس عن اليمين واليسار أنساهم الأمر. وأنساهم مُعلماً سَيُسْفَكُ دمهُ بدلَ خروفِ فصحٍ، لتحريرهم من عبودية الخطية والموت.

في ملكوتٍ ظنّوه قريباً، تشاجروا على الرتب السامية، وبصوت مسموع بدا كل واحد يفاضل بينه وبين إخوته مدّعياً انه الأجدر. وبين الجميع كان يَهُوذَا الأكثر حماساً وضجيجاً، مما زاد في ألم المعلّم ألماً.

شيئا فشيئاً بدأت تعلو الأصوات تحت ضغط الغيمة السوداء، ومعها ارتفعت الأيادي، وبدأ البعض يستخدم القوة ليأخذ مكاناً أقرب للمعلّم، وبتصرفهم هذا لم يحترموا المعلّم ولم يبالوا بحزنه.

قال الإِسْخَرْيُوطِيُّ لبُطْرُس: ينبغي أن تغسل أقدامنا، فمن هو الأفضل منك لهذه المهمة. فرد عليه أَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ: كفاك ثرثرة أيها البخيل، يا صاحب الصندوق، هيا ضع صندوقك جانباً وابدأ بغسل أقدامنا. أو استأجر لنا عبداً يغسل أقدامنا.

وبينما الجمع جلوسٌ يضجون وقف المعلّم، فعمّ الصمت المكان. وانتظر التلاميذ قوله فيمن هو أكبر ليجلس عن يمينه أو يساره، ومن هو أصغر ليغسل الأرجل. لكنّ المعلّم مضى إلى المِغْسَل.

وإذ ظنّ التلاميذ أن المعلّم سيدعو احدهم إلى المِغْسَل، احتدت كبرياؤهم وعادوا للمشاجرة معيّرين بعضهم البعض بالقول: لك المِغْسَل، ومن له المِغْسَل «يَكُونُ آخِرَ الْكُلِّ وَخَادِماً لِلْكُلِّ».

كان المعلّم يدرك أن اعترافهم بالتلمذة له لا يجعلهم تلاميذ، وإن درس التواضع الأخير الصعب، قد حان وقته، وبينما هو ينهض متوجهاً إلى المِغْسَل قال لهم: افهموا هذا، إنَّ «رُؤَسَاءَ الأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ وَالْعُظَمَاءَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ».. «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَيْسَ هَكَذَا».. «الْكَبِيرُ فِيكُمْ لِيَكُنْ كَالأَصْغَرِ وَالْمُتَقَدِّمُ كَالْخَادِمِ».

وبينما التلاميذ يرقبون المعلّم الذي تغمره مشاعر الارتياح تجاه الآب. والذي يَعلم في أعماقه أنه من عند الله خرج، وإلى الله يمضي، وإن الآب قد دَفع كل شيء إلى يديه. إذ به وهو يقوم عن العشاء، يخلع منطقته –حزامه– الموضوعة على خصره، ثمّ ثوبه الخارجي المطرّز المفتوح من الأمام، المصنوع من الصوف الأبيض، مع ما تحته، الجبّة، وهي ثوب يمتد من العنق إلى الركبتين أو اكثر قليلاً، ولها فتحة للرأس في وسطها، وهي بلا أكمام. ليبقى عليه القميص الداخلي فقط، «وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا» آخذا صورة عبدٍ. «ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِراً بِهَا».. لأنه «كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى».

أصابهم الإرباك، وغشت الحيرة وجوههم. يا للغرابة. يا للعار. انه يغسل أقدامهم القذرة. بل أين الغرابة في أن يصبّ ماءً في مغسلٍ ليغسل أقدامهم، ذاك الذي سيسكب دمه على الصليب بعد قليل ليغسل دنس خطاياهم.

الذي تنحني له السماء، «وَمُلُوكُ الأَرْضِ وَالْعُظَمَاءُ وَالأَغْنِيَاءُ وَالأُمَرَاءُ وَالأَقْوِيَاءُ وَكُلُّ عَبْدٍ وَكُلُّ حُرٍّ».. الذي «الْبَحْرُ رَآهُ فَهَرَبَ. الأُرْدُنُّ رَجَعَ إِلَى خَلْفٍ. الْجِبَالُ قَفَزَتْ مِثْلَ الْكِبَاشِ وَالآكَامُ مِثْلَ حُمْلاَنِ الْغَنَمِ» من هيبته. ها هو ينحني كالعبدِ غاسلاً أقدام تلاميذه من وسخ السيرة والمسيرة.

«اِبْهَتِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ مِنْ هَذَا وَاقْشَعِرِّي وَتَحَيَّرِي جِدّاً»، و«أَيَّتُهَا الأَرْضُ تَزَلْزَلِي مِنْ قُدَّامِ الرَّبِّ مِنْ قُدَّامِ إِلَهِ يَعْقُوبَ».

لو غَسل المعلّم عيونهم لَحُسِب هذا مِنّة مِنهُ وتكرّماً. ولو غسل أياديهم لَحُسِب هذا منتهى التواضع. أمّا وقد غَسل أرجلهم القذرة، فإن الملائكة وحدهم قد يستطيعون حساب هذا.

بغباء قلّ نظيره، لم يفهموا الدّرس، فزادوا المعلّم ألماً. وعِوضَ سحب أقدامهم تباروا في وضعها أمامه ليغسلها. وإذ ابتدأ المعلّم من الإِسْخَرْيُوطِيُّ ظنّوا انه الأعظم فيهم، فتضايقوا. أمّا هو، فانفرط قلبه في داخله. يا لكبريائهم التي لا تُكسر. لقد ابتلعتهم الغيمة السوداء.

عندما اقترب المعلّم من الإِسْخَرْيُوطِيُّ، رآه كالحصى بين الجواهر. وإذ امتدت يده لغسل قدميه تلاقت العيون، ليقرأ الإِسْخَرْيُوطِيُّ في عيني المعلّم ما جعل قلبه يختلج بين أضلاعه. فتحركت شفتاه لتعلن خطيته، لكن صوتاً من الغيمة رنَّ في داخله، قائلاً له: مَلكُ إسرائيل لا يَغسلُ الأقدام القذرة. هذا ثمنه ثلاثين من الفضة. وجلوسك عن يساره بلا منفعة. قد خَدعكم جميعاً، فليكن الموت نصيبه. فتُقفَلَ لسانه ليحتفظ بمؤامرته.

كان في سلطان المعلّم أن يجعله يابسًا كشجرة التين. وأن يُبكمه كما أبكم الريح والبحر. لكنّه لم يُرد أن يردّه قهرًا بل اختيارًا، فغسلَ بالمحبة قدميه.

كانت هذه فرصة ثانية ليَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ ليراجع حساباته، فها هو المعلّم يعرف القصة، ويلمّح إليه دون أن يحرجه، لكن الإِسْخَرْيُوطِيُّ بحماقةٍ اعتاد إضاعة الفرص.

وإذ وصل الدّور لسِمْعَان بُطْرُس قال بتصنّعٍ: «يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلَيَّ»، «كَلاَّ يَا رَبُّ»، هذا ليس عملك، لا يليق، وعلى الجمْعِ أن يفهم هذا. أجابه «الْمُصَوِّرُ قُلُوبَهُمْ جَمِيعاً الْمُنْتَبِهُ إِلَى كُلِّ أَعْمَالِهِمْ»، «لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ».

ولأنّ «قبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ وَقبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ»، أجاب سِمْعَان بُطْرُس: «لَنْ تغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَداً، أَجَابَهُ يَسُوعُ: إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ. قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: يَا سَيِّدُ لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً يَدَيَّ وَرَأْسِي»، إنّي أفضل الجميع.

نظر المعلّم إلى بُطْرُس المغرور وقال له: «الَّذِي قَدِ اغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ. لأَنَّهُ عَرَفَ مُسَلِّمَهُ، لِذَلِكَ قَالَ: «لَسْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ».

يا للتلاميذ الَّذِينَ أحزنوا قلب المعلّم. واحد متكبّر، والثاني سارق، والبقية حسد وخصام.

أنهى المعلّم عمله كالعبد غاسلاً قذارة الأقدام. ثمّ ارتدى ثيابه، وكالمعلّم اتكأ بينهم قائلاً: «أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟». أجاب نثنَائِيل: كلا يا معلّم، تصرفك أدهشنا.

بعد لحظة صمت قال لهم: «أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّداً وَحَسَناً تَقُولُونَ لأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. ١٤فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ ١٥لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً». قال مَتّي: يا معلّم، إن كان ما عملته معنا مثالاً، فأنت لا تريدنا أن نغسل أقدام بعضنا، بل أن نخدم بعضنا البعض.

هزّ المعلّم راسه علامة الموافقة وتابع حديثه: «١٦اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ. ١٧إِنْ عَلِمْتُمْ هَذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ». وإذ صمتَ المعلّم شعر التلاميذ بالخجل من تصرفهم هذا. أمّا هو فإذ أراد أن يمنح فرصة جديدة للإِسْخَرْيُوطِيّ قال: كل ما هو مكتوب لا بد أن يتم. يقول الكتاب، «اَلَّذِي يَأْكُلُ مَعِي الْخُبْزَ رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ». ثمّ صمتَ مرة أخرى

ونظر إلى الإِسْخَرْيُوطِيّ وقال: «١٨لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ. أَنَا أَعْلَمُ الَّذِينَ اخْتَرْتُهُمْ». ثم نظر إلى تلاميذه وتابع: «١٩أَقُولُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ».

كانت كلماته كالصاعقة، فارتجف الإِسْخَرْيُوطِيُّ من جديد، وبدأ التوتر يسيطر عليه، وتساءل في قلبه: هل حقاً يعلم المعلّم بما فعلتُ؟ هل يقدّم لي فرصة للتراجع والانسحاب. نظر إلى المعلّم بتوتر دون أن ينظر المعلّم إليه، وإذ بصوت من الغيمة في أعماقه يقول له: إنها مصادفة. فاطمأنَّ قلبه، وتابع عدم مبالاته.

أما المعلّم الذي اتَّكَأَ والإِثْنَا عَشَرَ رَسُولاً مَعَهُ، قال لهم: «شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هَذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ ١٦لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ آكُلُ مِنْهُ بَعْدُ حَتَّى يُكْمَلَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ. ١٧ثُمَّ تنَاوَلَ كَأْساً وَشَكَرَ وَقَالَ: خُذُوا هَذِهِ وَاقْتَسِمُوهَا بَيْنَكُمْ ١٨لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ حَتَّى يَأْتِيَ مَلَكُوتُ اللهِ».

وفي اضطرابه، سارع الإِسْخَرْيُوطِيُّ، فمد يده ليكون أول الشاربين، ظاناً انه بتصرفه هذا يبعد عنه أيّة شُبْهة. لكن المعلّم الذي لا يُشمخ عليه، من فرط محبته له، قَبِلَ أن يأخذ الكأس من يده كأول الشاربين، ليرده عن خيانته، لكن يبدو أن الحب لا ينفع من ملأ الشيطان قلبه.

كان غروب الشمس بديعاً تلك الليلة، كما الليلة التي سبقت، وبحسب التقويم العبري صار اليومُ جمعةً.

الفصل السّادس
وَاحِداً مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي

الجمعة، ١٤ نيسان العبراني

رائحة الخيانة قد زكمت الأنوف. أمّا رائحة الدّم فلم تكن قد فاحت بعد، لكنّ الذئاب تحسست سيلانها، واستعدت لها بعواء قل نظيره في عتمة الليل وسكونه.

كان الجو بارداً، والليل في مَطلعهِ. أمّا عيون الذئاب الجائعة في تلك الليلة، فكانت كالقناديل المتوهجة، تبحث عن حظائرٍ أُغلقت بإحكامٍ على حملانٍ قد أُعدّت للذبح.

في ذلك اليوم، يوم الجمعة، كانت الغيمة السوداء القبيحة ترّف على مجلس السنهدريم الذي مازال منعقداً في دار قيَافَا. وفي تلك الليلة كان قيَافَا يُكثر الوقوف والجلوس، مضّطربا على غير المعتاد، «كَأَسَدٍ فِي عِرِّيسِهِ (مخبئه). يَكْمُنُ لِيَخْطُفَ الْمِسْكِينَ». والَّذِينَ معه اضطربوا «لأَنَّهُمْ لاَ يَنَامُونَ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا سُوءاً وَيُنْزَعُ نَوْمُهُمْ إِنْ لَمْ يُسْقِطُوا أَحَداً». أمّا حَنَّان الذي «مَثَلُهُ مَثَلُ الأَسَدِ الْقَرِمِ (المتلهّف) إِلَى الافْتِرَاسِ وَكَالشِّبْلِ الْكَامِنِ فِي عِرِّيسِهِ» فقال: ما بال الباب لا يُقرع، أين هو الإِسْخَرْيُوطِيُّ. وإذ انطفأ السراج فجأة اشتدت العتمة فلم يبصر واحدهم الآخر. فصرخ قيَافَا لحَنَّان: «عَلِّمْنَا مَا تَقُولُ لَهُ. إِنَّنَا لاَ نُحْسِنُ الْكَلاَمَ بِسَبَبِ الظُّلْمَةِ».

لا أحد يفهم ما الذي يحدث، لماذا القلق والاضطراب، ما الذي يجعل رئيسي الكهنة يتصببون عرقاً، وكأنهم بانتظار خبر سوء يحدد مصيرهم بل مصير الأمة. لم يرَ أحد تلك الغيمة السوداء التي كانت تسيطر على المكان، وتضبط إيقاع

الأحداث الواحد بعد الآخر، كانت ثقيلة حتى أن البعض ضاق صدره تلك الليلة، وشعر كأن يداً تكتم أنفاسه.

وبالمقابل في تلك العلّية الكبيرة والمفروشة، القريبة من دار قَيَافَا، كانت تلك الغيمة تسبح أيضاً حيث جلسَ المعلّم والَّذِينَ معه، «وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ قَالَ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي». ولمّا قال هذا «اضْطَرَبَ بِالرُّوحِ» على مصير يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ. «فَابْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ وَيَقُولُونَ لَهُ وَاحِداً فَوَاحِداً: هَلْ أَنَا؟ وَآخَرُ: هَلْ أَنَا»، وكانوا «يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ مُحْتَارُونَ فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ».

نسي التلاميذ مشاجرتهم قبل قليل، وتحولوا من فتيان تملأهم القوة، إلى أشباه رجال قد أحناهم الحزن وأضعف نفوسهم. كان تساؤلهم: هل أنا؟ يَخرج بصوت أسيف، وبالكاد يُسمع. ما الذي أصابهم، أين جرأتهم في سؤال المعلّم، كل هذا اختفى. كان منظرهم وهم ينظرون إلى أقدام بعضهم البعض، الأقدام التي غسلها المعلّم قبل قليل، واللقمة في يدهم مثيراً للشفقة، ومدعاة للتساؤل. هل هؤلاء سيغيرون العالم؟ أمّا الجواب فكان عند تلك الغيمة السوداء التي حضرت لتغربل التلاميذ، وترسم بقية القصة في هذا اليوم، يوم الجمعة.

يا له من مشهد، أن يضّطرب القابض على زمام كلّ الأمور. هو لم يضطرب قلقاً لأنّ ساعته قد جاءت، لكنّه اضطرب على مصير من أحبّه وغسّل قدميه. كان عزيزاً على قلبه أن واحداً ممن أحبهم يجازيه هكذا. عوض حلاوة الحب، علقم العداوة.

يا للرجل اللئيم هذا، يَهُوذَا اسمه والحماقة عنده. يتصنّع الحزن ويقول للمعلّم: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا رَبُّ». فيضيّع فرصة التوبة، في زمنٍ يتآكل سريعاً.

توقف الجميع عن الأكل، وغصّ باللُّقْمَة بعضٌ منهم. انشغلت أفكارهم وارتابوا، بل احتاروا فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ. وطال الصمت قبل أن يقطعه بُطْرُسُ، الذي أومأ

إلى يُوحَنَّا «أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ. فَاتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدُ مَنْ هُوَ»؟ أجاب المعلّم: «هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ».

ابتسم الإِسْخَرْيُوطِيّ من دون الجميع قائلاً في «نَفْسِهِ: لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيّاً لَعَلِمَ». والكلام بعد في قلبه، سَمع المعلّم يقول: «إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْراً لِذَلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ».

كعصفورٍ واجفٍ في قبضة صقرٍ، اصفّر وجه يَهُوذَا. ارتعشت يداه واضطربت شفتاه، وادرك في أعماقه أن المعلّم لا يمازحه. أيهرب من الويل، أم يهرب إلى الويل. القصة مقضيّة فماذا يفعل. تصبب منه العرق، وارتفعت حرارته في ذاك المساء البارد. أمّا فمه فأصابه الجفاف. وفي لحظة ذهول مدّ يده إلى الصَّحْفَةِ وقال: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا سَيِّدِي». فغمسَ المعلّم اللُّقْمَة بالمرق وأعطاه، ثمّ قال أسيفاً: «أَنْتَ قُلْتَ». وإذ رُفع عنهُ الغطاء، ملأت تلك الغيمة السوداء قلبه الذي سبق وأن دخلته بخجلٍ.

أَخفضَ المعلّم بصره إلى أسفل وهو يتمتم، ومن أعماقه صَعدت الترنيمة بصوت خافت: «اِسْمَعِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ أَمَّا هُمْ فَعَصُوا عَلَيَّ»... «مَنْ مُفَرِّجٌ عَنِّي الْحُزْنَ؟ قَلْبِي فِيَّ سَقِيمٌ».

نظر المعلّم إلى يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ، وناداه بالاسم، يا يَهُوذَا. فأجاب: نعم يا معلّم. فقال له كمن ينهي أعماله، أو يضع الختم في ذيل الورقة: «مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ». وسُمعت الطلبة القديمة[1] في أذني المعلّم: «إِنْ كُنْتَ تُخْرِجُنَا فَأْذَنْ لَنَا....فَقَالَ لَهُمُ: امْضُوا».

---

[1] – هذا ما قالته الشَّيَاطِين للمعلّم عندما أمرها بالخروج من مجنوني كُورَةِ الْجِرْجَسِيِّين (متى٨: ٢٨–٣٣).

وبينما عيون التلاميذ تستذنب سارق الصندوق دَاخَلَهُمْ فِكْرٌ، فلم يَعلم أحد من الَّذِينَ على الطعام لماذا قال له ذلك، وتحت التشويش من تلك الغيمة السوداء القبيحة «ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ: اشْتَرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْعِيدِ أَوْ أَنْ يُعْطِيَ شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ». أمّا يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ «لَمَّا أَخَذَ اللُّقْمَةَ خَرَجَ لِلْوَقْتِ. وَكَانَ لَيْلاً».

وإذ أدرك يَهُوذَا أن المعلّم يعرف ما لا يعرفه التلاميذ، لملَمَ أذيال خيبته قبل أن يَعرف التلاميذ ما يعرفه المعلّم، فلبس حذاءه على عَجلٍ، وبينما يهم في الخروج ناداه سِمْعَان الَّذي يُدْعَى الْغَيُور: مهلاً يا يَهُوذَا، فقد ارتديت حذائي. فزاد ارتباكه، ولم يعرف بماذا يجيب. وما أن لبس حذاءه حتى «خَرَجَ لِلْوَقْتِ. وَكَانَ لَيْلاً». لم يمسكه الوقت المتأخر عن فعله المشين. وإذ ترك النور، غشته تلك الغيمة السوداء وابتلعته. فمضى إلى دار قيَافَا ليكمل اتفاقاً قبض ثمنه ثلاثين من الفضة، محتواه القبض على البار. أمّا المعلّم صاحب السلطان، فختَمَ بالموافقة محضر الصّليب، وأذن للمأساة أن تبدأ.

لمَّا خرجَ الإسخريوطي وقد ابتلعته الظلّمة بالتمام، كرر المعلّم قوله لتلاميذه: «إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْراً لِذَلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ!». وابتدأ يكلّمهم عن حتميّة موته الذي تقرر منذ الأزل، قراراً لا رجعة فيه، مؤكداً لهم إن هذا القرار لا يمنع المسؤولية عن الخائن الذي كان بإمكانه أن ينسحب من مؤامرته هذه، ليأخذ مكانه شخصٌ آخر. وكان يقصد، يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ، أمّا هم فلم يفهموا الآن شيئاً، إذ كانت عيونهم قد أُغلقت بسبب تلك الغيمة السوداء.

صمتَ المعلّم قليلاً، ثمّ نهض متوجهاً نحو الكوّة، وهناك تنفس بعمقٍ، ثمّ مدّ بصره نحو السماء فأبصر القمر بدراً، وإذ علم أنه في هذا اليوم يُذبح خروف الفصح لنجاة الأمة، تزاحمت الأفكار في رأسه، فما جاء لأجله قد أوشك أن ينهيه.

التفت إلى تلاميذه، ثم اقترب منهم ثانية، وقد غمره شعور كبير بالمحبة تجاههم، فخاطبهم بالقول: «يَا أَوْلاَدِي أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ»، ثم سَتَطْلُبُونَنِي، ولكن ما سبق أن قلته لليهود أقوله لكم الآن، حيث أنا ذاهب لا تقدرون أنتم أن تجيئوا. «٣٤وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً. كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ بَعْضاً. ٣٥بِهَذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تلاَمِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضاً لِبَعْضٍ». ثمّ جلس في مكانه بين تلاميذه. وإذ نظر إلى بُطْرُس أدرك الخطر الكبير الذي كان يحيق به، فالغيمة السوداء شرهة جداً، ولن تكتفي بابتلاع ابن الهلاك. وها هي في طلبها للمزيد قد توجهت نحو بُطْرُس واستقرت فوق رأسه طالبة رجلاً ثانياً.

الفصل السّابع
كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ

الجمعة، ١٤ نيسان العبراني

كان الحزن يغطي وجه المعلّم، فهو يدرك في أعماقه إن المسؤولية التي وضعها على عاتق تلاميذه كبيرة جداً، وإنهم في ذاتهم بلا قوة. ورغم الدروس الكثيرة التي تعلموها منه مازالوا أطفالا مضطربين، تتلاعب فيهم عواطفهم، أمّا كبرياؤهم فتعصف بهم نحو الأسفل. يا لهم من مساكين.

سيبحثون عنه ولن يجدوه، إذ سيغيّبه الموت لثلاثة أيام، أما هم فتَحتَ تأثير تلك الغيمة، سيفرقهم الخوف ويبعثرهم. لذلك أوصاهم أن تملك المحبة على قلوبهم، وأن يكون مستواها بمستوى المحبة الموجودة في قلبه من نحوهم. أراد للعالم أجمع أن يُعرف تلاميذه من المحبة، فلتكن هي رايتهم. وبينما المعلّم يسرد خواطره الواحدة تلو الأخرى، قاطعه بُطْرُس بالسؤال: «يَا سَيِّدُ، إِلَى أَيْنَ تَذْهَب؟». أَجَابَهُ المعلّم: «حَيْثُ أَذْهَبُ لاَ تَقْدِرُ الآنَ أَنْ تتْبَعَنِي وَلَكِنَّكَ سَتَتْبَعُنِي أَخِيراً».

من جديد، وتحت تأثير تلك الغيمة، عادت الكبرياء لبُطْرُس، واحتدت روحه في داخله، كيف يقول له المعلّم، لا تقدر. وفي قلبه كان من يهمس قائلاً: هذه إهانة، ما يقدر عليه المعلّم تقدر أنت عليه. فعلى صوته، واشتدت نبرة التحدّي عنده، فقال: «يَا سَيِّدُ، لِمَاذَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَتْبَعَكَ الآنَ؟ إِنِّي أَضَعُ نَفْسِي عَنْكَ». ثمّ أكّدَ بحزمٍ، إني مستعد للموت في سبيلك.

نظر إليه المعلّم بحزنٍ، وتطلّع في عينيه كمن يسبر أعماقه. يا للكبرياء التي عششت في داخلك يا بُطْرُس. ثم قال له بتساؤل: «أَتَضَعُ نَفْسَكَ عَنِّي؟».. ودون أن ينتظر رداً منه، تابع بأسفٍ: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لاَ يَصِيحُ الدِّيكُ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثلاَثَ مَرَّاتٍ».

مرت بضع لحظات كأنها دهر على بُطْرُس والتلاميذ الواجفين، ليتابع بعدها المعلّم كلامه وهو ينظر إلى عيني بُطْرُس مشفقا عليه من الغيمة السوداء التي استقرت فوق رأسه، فقال أسيفاً: «سِمْعَانُ، سِمْعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَالْحِنْطَةِ! ٣٢وَلَكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ».

تراجع بُطْرُس قليلاً إلى الخلف، واستقام ظهره الذي كان منحنياً، ومن أعماقه سَمع صوتاً مرتفعاً: إنه يتحداك! وإذ اعتبر كلام المعلّم إهانة لشخصه، قالَ بنبرة تحدٍ وقد أغلق قبضة يده ووضعها أمام عينيه: «يَا رَبُّ إِنِّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَمْضِيَ مَعَكَ حَتَّى إِلَى السِّجْنِ وَإِلَى الْمَوْتِ».

يا لبُطْرُس المسكين، قد غشيت الظلمة عينيه، واستسلم لكبريائه دون أن يدري. ولأنه لا فائدة تُرجى من تكرار الإنذار، أراد المعلّم أن يخفف من هيجان بُطْرُس، ويُفهمه أنه ليس أسوأ الجميع، وأنهم ليسوا بأفضل حال منه. فالتفت إلى بقية التلاميذ وقال لهم: «كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ الْخِرَافُ. ٢٨وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ».

استثقل بُطْرُس الكلام معتبراً نفسه مقدام النّاصريين، وفوق خيانة الصّغار، إذ سمع في داخله صوتاً من تلك الغيمة: لا تتراجع، أنت أفضل من الجميع. فعلى صوته ثانية بروح التحدي، وراجع المعلّم في صميم اختصاصه مُصحّحاً له وقائلاً: «وَإِنْ شَكَّ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ!».

اقترب أَنْدَرَاوُس من أخيه بُطْرُس وهمس في أذنه قائلاً: اهدأ يا أخي، وكفاك انفعالاً، أنت تغالط المعلّم، وتترفع على إخوتك. ألم تسمع المعلّم وهو يطالبك بان

تحب إخوتك، ألم ترَ المعلّم يغسل قدميك القذرتين ليعلّمك التواضع. اهدأ، ماذا أصابك. إنك تجرح إخوتك، وتحرجهم أمام المعلّم إذ تظهرهم ضعافاً لتبدو أنت القوي الوحيد.

امتعض الجميع من بُطْرُس، وتململ كل واحد في مكانه. البعض دَفع الصحفة من أمامه، والبعض تراجع للخلف كأنه يستعد للوقوف. كانت الغيمة السوداء تضغط عليهم ليكرروا مشاجرتهم من جديد. وإذ ضغطت الغيمة أكثر على بُطْرُس، نظر بعينين تبرقان، إلى السيفين الدمشقيين المعلّقين على الجدار، فتناسى كلام أخيه أَنْدَرَاوُس، وتابع قوله للمعلّم بأَكْثَرِ تَشْدِيداً: «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ».

يا للغيمة السوداء، قد ملأت قلب بُطْرُس بالغرور، حتى ظنّ إن المعلّم لا يعرف قدراته. مسكين بُطْرُس هذا، هو شجاع في البحر، وفي البحر كاد أن يغرق لولا استجابة المعلّم لندائه. والآن يقول، أنا أضع نفسي عنك، فيهذي بكلام لا يعرف أبعاده.

وبينما كانت الغيمة تحلّق على رؤوس التلاميذ. فجأة وبدون سابق إنذارٍ، انتقلت روح التحدّي والكبرياء إليهم، فبدل أن يعاتبوا بُطْرُس، عاتبوا المعلّم، وأكدوا جميعاً أنهم مستعدون للموت من أجله، ولا مبرر لكل كلامه عن الشك والخيانة. فطعنوا المعلّم في قلبه قبل أن تطعنه الحربة على الصليب. وأهانوا التلمذة وتعليم المعلِّم.

يا لهم من تلاميذ بطيئين في الإيمان، في المحبة، في التواضع، كلامهم غير موزون بميزان اللياقة. بينما معلّمهم ذاهب للصليب، يتشاجرون على المراكز الأولى، ويغالطونه في كلامه.

ويا للمعلّم الذي في محنته يَحملُ تلاميذاً صاروا حِملاً لا يُحتمَل، ولو لم يرعاهم بنعمته لكانوا بسبب الغيمة السوداء، مع الخائن يهوذا، اثني عشر خائناً.

كان هياج التلاميذ واعتراضهم غريباً، وكأنه قد دَاخَلَهُمْ فِكْرٌ. وإذ رأوا المعلّم يراقبهم بصمتٍ، صمتوا. عندها قال لهم المعلّم متجاهلاً كبرياءهم إذ لا منفعة بعد درس التواضع من درس آخر: «إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ فِيَّ أَيْضاً هَذَا الْمَكْتُوبُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ. لأَنَّ مَا هُوَ مِنْ جِهَتِي (ما جاء عني في النبوات) لَهُ انْقِضَاءٌ (إتمام)». فظنوا أنه من الآن فصاعداً سيحارب المجرمين، عندها تغيرت ملامحهم، وبدا الجنون على هيئتهم، فَقَالُوا له بحماس كلٌّ بطريقته الخاصة، وكأنهم جنود مدربين على القتال، ويجيدون حمل السيوف في الوغى: إننا جاهزون للقتال. حتى أن سِمْعَانَ الَّذِي يُدْعَى الْغَيُور نظرَ إلى السَيفينِ المعلّقينِ على الجدار، وقال للمعلّم: «يَا رَبُّ هُوَذَا هُنَا سَيْفَانِ». فقالَ لهُمْ المعلّم بضيق وقد أزعجه غباءهم: «يَكْفِي». مُسكِتاً جهالتهم. إذ لم يفهموا بعد أن الْبَارّ سيُرفع على الصليب، ويُحصى بين حَمَلةِ السيوف كأحد المجرمين.

كان التلاميذ في حالٍ من الوجوم. تارة ينظرون إلى المعلّم وتارة إلى بعضهم بعضاً. ظنّوا أنها مائدة فرحٍ، لكنّ المعلّم تكلّم كثيرا عن آلامه. ظنّوا الملكوت قريب والتّاج سيُستعلن، لكنّ المعلّم ظهر بينهم كالعبد المتألم. وإذ تكلموا عن السيوف، كلّمهم عن أثمة سيحصى بينهم. أمّا رفيقهم الإِسْخَرْيُوطِيُّ فلم يفهموا بعد لماذا غادرهم؟ كما لم يفهموا بعد، لماذا يُصنع الفصح قبل الأوان، وأين الخروف على المائدة؟

في تلك الليلة الباردة، «وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا هَذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِي»، «فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ تلاَمِيذِهِ إِذْ سَمِعُوا: إِنَّ هَذَا الْكلاَمَ صَعْبٌ! مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ».

وبعد العشاء أخذ المعلّم الكأس[1] وشكَرَ وأعطَاهُمْ قائلاً: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ ٢٨لأَنَّ هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا».. «اصْنَعُوا هَذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِذِكْرِي».. «فشَرِبوا مِنها كُلُّهُمْ». فزاد

[1] – جرت العادة عند اليهود أن يتناولوا أربعة أكواب مختلفة من نتاج الكرمة أثناء وليمة الفصح.

ارتباكهم. وإذ نظروا سحابة الحزن على وجه المعلّم سقطوا في يأسهم. وصارت نفسهم كالأعشاب المرّة التي ابتُلعت في أحشائهم.

همس تُومَا في أذني نتَنَائِيل: هل فهمت ما قاله المعلّم؟ ما هو هذا العهد الجديد؟ أجاب نتَنَائِيل محتاراً: وكيف لي أن أعرف معنى هذه الكلمات، هل سيلغي المعلّم عهد الناموس الذي جاء به موسى، لست أعلم يا أخي.

قال تُومَا: إن كنت أنت لا تعلم ، فمن يعلم؟

أجاب نتَنَائِيل: هذه ليلة عجيبة مليئة بالألغاز، عهدٌ جديدٌ، ودمُ المعلّم الذي يُسفك لمغفرة الخطايا، كيف سيُسفك دمه، ومن سيقتله، وعن أيّة خطايا يتحدث؟ ثم رفع نتَنَائِيل عينيه إلى السماء قائلاً: أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك في كل الأرض، ساعدنا لنفهم ما يقوله المعلّم.

أمّا المعلّم فلم يلتفت لتساؤلاتهم، فالوقت ضيق ولا مجال للشرح، ناهيك عن حالتهم النفسية السيئة واضطرابهم أمام كل ما يحدث. من أجل هذا لم يكلمهم عن العهد الجديد الأفضل، الذي سيجعل العهد السابق عتيقاً. وإن ما عتق وشاخ، هو في طريقه إلى الزوال! بل تابع كلامه قائلاً: «وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مِنَ الآنَ لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ هَذَا إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ جَدِيداً فِي مَلَكُوتِ أَبِي».

نظرَ التلاميذ بعضهم لبعض، وكلّ واحد يردد في نفسه، لماذا لن يشرب المعلّم من عصير الكرمة ثانية؟ ومتى يأتي ذلك اليوم الذي يقول عنه؟

قال فِيلُبُّس لنتَنَائِيل: قل لي يا أخي، ألم تقل في ذلك اليوم الذي التقاك فيه المعلّم، «يَا مُعَلِّمُ أَنْتَ ابْنُ اللهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!»، فالآن قل لي ما هو ملكوت أبيه؟

هزّ نتَنَائِيل رأسه قائلاً: صدقني لا أعرف شيئاً! لماذا لا تسأل المعلّم مباشرة؟ أجاب فِيلُبُّس: كيف أسأله وهو حزين إلى هذه الدرجة، ومن أين أبدأ أسئلتي يا أخي، دعنا نسمع الآن ما سيقول ربما يشرح لنا بمثل مضمون كلامه.

تأخر الوقت، وصار ضوء القناديل خافتاً، فقام بُطْرُس ليُصلح الفتائل. وإذ عاد اللهب كما كان، ظلّ بُطْرُس واقفاً مكانه، وقد تعلقت عيناه على السيفين الدمشقيين.

بدأ النعاس يسيطر على التلاميذ، وصاروا جميعاً بانتظار أن يصرفهم المعلّم ليأخذوا قسطاً من الراحة. حتى أن بعضهم من شدة التعب أغمض عينيه في قيلولة صغيرة قبل أن يخلد إلى فراشه.

اشتدّت البرودة ليلاً، وكذلك الظلّمة. اختفى البدر خلف بعض الغيوم، وتاهت النجوم في دجى الليل. نامت أُورُشَلِيم وأطفالها يحلمون بأقاصيص العيد. أمّا رجالها ونساؤها فيحلمون بفصح مجيدٍ، وبيوت تخلو من خميرٍ «إِلَى الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ مَسَاءً».

الكلّ نيام. إلاّ بعض حراسٍ، مع ذئابٍ اشتاقت لفصحٍ فيه تَلعق دماء خروف قيل فيه: لم يكن مثله ولن يكون.

في تلك العلّية وُجِد من يفرك يديه ليستدفئ، وآخر يرمي حطباً في الموقد. وإذ ارتفع اللهب وتطاير الشرر، بقيت عروق الجميع باردة بلا دفء يسري فيها. وبينما التلاميذ يتجمهرون حول الموقد، وعيونهم تتحرك كثيرا في مآقيها، كأنها ترقب رعباً قادماً. انفردوا عن المعلّم. كان شيءٌ غريبٌ يحيط بالمكان، لم يفهم أحد طبيعته. إنها الغيمة السوداء.

نظر اليهم المعلّم مدركاً عمق احتياجهم إليه. فقام عن المائدة، ونظر من إحدى الكوى، «وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: أَيُّهَا الآبُ قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً... ٤ أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ.. ٦ «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كلاَمَكَ.. مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ...وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ

وَأَمَّا هَؤُلاَءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ... حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ.... أَمَّا الآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ... لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ...أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ».

يا لها من كلمات خَلَت من هفوات أحبّائه. ومن طلب الغنى والكرامة، والمناصب الرفيعة. كلمات فيها يطلب حفظ المساكين من الشرّ، وانفصالهم عن العالم لتأدية الواجب.

كانت كلماته الوديّة مع الآب السماوي طويلة فيها الكثير من علامات الاستفهام، إذ كيف لصيادي سمك بسطاء أن يفهموا كل ما قاله. حتى تثنَائِيل عَبَرت مسامعه أجزاء كثيرة من كلمات المعلّم دون أن يمسك بها. أمّا أَنْدَرَاوُس فمع نهاية كلام المعلّم بدأ شخيره الخفيف يُزعج تثنَائِيل الجالس بجواره. فأيقظه وقال له: المعلّم أنهى صلاته، لا لا، بل هو حوار وديٌّ مع الله، استيقظ يا أَنْدَرَاوُس لقد فاتك الكثير.

وإذ أنهى المعلّم كلماته، جلس على المائدة، واجتمع حوله تلاميذه كلٌّ في مكانه. فنظر إليهم وقد غلبهم النعاس، ثمّ أمسك بالكأس وقال: «أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ...إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ...لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ...اُذْكُرُوا الْكلاَمَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ...اَلَّذِي يُبْغِضُنِي يُبْغِضُ أَبِي أَيْضاً». وبرنّة لا تخلو من حزن تابع قائلاً: «لَكِنَّ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ...لاَ يَشَاؤُونَ أَنْ يَسْمَعُوا لِي. لأَنَّ كُلَّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ صِلاَبُ الْجِبَاهِ وَقُسَاةُ الْقُلُوبِ».

نهض المعلّم ثانية عن المائدة متجها إلى الطاقة المشبّكة، ووقف يتأمل التلال المجاورة في ضوء أشعة البدر الفِضّيّة التي عادت للظهور. ولدقائق لم يحرّك ساكناً إذ استغرق

في صمتٍ مَهيب. كان الهدوء مغرياً يتيح للأفكار والخواطر أن تطير إلى الأفق البعيد، قارئة أحوال التلاميذ في غيابه العتيد.

وإذ تراءت أمام عينيه أهوال الصليب الوشيكة، تراءت أيضاً مصاعب التلاميذ في وحدتهم. فالتفت إلى خاصته الَّذِينَ أحبهم إلى المنتهى قائلاً: عندي كلام أقوله لكم لئلا يضعف إيمانكم، «٢سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ، بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلَّهِ. ٣وَسَيَفْعَلُونَ هَذَا بِكُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الآبَ وَلاَ عَرَفُونِي. ٤لَكِنِّي قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهَذَا حَتَّى إِذَا جَاءَتِ السَّاعَةُ تَذْكُرُونَ أَنِّي أَنَا قُلْتُهُ لَكُمْ».

نظر التلاميذ المتعبون كل واحد للآخر، وكأنهم يتساءلون عما سيحدث لهم، وهل ينبغي حقاً أن يعرّضوا أنفسهم للهلاك. هل ستنتهي رحلتهم بهذه الطريقة المؤسفة، وماذا عن الملكوت؟

التفت المعلّم ثانية إلى الطاقة المشبكة، وثبت عينيه على البدر الذي تحاول أن تحجبه بعض الغيوم الزائرة، وقال بنبرة أسيفة: «وَأَمَّا الآنَ فَأَنَا مَاضٍ إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَسْأَلُنِي: أَيْنَ تَمْضِي؟».

لم يفهم تلاميذه الكلام، ولم يدركوا إن طريقه ضيّق، وانّه من البداية صارحهم لئلا يعثروا. كانت أفكارهم المشوشة تحت تأثير تلك الغيمة السوداء، مشغولة بملكوته، وبالمجد الزمني، وبأنّهم سيملكون معه. فلم يقدروا أن يجمعوا بين المجد العتيد، وآلام الزمان الحاضر.

وإذ انتظر تعليقهم فاجأوه بصمتهم، فبدوا وكأنهم لم يكونوا معنيين كثيرًا بهذا الأمر. أراد أن يكلمهم عن الصليب وعن حربه ضد أجناد الشر الروحية، أراد أن يكلمهم عن معاناته، ويخبرهم عن محبته لهم، محبة تقتضي أن يدفع حياته من أجل نجاتهم. لكن عدم مبالاتهم بما سيحصل له كسر قلبه. بلا شك كان التعب قد سيطر عليهم وكانوا يريدون أن ينهي المعلّم كلامه ليخلدوا للنوم. لكن هذا ليس عذراً لهم.

تساءل البعض في قلبه قائلاً : ألا يمكن للمعلّم أن يؤجل حديثه لصباح اليوم التالي.

أما المعلّم فعاد للجلوس مكانه وتابع حديثه رغم إدراكه أنهم لن يفهموا الآن ما يقول: «٧لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ.»

انتظر منهم أن يسألوه فلم يسألوه، فقال لهم وهو يضع اللمسات الأخيرة على حديثه: «١٢إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لأَقُولَ لَكُمْ، وَلَكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. ١٣وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ١٤ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ.»..» ١٦بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي، لأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الآبِ».

عندها نظر التلاميذ واحدهم للآخر بعيون نصف مغمضة، وقالوا بعضهم لبعض: ما هذا الذي يقوله لنا: بعد قليل لا ترونني، ثم بعد قليل ترونني. وأنا ذاهب إلى الآب؟

فقال متّى: «مَا هُوَ هَذَا الْقَلِيلُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ؟»، بينما قال بعضهم: «لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ!».

«١٩فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَعَنْ هَذَا تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، لأَنِّي قُلْتُ: بَعْدَ قَلِيلٍ لاَ تُبْصِرُونَنِي، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي ٢٠اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ. أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ، وَلَكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ».... «عِنْدَكُمُ الآنَ حُزْنٌ. وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ، وَلاَ يَنْزِعُ أَحَدٌ فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ ٢٣وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لاَ تَسْأَلُونَنِي شَيْئاً».

ثم كلمهم بوضوح شديد ليُدخل الفرح إلى قلوبهم المتعبة قائلاً: «الآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ، لأَنَّكُمْ قَدْ أَحْبَبْتُمُونِي، وَآمَنْتُمْ أَنِّي مِنْ عِنْدِ اللهِ خَرَجْتُ. ٢٨خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الآبِ، وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَيْضاً أَتْرُكُ الْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إِلَى الآبِ».

لم يفهم تلاميذه الكلام، وبدل السؤال: أين تمضي. قالوا بحزن وسذاجة وهم مرتبكون: «اَلآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ. لِهَذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنَ اللهِ خَرَجْتَ». هزّ المعلّم رأسه وأجابَهُمْ باستغراب: «أَلآنَ تُؤْمِنُونَ؟».

ثمّ من جديد قام إلى الطاقة المشبكة ونظر البدر من خلالها، وبثوانٍ استحضر المستقبل القريب أمام عينيه، فبدا المشهد مخزياً، ها هو بُطْرُس عند صياح الديك ينكره، وهاهم في البستان قد تركوه وهربوا. أي إيمان هذا!

التفت إلى التلاميذ مُعقّباً على كلامهم بالقول: «٣٢هُوَذَا تَأْتِي سَاعَةٌ، وَقَدْ أَتَتِ الآنَ، تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِهِ، وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي. وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لأَنَّ الآبَ مَعِي».

مرة جديدة نظر خارج النافذة وهو يضم قبضة يده، فالحرب التي طال انتظارها بين الحيّة ونسل المرأة قد صارت على الأبواب.

أمّا التلاميذ فانطبق القول عليهم «قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّةُ الْحَمَّالِينَ وَالتُّرَابُ كَثِيرٌ». لم يعد فيهم قوة. اضطربوا وانهاروا إذ سمعوا المعلّم يقول: «إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي». ويقول لآخر، «لاَ يَصِيحُ الدِّيكُ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثلاَثَ مَرَّاتٍ». ويقول لهم: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَالْعَالَمُ يَفْرَحُ».. «سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلَّه». «أَنَا مَاضٍ إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي».. «وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضاً».. «هُوَذَا تَأْتِي سَاعَةٌ وَقَدْ أَتَتِ الآنَ تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِهِ وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي». فضاعت المملكة وانهارت الأحلام، وتحَوَّلتِ الحَيَاةُ من نشوة على قِمم الجبال، إلى يأسٍ على طريْقٍ صَحْرَاويٍّ غائصٍ في الكثبان والرمال.

رفع المعلّم يده مبتسماً على غير العادة، فبدا كسنديانة وارفة على أكمةٍ، أو كأسدٍ في عرِيّسه ملكاً. ثم قال يُطمئن الخائفين: «١ لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ

بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. ٢فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً،٣وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَاناً آتِي أَيْضاً وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ، حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً،٤وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ».

قالَ لَهُ تُومَا وهو يتثاءب: «يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ؟». أجابه المعلّم وهو يبتسم: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي». ثم تابع كلامه وهو ينظر في وجوههم كمن يفحص إيمانهم: «لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً. وَمِنَ الآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ».

ارتبك التلاميذ مجدداً، فكيف لهم أن يعرفوا الآب، ألم يقل المعلّم لهم «اَللَّهَ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ»، فكيف لهم أن يعرفوه، وهم لم يروه. وكيف يؤكد المعلّم لهم أنهم رأوه. تشجع فِيلُبُّس واقترب من المعلّم طالباً منه تفسيراً لهذا اللغز، فقال له: «يَا سَيِّدُ، أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا». بعد لحظات صمتٍ نظر المعلّم في عيني تلميذه فِيلُبُّس وقال له: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟ ١٠أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟». وإذ أدرك أنهم لم يصادقوا على كلامه، قال لهم بتواضع قلَّ نظيره: «١١صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ، وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا». فبدا بتنازله هذا «صَدِّقُونِي...وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي» أنه يرجوهم أن يصدقوه. يا لها من رسالة تتفجر في أحشائه ليقبلوا ما هو لسلامهم.

ومرة جديدة يعود للحديث عن ضرورة رحيله إلى أبيه، ويطالبهم بالاستمرار في محبته عن طريق حفظ وصاياه، وانه عندما يكون مع أبيه سيطلب أموراً عجيبة لأجلهم بالقول: «وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، ١٧رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ».

عاد الخوف والهمّ ليسيطرا عليهم، وبدا ارتباكهم من جديد واضحاً، قبل قليل طمأنهم أنه سيعود ليأخذهم إليه وها هو الآن يتكلم عن بديل له، روح الحق، أيّ روح هذا، ولماذا لا يبقى هو معهم. وإذ أدرك المعلّم صعوبة ما يقول، عاد مجدداً لتهدئة مخاوفهم، فقال لهم: «لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ»... «اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي».

توقف المعلّم عن الكلام وهو ينظر في عيونهم، وكأني به يقول لهم، هل فهمتم ما أقول. ومن بين الجميع هزّ يَهُوذَا ليسَ الإِسْخَرْيُوطِيَّ رأسه وقال للمعلّم: «يَا سَيِّدُ، مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ؟».

أجابه المعلّم بعد أن اقترب منه وهو يربت على كتفه: «إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً».. «وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ.٢٧«سلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. ٢٨سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ»... «وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ». وإذ أدرك أنهم غير قادرين على استيعاب كل كلامه، وأن النعاس غلب الجميع، ولا فائدة الآن من إضافة أي عبارة أخرى قال لهم: «لاَ أَتَكَلَّمُ أَيْضاً مَعَكُمْ كَثِيراً».. «قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هَهُنَا».

عندما سمعوا هذه الكلمات انتعشت روحهم قليلاً رغم النعاس الذي سيطر عليهم، وإذ اطمأنوا أنه لن يتركهم يتامى التفوا حوله فرحين، «ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ». وفي خروجهم لم يلحظوا أن أحد السيفان الدمشقيان المعلّقان على الجدار قد صار تحت ثياب بُطْرُس.

كانت أُورُشَلِيم تلك الليلة هادئة ساكنة رغم خيام الحجاج التي نُصبت في أرجائها. وكان الليل مظلماً، والسكون يحيط بالمكان ما خلا أصوات بعض الحشرات الليليّة، وصوت أزيز الباب الخشبي الثقيل الذي أُغلق خلف التلاميذ. وإذ أُغلق الباب خلفهم أُعلنت الحرب على الموت، والَّذِينَ استعدوا مع الإِسْخَرْيُوطِيِّ كشّروا أيضاً عن أنيابهم وشرّعوا نصالهم.

كان النَّاس نيام هذه الليلة، وهم يحلمون بالعيد وبهجته، دون أن يخطر ببالهم أن هناك شيئاً يجري سيغير تاريخ كل الجنس البشري. كان النَّاس يحلمون بخروف الفصح الرمزي، أمّا الخروف الحقيقي فكان تلك الليلة يعاني ويصارع لكي يقدم نفسه كفارة بدل ذاك الخروف الرمزي.

خرجَ المعلّم صامتا حزيناً في مقدمة الموكب، ومرهقاً مع تلاميذه من شدة السهر والكلام الكثير. لم يُخْفِ كآبته عن تلاميذه، فبدا مترنحاً موشكاً على السقوط. في كلّ مرة أمكنه القول: «وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». أمّا الآن فبدا وكأنه منفيٌّ عن الله يلتمسُ طريقه وحيداً تحت ضغط حِملٍ من خطايا لم يعرفها. وكأسد يترنح، أمام هيبته سكتَ الجميع.

في الطريق لم يسألوه شيئاً، لأنّهم منشغلين بساعة النوم. ولم يكلّمهم، لأنه منشغلٌ بقرار سيأخذه في البستان، به يُقدِّم نفسه للصليب وبالأَولى لصالبيه. أو به، يُبطل الجلجثة صاعداً لأبيه.

في طريقهم تجنبوا المرور أمام دار قيَافَا، فتوجهوا شرقاً ثم انعطفوا جنوباً، حتى وصلوا إلى بِرْكَةِ سِلْوَامَ. ثمّ التفّوا حولها ومن هناك خرجوا من إحدى بوابات سور أُورُشَلِيم إلى وادي قَدْرُون، وتابعوا السير شمالاً مع سور المدينة حتى وصلوا قرب الهيكل، ومن هناك عبروا على جسرٍ عتيق فوق وادي قَدْرُون يصلهم إلى سفح جبل الزَّيْتُون.

في الطريق تراجع التلاميذ قليلاً عن المعلّم احتراماً لصمته، فبدا وكأنه منفصل عنهم رمية حجر. وبينما هم يعبرون الوادي خلف معلّمهم قال مَتَّى الْعَشَّار لرفاقه وقد فارقه النعاس: منذ بضعة أيام ونحن نعبر هذا الوادي يومياً، وفي كل مرة أشعر بشيء من الخوف وأنا أجتازه.

أجابه فِيلُبُّس: وما الذي يقلقك في هذا الوادي؟ قال مَتَّى: لا أعرف تماماً كيف أُجيبك، ربما لارتباط هذا الوادي بتاريخنا!

قال يَهُوذَا بْنَ يَعْقُوب، معلقاً على كلمات مَتَّى: كل ما أذكره عن هذا الوادي، أنه يحد مدينتنا العظيمة أُورُشَلِيم، وقد سبقَ أن عبرهُ الملك العظيم دَاوُد عندما هرب من ابنه أَبْشَالُوم، هل توجد حوادث أخرى؟

أجاب مَتَّى: نعم، إني أذكرُ تماماً قول سليمان الملك، لشَمْعِي بْنُ جِيرَا الْبِنْيَامِينِيُّ، عندما توعدّه قائلاً له: «يَوْمَ تَخْرُجُ وَتَعْبُرُ وَادِيَ قَدْرُونَ اعْلَمَنَّ بِأَنَّكَ مَوْتاً تَمُوتُ، وَيَكُونُ دَمُكَ عَلَى رَأْسِكَ». تُرى هل هناك من يتربص بنا شراً؟

ابتسمَ تُومَا وقال: هناك حوادث كثيرة مرتبطة بهذا الوادي تقول عنه إنه كان مكانا رجساً، ربما هذا أيضاً يقلقك يا أخي مَتَّى.

توقف البعض عند كلمات تُومَا مستغربين، فقال أَنْدَرَاوُس: هل تذكر لنا بعض هذه الحوادث. أجاب تُومَا: أعتقد أن أخي نَتَنَائِيل يستطيع أن يجيب أفضل مني!

قال نَتَنَائِيل، وهو خبير في كلمة الرب: ما يقوله تُومَا صحيح، فالملك آسا ملك يهوذا، قطع تمثال السارية الذي عملته معكة أمه، وأحرقه في وادي قَدْرُون. وكذلك أيام الملك حَزَقِيَّا، دخل الكهنة إلى قدس الهيكل ليطهروه، وأخرجوا منه كل النجاسة التي وجدوها في الهيكل إلى فناء الهيكل، فأخذها اللاوِيُّون وطرحوها في وادي قَدْرُون خارج المدينة. وفي زمن الملك يوشيا، وبأمر منه فإن حِلْقِيَّا الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ، وكهنة الفرقة الثانية، وحراس الباب، أخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية

المصنوعة لِلْبَعْل، ولعشتاروث، ولكل أَجْنَادِ السَّمَاء، وأحرقوها خارج أورشليم في وادي قَدْرُون. ولأنه ضمّ قبورَ ورمادَ، رجاسات الشعب، دعاه النبي أرميا، وادي الْجُثَثِ وَالرَّمَاد.

قال أَنْدَرَاوُس: يقول البعض، له تسمية أخرى هي، وادي يَهُوشَافَاط، حيث فيه يحاكِمُ الرّب الأمم. عندها قال مَتَّى: طالما كل هذه الأحداث تمت في هذا الوادي، فإن قلقي في محله!

ما أن انتهى من كلامه حتى سرت رعدة في كيانه لم يعرف سببها، ليس هو فقط بل كل التلاميذ، وكأنهم في مواجهة مع الموت، وكان ذلك بتأثير من الغيمة السوداء التي لن تفارقهم قبل أن تفرقهم.

وإذ وصلوا إلى نهاية الجسر، صعدوا إلى سفحِ جبل الزَّيْتُون من جهة الجنوب، «وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي». فدخلها المعلّم مع تلاميذه.

في ذهابه للبستان لم يكن المعلّم يريد الهروب أو الاختفاء، فعيون يَهُوذَا تعرف المكان. لكنّه أراد لتلاميذه الضعفاء مكاناً يصلح لاختفائهم، ونجاتهم من هذه الساعة، فحتى في محنته تحمل همّ هروبهم.

وبينما التلاميذ يظنون أنهم ذاهبون ليأخذوا قسطاً من الراحة في فراشهم. كان المعلّم يتقدمهم كقائد عسكري إلى أرض المعركة، وهو مصمم على فتح الطريق أمام أتباعه، وإعطائهم الحقّ ليعبروا إلى المجد الأبدي. فالعهد الجديد الذي كلّمهم عنه قد حان الوقت لختمه بدمه.

الفصل الثّامن
نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدّاً حَتَّى الْمَوْتِ

الجمعة، ١٤ نيسان العبراني

لم يكن موسم الزَّيْتُون، لكنّ رائحة الْمِعْصَرَة في البستان اختلطت برائحة التراب الرطب، فتحسستها الأنوف بوضوح. في تلك الليلة كان البرد شديداً على غير المعتاد، ومع أنَّ «يَسُوعَ اجْتَمَعَ هُنَاكَ كَثِيراً مَعَ تلاَمِيذِهِ. إذ كَانَ فِي النَّهَارِ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ وَفِي اللَّيْلِ يَخْرُجُ وَيَبِيتُ فِي الْجَبَلِ الَّذِي يُدْعَى جَبَلَ الزَّيْتُونِ»، لكن هذا الاجتماع كان مختلفاً كلياً، وكانت تلك السحابة السوداء رفيقتهم إلى البستان الذي بدا في عيون التلاميذ غريباً تلك الليلة.

وإذ وصلوا إلى مدخله طلبَ المعلّم من ثمانية من تلاميذه البقاء والسهر مع الصلاة، وقال لهم: «اجْلِسُوا هَهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ»، وتابع القول، «صَلُّوا لِكَيْ لاَ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ».

استغرب التلاميذ رغبة المعلّم، ومع ذلك لم يقل أحدٌ منهم شيئاً. كان النعاس يسيطر عليهم، والتعب قد أرهقهم، فما أن جلسوا على الأرض عند مدخل البستان حتى التصقوا ببعضهم من شدة البرد، وأخذهم النعاس فناموا.

أما بُطْرُس وَيُوحَنَّا ويَعْقُوب فأخذهم المعلّم معه إلى داخل البستان، وهناك «ابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ». كانت مشاعره واضحة جداً، وصوت أنفاسه العالية تُسمع في صمت البستان، أما حركته التي بدا من خلالها وكأنه يحمل جبلاً على كتفيه يلزمه التمايل يميناً ويساراً، لم يعتدها تلاميذه. فجأة توقف ليلتقط أنفاسه، وهو يضع يده على شجرة زيتون، مستنداً لئلا يسقط. ثم نظر إلى تلاميذه المذهولين، وكأنه ينتظر عطفهم،

وصارحهم بالقول: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدّاً حَتَّى الْمَوْتِ. امْكُثُوا هَهُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي». وإذ أدرك احتياجهم أكثر من احتياجه، قال لهم: «صَلُّوا لِكَيْ لاَ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ».

لم يكن بُطْرُس ومن معه بأفضلِ حالٍ من البقية، وبدل أن يتعاطفوا معه ويرقوا لحاله، ناموا هُم أيضاً تحت إحدى أشجار الزيتون من شدّة السهر والتعب، ملتصقين واحدهم بالآخر.

أمّا المعلّم فقد «انْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ»، وقرب الْمِعْصَرَة، عند تلك الشجرة الضخمة التي اعتاد أن يصلي تحتها، كان وحيداً يرتجف من هول الساعة، كسنونة مزقزقةٍ يصيحُ، يهدرُ كحمامةٍ. وإذ لم تحمله ركبتاه «جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ».

السّماء من فوق تراقب، والغيمة السوداء في البستان تتربص به. البشر نيام. والكأس في البستان تنتظر شاربها، عميقةٌ هي، ومظلمةٌ جداً، فارتجفت روحه أمامها.

أيُّ كأسٍ هذه، كأس ذنوب النَّاس وجحودهم، كأس عصيان وفجور. اشمأزّت نفسه منها فلم يَقربها. كيف تقبل نفسه أن تحمل الخطيّة حَمْلاً حقيقياً تُسأل بمقتضاه وتُحاكم. كأسٌ أصعب عليه وأمرّ من حكم الموت نفسه. كأسٌ مرّةٌ ليست له، كيف يشربها، ويُحمّل الخطيّة على طبيعته مكرهاً. فزعت نفسه وارتجف جسده الطاهر ارتجافاً. الذي لم يعرف خطيةً، ولا صار في فمه غش، كيف يصير فاجراً نجساً محترف إثمٍ، متعدّياً على الوصايا، متمرّداً، مبغضاً، هارباً من أبيه.

كيف يَقبل عار الإنسان وهو أنقى من السماء. كيف يُحسَب ظلمةً، وهو نور العالم. كيف يَقبل أن يحاكَم كمضلٍّ وهو الحقّ. كيف يَقبل الموت، وهو رئيس الحياة. كيف يقبل هجران الله واختفاء وجه الآب عنه، وهو وحيده. كيف يعادي أباه ويبغضه، وهو المتفق معه بالإرادة. كيف يواجه أباه بلا فضيلة مفضوحاً بخزي عريه. كيف يكون لباسه ملطخاً بوسخ الخطية، وهو اللابس النور كثوب.

لا صَلبَ ولا صَليب بدون تهمة. فإمّا كاسٌ يشربها أو مسرحيّة ينفذها. ولأنه طلب الموت، ومن أجل هذا قد جاء، فعليه أن يحمل الخطايا كأنه خِلُّها، بل صاحِبُها.

وبينما يفكّر بالكأس المرّة، سمعَ صوتاً من الغيمة السوداء يقطع خلوته، قائلاً: أي نفع يُجتنى من هذه التضحية؟ ما لك ولذنوب النَّاس وجحودهم. اصعد إلى أبيك، ودعهم يشربون كأس عصيانهم وفجورهم.

وبينما هو جاثياً يصلي، ضغطتْ خطايا النَّاس عليه، وغضبُ الله على الخطية كاد يسحقه. فخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مرتمياً على الأرض يلاصق جبينه التراب، فبدا ذليلاً يستصرخ أباه رحمة. أو كأحد المجرمين أمام منصّة القضاء طالباً العفو قائلاً: «يَا أَبَا الآبُ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ فَأَجِزْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ».. «يَا اللهُ بِكَثْرَةِ رَحْمَتِكَ اسْتَجِبْ لِي بِحَقِّ خَلاَصِكَ. نَجِّنِي مِنَ الطِّينِ فَلاَ أَغْرَقَ. نَجِّنِي مِنْ مُبْغِضِيَّ وَمِنْ أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ. لاَ يَغْمُرَنِّي سَيْلُ الْمِيَاهِ وَلاَ يَبْتَلِعَنِّي الْعُمْقُ وَلاَ تُطْبِقِ الْهَاوِيَةُ عَلَيَّ فَاهَا».. «خَلِّصْنِي يَا اللهُ لأَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ دَخَلَتْ إِلَى نَفْسِي. غَرِقْتُ فِي حَمْأَةٍ عَمِيقَةٍ وَلَيْسَ مَقَرّ. دَخَلْتُ إِلَى أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ وَالسَّيْلُ غَمَرَنِي. تَعِبْتُ مِنْ صُرَاخِي. يَبِسَ حَلْقِي. كَلَّتْ عَيْنَايَ مِنِ انْتِظَارِ إِلهِي». وإذ وجَدَ الكأس لم تتحرك صرخ قائلاً: «لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي، بَلْ إِرَادَتُكَ».

لم يعطه الآب جواباً، فنهض متثاقلاً، وأمسكَ ببعض الأغصان لئلا يسقط. سارَ رمية حجر نحو تلاميذه الثلاثة، فبدت في عينيه مِيلاً. كان مشتاقاً في محنته لعطفهم عليه ببعض عبارات التعزية، خاصةً أنّه صارحهم بحزنه، لكنّه وجدهم نياماً، فهمس بصوت أسيف: «انْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ وَمُعَزِّينَ فَلَمْ أَجِدْ».

عزَّ على المعلّم أن يجد بُطْرُس المستعد للموت من أجله، نائماً، فأيقظه بروح العتب الخفيف قائلاً: «يَا سِمْعَانُ أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً» تجاهد فيها من أجل نفسك، وأيضا تتحدث إليّ بكلمة تشجيع في حزني. فلم يعرف بُطْرُس

المرهق من التعب والنعاس بماذا يجيبه. ثمّ أيقظ المعلّم يَعْقُوب بْنُ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخُاه، وعاتبهم بنفس الرقة، فلم يعرفا بما يجيباه. ثمّ ذهب إلى مدخل البستان فوجد الثمانية أيضا نياماً فأيقظهم وكلّمهم: «اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ». وبدلَ لومهم التمسَ لهم العذر في نومهم قائلا: «أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ».

عاد المعلّم من حيث أتى وَصَلَّى ثَانِيَةً قَائِلاً: «يَا أَبَتَاهُ إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ»، فبدا «كَمُضْطَجِعٍ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ أَوْ كَمُضْطَجِعٍ عَلَى رَأْسِ سَارِيَةٍ». كان يصرخ لأبيه ويقول: «فَلْتَأْتِ قُدَّامَكَ صَلاَتِي. أَمِلْ أُذْنَكَ إِلَى صُرَاخِي». وإذ وجدَ الكأس لم تتحرك قال: «لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ».

«ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أَيْضاً نِيَاماً، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً». وإذ عاتبهم «فَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا يُجِيبُونَهُ»، ومع كونه مرهقاً جداً، افتقدهم كراع صالحٍ يحرسهم من ذئب متربص بهم. لكنّ منظرهم زاد من إرهاقه اكثر، حتى بدت الأرض تميد تحت قدميه، إذ لم يتَعَزَّ بإيمانهم، «فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أَيْضاً وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلاً ذَلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ».

جاهدَ في الصلاة حتى تصبّب منه العرَق كقطراتِ دمٍ. كلُّ ما فيه كان يحترق. في يديه، في رجليه، في صدره، في رأسه، نار كاللهيب. كان العرَق مع الألم يسيل منه دون بكاء.

ومن بين أغصان الشجر، الشاهد الصامت لآلامه، تساقط ندى الليل البارد على جسمه الملتهب. وبكت لمشاعره أشجار الزيتون الصمّاء، في وقت نام فيه أعزّ الأصدقاء. يا لزيتون لم يُعصر فيُسكب، بل بندىً بكى خَالِقُهُ.

كان الوضع صعباً جداً، فهي المرة الأولى والوحيدة التي بدا فيها المعلّم بهذه الصورة، وكأن مسيح هذا البستان ليس المسيح الذي يعرفه الجميع. بدا وكأنه شخصية أخرى، ضعيفاً، يتذلل، يترجى، محموماً من شدة الصلاة، تتساقط منه قطرات العرق. تارة يجثو، وتارة يسجد على الأرض، ويناجي أبيه السماوي بالقول: لا كما أنا أريد، بل كما أنت تريد.

أيُّ ضعفٍ أصابه حتى بدا على هذه الصورة. قبل قليل كان يخاطب أباه السماوي بالقول: « أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ»، وأيضاً «مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً». أيُّ معلّم هذا، ماذا فعلت به خطايا الجنس البشري.

أيرتجف المسيح دون سمائه. تزلزلت الأعمدة، وانشقت حُجب السماء لافظةً كَرُوبِيمَاً من رحمها جاء يشدد المعلّم في أتون نارٍ يلتهب، «وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ. ٤٤وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ».

قال الكروبيم للمعلّم بعد أن أزاحَ تلك الغيمة السوداء عنه: اذكر ما قاله إشعياء عنك: أنك تحمل أحزان الشعب، وأوجاعهم، وأنك ستكون مجروحا من أجل آثامهم، ومسحوقاً من أجل معاصيهم، وأنهم بجراحك سيبرؤون، كلهم كغنم شردوا ومالوا كل واحد إلى سبيله، والرب يضع عليك إثم جميعهم.

ألم يقل إشعياء عنك: ظُلِمَ وأُذِلَّ، ولكنَّهُ لَمْ يَفْتَحْ فَاهُ، وضُرِبَ مِنْ أَجْلِ إِثْمِ شَعبي؟ مع أَنَّهُ لم يرتكب جَوْراً، ولم يكن في فمه غِشٌّ. ومع ذلك فقد سُرَّ الله أن يسحقَهُ بِالحَزَنِ. وحين يقدّمُ نَفْسَهُ ذبيحة إثمٍ فإنَّه يرى نَسْلَهُ، وتطول أيامه، وتُفلِح مَسَرَّةُ الرّب على يده. ويرى ثمار تعبِ نَفْسِهِ ويشبعُ.

كانت هذه الكلمات ترياقاً للمعلّم، قادته إلى المستقبل ليرى الكنيسة المجيدة عروسه المحبوبة، وقد انبثقت من جنبه، رآها في مجدها فشبع كما من طعام شهي، فترنمت شفتاه وتهلل فمه. عندها بملء إرادته، وهو مبتهج، قرر أن يشرب الكأس حتى النهاية!

أخيراً استجيبت الصلاة، وسُمع للمعلّم من أجل تقواه. تحركت الكأس، وإذ فَتح المعلّم شفتيه المرتجفتين انسكبت في داخلهما. فوقف على قدميه رافعاً رأسه إلى العلاء مهللاً ومرنماً بقلب يفيض بالمحبة: «الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا».

وإذ شربها رأى «نَسْلاً تَطُولُ أَيَّامُهُ» يهتف على مرّ الزمان: «لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ».

حَمْلُ الخطايا يستوجب حكم الموت، وإذ شرب المعلّم الكأس بإرادته، عادت الغيمة السوداء لتخيم فوقه، متوعدة إياه بالموت مع تلاميذه.

«ثُمَّ قَامَ مِنَ الصَّلاَةِ وَجَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ فَوَجَدَهُمْ نِيَاماً مِنَ الْحُزْنِ». كان تأثير الغيمة واضحاً عليهم. ومع أنهم لم يصارحوه بما بهم، لكنه الفاحص القلوب والكلى، نظرهم، فعرف أنهم نائمون من شدة الحزن والتعب. ثمَّ خاطبهم دون أن يوقظهم وهو ينظر تلك الغيمة السوداء: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا[1]. هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ». ولم يطل انتظاره كثيراً حتى أيقظهم جميعاً، وجمعهم معاً قائلاً: «قُومُوا نَنْطَلِقْ. هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ».

كان يُبصر في الليل كما في النهار، وعِلمه ليس له استقصاء. شاهدَ يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيّ من مسافة بعيدة، في ظلام الليل الدامس. ومن بين الجمع المحيط به رآه يتعثر في مشيه بين الصخور مستنداً على عصاة قد أحضرها معه. بينما تلاميذ المعلّم بالكاد كانوا يميزون بعضهم البعض بالشكل الخارجي دون التفاصيل، وهم في دائرة ضيقة من شدة الظلام الذي صنعته الغيمة السوداء، رغم أن القمر بدرٌ.

قال المعلّم لتلاميذه: طلبتُ منكم أن تصلّوا لكنكم أضعتم الفرصة، لو صلّيتم لعبرتم التجربة بسلام، لكن الآن بسبب إهمالكم ستدخلون تجربة مُرّة، ومع ذلك لن أترككم يتامى.

وإذ نظروا الذي يكلمهم أفزعتهم هيبته. فالذي دخل معهم البستان يبدو الآن غير الذي يخرج معهم من البستان. ذاك كان كئيباً حزيناً يستحمّ في عرقه، ويُعتصر قلبهُ من شدة المعاناة. أمّا هذا فمعلماً رباً قديراً.

---

[1] – إذا قيلت بلهجةِ الاستهجان تعني (تنامون الآن وتستريحون)، وإذا قيلت بلهجة العَتب تعني (قد أضعتم الفرصة).

الفصل التّاسع
كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ

أخيراً جاء الوقت المعيّن، الذي فيه الله الآب «سَلَّمَ لِلسَّبْيِ عِزَّهُ وَجَلاَلَهُ لِيَدِ الْعَدُوِّ». وسيق للموت ابن الأحضان الأزلية، الذي أصبحَ «مُهَانِ النَّفْسِ»، و«مَكْرُوهِ الأُمَّةِ».

في دار قيَافَا، حيث مجلس السنهدريم منعقد، «فِي الْعِشَاءِ فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ فِي حَدَقَةِ اللَّيْلِ وَالظَّلاَمِ»، تم الاتفاق مع يَهُوذَا، وقيل له: سنضع جند الهيكل، ومعهم قائد الهيكل تحت تصرفك. فقط أوصلنا ليسوع. ابتسم يَهُوذَا إذ شعر للحظات أنه أهم من قائد جند الهيكل. وصدّق أنه صار بمثابة قائد مئة يمكنه إصدار الأوامر للجند الَّذِينَ يعملون تحت إمرته.

أشار حَنَّان على قيَافَا بأن يرسلوا مع الجند بعضاً من النَّاس ليضمنوا أن يسوع لن يُفلت من أيديهم. ثمّ قال له: سأسبقكم إلى الهيكل إلى قاعة اجتماع مجلس السنهدريم، وهناك سألتقي يسوع عندما يُلقى القبض عليه قبل أن نحاكمه، فلي معه كلاماً أريد أن أنهيه وحيداً.

ابتسم قيَافَا لمشورة حَنَّان، فأمر عبيده حالاً أن يستدعوا ما أمكن من النَّاس وخاصة الحجاج ساكني الخيام حول الهيكل، ليشاركوا في حملة القبض على المعلّم. ولأن النَّاس لا تملك السيوف جاؤوا بالعصي.

وهكذا «أَخَذَ يَهُوذَا الْجُنْدَ وَخُدَّاماً مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ».. «وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ» و «مَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ»، وقال لهم: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ، وَامْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ». مشدّدين الحراسة عليه لئلا يهرب.

كان المنظر غريباً جداً. جنود قلّة مدججين بالسلاح، مع جمهور من الرعاع يحملون العصي، ويهرولون بين الجنود، حاملين المشاعل لإنارة الطريق. أغلبهم قد جاؤوا على عجل، وهم في ثياب نومهم ونصف نيام، فشكلوا خليطاً عجيباً لم يسبق لسكان أورشليم أن رأوا مثله، خليطاً يتقدمه مَن دُعي، أحد الرسل الاثني عشر، ولقبه ابنُ الهلاك.

وبينما هم متجهون إلى الهيكل، حيث سيتجمّعون في باحة الأمم. أيقظوا سكان أورشليم من نومهم وأرعبوهم. فأطلّ الكثيرون من نوافذهم ليعرفوا ماذا يحدث؟ ودارت الأحاديث بين النوافذ المتقاربة عن سبب الضجيج، وكلّ قال رأيه دون أن يصلوا إلى نتيجة. وإذ اطمأنوا أنه ليس من شغب أو ثورة عادوا إلى نومهم بانتظار صباح يكشف لهم ما خفي عنهم في المساء.

أمّا الجنود الرومان الَّذِينَ كانوا منتشرين في أزقة شوارع أورشليم، فسرعان ما اخترطوا سيوفهم واستعدوا، ثمّ نقلوا الأخبار لقائد المئة المتواجد في قلعة أنطونيا، فأمر جنوده بالاستنفار في كل مكان من المدينة ريثما يتبين له ماذا يجري في ليلة العيد. ثمّ دخل إلى الْوَالِي (بيلاطُس الْبُنْطِيّ) في جناحه، ليطلعه على الأخبار أولاً بأولٍ.

«أَمَّا ذَلِكَ اللَّيْلُ فَلْيُمْسِكْهُ الدُّجَى وَلاَ يَفْرَحْ بَيْنَ أَيَّامِ السَّنَةِ وَلاَ يَدْخُلَنَّ فِي عَدَدِ الشُّهُورِ».. «ذَلِكَ اللَّيْلُ لِيَكُنْ عَاقِراً! لاَ يُسْمَعْ فِيهِ هُتَافٌ».

يا لمشهدٍ، بدا فيه الخائن رئيس عصابة تطوّع للقبض على البار. وإن فُهمت السيوف في أياديهم فالعصيّ ما مغزاها. هل ظنوا المعلّم جباناً سيهرب، أو أنه يستحق الضرب كالعبيد، فاحضروا العصي معهم.

تُرى هل نسيَ الإِسْخَرْيُوطِيُّ أنّه كان أحد التلاميذ الاثني عشر، هل نسي مواعظ المعلّم التي تشتهي الملائكة أن تطّلع عليها، هل نسيَ أنه بسلطان من المعلّم صنع عشرات المعجزات، هل أضاع ذاكرته، أم أعماها شيطان تملكه.

تجمّع الموكب في الهيكل على عَجَلٍ، ثمّ خرج من الباب الشرقي، المطل على جسر عتيق فوق وادي قَدْرُون، حيث يصلهم إلى سفح جبل الزَّيْتُون، فعبروه الواحد خلف الآخر لئلا ينهار الجسر تحت أقدامهم. ثم صعدوا الجبل باتجاه ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي حيث هناك يتواجد المعلّم. «وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ يَعْرِفُ الْمَوْضِعَ لأَنَّ يَسُوعَ اجْتَمَعَ هُنَاكَ كَثِيراً مَعَ تلاَمِيذِهِ».

وإذ وصل الموكب إلى البستان تحت ظلال الغيمة السوداء، أمر الإِسْخَرْيُوطِيُّ الجند والخدام بالتوقف لمحاصرة المعلّم. ثمّ أعطى الأوامر وكأنه القيصر، ظاناً نفسه بين الرعاع والجند شيئاً. وقبْل الأمر بالهجوم فوجئ بالمعلّم يخرج إليه مع التلاميذ «وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ». كأسدٍ في عَرينه يُرهب الجميع قائلاً: «مَنْ تَطْلُبُونَ».

ربما توقع الإِسْخَرْيُوطِيُّ مع رجال الدّين أنّ المعلّم سيختفي مجتازاً في وسطهم ويمضي كما فعل سابقاً، عندما رفع اليهود حِجارةً لِيَرجُموهُ في الهيكل، فاختفى وخرجَ مجتازاً في وسْطِهم ومضى. أو أن المعلّم سيستخدم القوة فيضربهم بالعمى كما فعل أليشع بالآراميين. كانت توقعاتهم خائبة مثلهم، لأنهم لم يدركوا بعد أن المعلّم قد جاء كمسيح الرب، ليقدم نفسه فديةً عن كثيرين.

كان المفترض أن المعلّم يخاطب القائد، لكنه بدل ذلك كلّم الجموع ليعطي الإِسْخَرْيُوطِيُّ (الذي مازال يحبه) فرصة أخرى لينسحب من المشهد قبل أن يلوث يديه بالدّم البريء. لكن الإِسْخَرْيُوطِيُّ في قلبه «هُنَاكَ يَسْتَقِرُّ اللَّيْلُ وَيَجِدُ لِنَفْسِهِ مَحَلاًّ»، أضاع هذه الفرصة أيضاً.

وإذ ارتفعت المشاعل لرؤية المتكلّم الذي لم يميزوه من صوته، قالت الجموع: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». أمّا يَهُوذَا فأصابه الذهول مما يحدث، لكنّ الذي دخله مع اللقمة لم يعطه فرصة للتوبة. فالغيمة السوداء التي تخيم على الموقع كانت ترخي بظلها على قلوب الجميع وخاصة يَهُوذَا.

أجاب «اَلَّذِي صَنَعَ الثُّرَيَّا وَالْجَبَّارَ وَيُحَوِّلُ ظِلَّ الْمَوْتِ صُبْحاً.. الَّذِي يَدْعُو مِيَاهَ الْبَحْرِ وَيَصُبُّهَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ يَهْوَهُ اسْمُهُ»: «أَنَا هُوَ». ولأن الكلمة فيها سلطان، حينئذ الجموع مع الإِسْخَرْيُوطِيِّ «رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ» كمن هزّهم رعدٌ شديد، ورماهم أرضاً. وتمّ القول فيهم: «عِنْدَمَا يَأْتِي الْعَدُوُّ كَنَهْرٍ فَنَفْخَةُ الرَّبِّ تَدْفَعُهُ».

وإذ أَعلن المعلّم عن نفسه صراحة لم يعد لقبلة الإِسْخَرْيُوطِيُّ أيُّ اعتبار، وكأني بالمعلّم يقول للإِسْخَرْيُوطِيُّ الذي يحبه: ليس هناك من حاجة لكي تُقبّلني وتسلّم دماً بريئاً، اذهب يا يَهُوذَا وانجُ بنفسك. كانت فرصة أخرى لينسحب من المشهد، لكن عبثاً، لأنّ الذي فيه أقوى منه، فالغيمة السوداء اعتصرته حتى تصبب منه العرق في برودة تلك الليلة، فبدا كأنه محموم يحترق في بستان الزيتون.

وإذ استجمعوا قواهم وقفوا من جديد فسألهم المعلّم: «مَنْ تَطْلُبُونَ». فقالوا للتصغير: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». فلم يتعظوا من سقطتهم. كانوا كأشجَارٍ خريفيَّةٍ بِلاَ ثَمَرٍ إذ يقتلعها أصحابها، تموت مرتين.

قال لهم المعلّم: «إِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ. لِيَتِمَّ الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَداً». وليفهم الجميع انه سيدوس الْمِعْصَرَة وحده وأنه لا يريد أن يكون له في الضيق أعوان. فوضع شرطاً على الجموع، مؤكدا من موضع القوة، إن لم تتركوا تلاميذي لن أسلّمكم نفسي.

أراد أن يقول لهم: مهما فعلتم لا تستطيعون الإمساك بي، لا أحد ينتزع حياتي مني، بل أنا أبذلها باختياري. لي السلطة أن أبذلها ولي السلطة أن أستردها. هذه الوصية تلقيتها من أبي، لذلك اتركوا تلاميذي يرحلون بسلام، وأنا طوعاً أسلّمكم نفسي. ليتم القول: «الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ».

رغم مصابيحهم لم يعرفوه، ورغم سيوفهم لم ينالوه. «اِقْهَمُوا أَيُّهَا الْبُلَدَاءُ فِي الشَّعْبِ وَيَا جُهَلاَءُ مَتَى تَعْقِلُونَ»، إن لم يُسلّم نفسه لن تمسكوه.

انتظرت الجموع بصمتٍ، وإذ تيقّنوا أنّ المعلّم لن يستخدم قوته، تقدم فجأة الخائن وهو يرتجف ليحرق أوراق تلمذته. «فَدَنَا مِنْ يَسُوعَ لِيُقَبِّلَهُ». يا للسخرية، ذئب في ثياب حملٍ، وبدل العضّ يُقبّل. قالَ لهُ المعلّم: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟». وإذ لم يعط جواباً، قال له ثانية: «يَا يَهُوذَا، أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟». ومن شدة ارتباكه لم يدرك أن المعلّم عارف بكل تفاصيل مؤامرته، ومن بينها قبلة الذئب.

كانت هذه فرصة أخرى لينسحب الخائن من المشهد، لكن عبثاً، فالذي قرر بيع المعلّم بثلاثين من الفضة، لن يتراجع ويخسر بيعته، وتحت ضغط الغيمة السوداء تقدم من المعلّم معانقاً وقالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي! وَقَبَّلَهُ». كانت قبلته تشبه قبلة يُوآب، لِعَمَاسَا، الذي قبّله ثم أغمدَ سيفه في بطنه فقتله.

أخفض المعلّم رأسه حزيناً وقال: «لأَنَّهُ لَيْسَ عَدُوٌّ يُعَيِّرُنِي فَأَحْتَمِلَ. لَيْسَ مُبْغِضِي تعَظَّمَ عَلَيَّ فَأَخْتَبِئَ مِنْهُ. بَلْ أَنْتَ إِنْسَانٌ عَدِيلِي إِلْفِي وَصَدِيقِي الَّذِي مَعَهُ كَانَتْ تَحْلُو لَنَا الْعِشْرَةُ».

قبلةٌ غاشةٌ في بستانِ صلاة، وفي زمن فصحٍ وتقوى. يا للخائن، أضاف بها ملعقة مُرٍّ إلى كأسٍ قد سبق المعلّم واجترعها في البستان. لماذا جئت يَا يَهُوذَا؟ أمّا جواب السؤال فباقٍ لليوم الأخير.

وإذ رأت الجموع في المعلّم شاةً لا تقاوِم. انطلقوا بتحريض من الغيمة السوداء «فَأَلْقَوْا أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ» وأخذوه مقيداً، خشية أن يجتاز في وسطهم ويمضي كما فعل قبل ذلك عندما لم تكن ساعته قد جاءت بعد. أمّا الآن فهذه ساعتهم وسلطان الظلمة.

كان يَهُوذَا المرتبك يراقب المشهد، وآخر ما رآه عينا المعلّم المملوءتان عتباً وشفقةً عليه، وتلك النظرة التي اخترقت أعماقه فحَرَقَت في الداخل مشاعره. وإذ أوثقوه تذكّر يَهُوذَا قول النبي: «كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ

يَفْتَحْ فَاهُ». وتذكّر قول الْمَعْمَدَان: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ». بل تذكّر قول المرنم: «أَوْثِقُوا الذَّبِيحَةَ بِرُبُطٍ إِلَى قُرُونِ الْمَذْبَحِ». وإذ استفاق ضميره فجأة، قال في نفسه: أليس الاتفاق أن يؤخذ المعلّم إلى رئيس الكهنة كما تؤخذ الشاة لِتُفحص، ويؤمر بذبحها ورش دمها للتطهير من الخطايا. هل نحن في يوم الكفارة العظيم. تُرى هل يشفق الله على المعلّم فيفتديه بشاة كما افتدى اسحق من قبلُ. وبكى في مكانه دون أن يرى أحد دموعه في عاتم الليل.

«الَّذِي جَالَ يَصْنَعُ خَيْراً وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ»، بالسلاسل أوثقوه.

الذي ضمّد جراحهم، وشفى مرضاهم، وأقام موتاهم، بالسلاسل أوثقوه.

الذي حلّ قيودهم، ومن أسرِ القوي فكّهم، بالسلاسل أوثقوه.

إنهم شعب قال فيهم موسى: «هَل تُكَافِئُونَ الرَّبَّ بِهَذَا يَا شَعْباً غَبِيّاً غَيْرُ حَكِيمٍ».

فجأة قُطعت ذكريات الإِسْخَرْيُوطِيُّ بصوتِ بُطْرُس الأجّش وهو يقول: «يَا رَبُّ أَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ». لماذا السَّيف يا بُطْرُسُ والموت ربحٌ. وقبْل أن يُجاب، استلّ المتسرّع النائم سيفاً دمشقيا ليس له، مُعرّضاً نفسه ومن معه للمساءلة، ومعرقلاً رحلة المعلّم إلى الصليب، «وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ الْيُمْنَى. وَكَانَ اسْمُ الْعَبْدِ مَلْخُسَ».

يا لك من مقاتل شجاعٍ متمرس في حمل السيف، في ساحَة الوَغَى لم تصب من مَلْخُس إلا أذنه. هل كانت يدك ترتجف، أم عيناك في الظلمة لم تبصرا سوى أذن مَلْخُس. هل أنت جاد يا بُطْرُس في حربك على كل هؤلاء الجنود الَّذِينَ تمرسوا في القتال وعددهم بالعشرات، هل تريد أن تورط نفسك ومن معك في معركة خاسرة. ها أنت الآن قد صرتَ مطلوباً للقضاء بتهمة الاعتداء على جنود الهيكل.

أما بقية التلاميذ لو دخلوا هذه المعركة الخاسرة بتأثيرٍ من بُطْرُس، لما بقي منهم أحد على قيد الحياة، وضاعت كلمات المعلّم التي قالها: «الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ

وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ». لكن هيهات أن تسقط كلمات المعلّم الذي قال: «اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلَكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ».

فجأة، على صوتِ المعلّم الصّارم توقّف كلٌّ في مكانه، الجموع، وتلاميذه الَّذِينَ قاربوا على الاشتباك. كان عتابه لبُطْرُس شديداً، «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟». وإذ تذكر الكأس المرّة التي أعطاه إياها الآب وشربها في البستان قبل قليل، نظر في عيني بُطْرُس المرعوب وقال: «الْكَأْسُ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا؟». ثمّ التفت إلى تلاميذه قائلاً: «قفوا عند هذا الحد!».

أرعبتهم سطوته، فلم يتحرك أياً منهم، وكذلك جنود الهيكل ومن معهم من رعاع، كان كل شيء تحت سلطانه، حتى الغيمة السوداء انكمشت وتراجعت للخلف. ثم تقدم المعلّم نحو مَلْخُس وبيديه المقيدتان بالسلاسل لمس أذنه فأبرأها، منقذاً بُطْرُس من يد العدالة، وتلاميذه من معركة خاسرة كان يمكن أن يُقتلوا فيها جميعاً، بل أعطاهم الفرصة لينسحبوا من المشهد بسلام.

كان تصرف تلاميذه سيئاً جداً، فكيف لم يتعلموا كل تلك السنوات أنه لم يأت ليحارب ويَقتلْ، لم يأتِ ليحمل سيفاً ويُهلك، بل جاء كراعٍ يضع نفسه عن الخراف، جاء ليطلب ويخلّص ما قد هلك. أما تصرف تلميذه بُطْرُس فكان في عينيه أَمَرَّ من سيوفهم، ومن قبلة الخائن يَهُوذَا سارق الصندوق.

كان الجميع في حالٍ من الذهول. بعضهم في رعب، وآخر في حيرة من أمره فلم يحركوا ساكناً. كانت عيونهم جاحظة، أعناقهم ممدودة، ومشاعلهم تصنع أخيلة تتراقص مع نورها. وإذ شُفيت أذن مَلْخُس التفت المعلّم إلى الجموع ليعظهم قائلاً: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَكُمْ

أُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ وَلَمْ تُمْسِكُونِي. وَأَمَّا هَذَا كُلُّهُ فَقَدْ كَانَ لِكَيْ تُكَمَّلَ كُتُبُ الأَنْبِيَاءِ».. «هَذِهِ سَاعَتُكُمْ وَسُلْطَانُ الظُّلْمَةِ». وما أن أكمل المعلّم كلامه حتى هبطت الغيمة على رؤوس الجميع «حِينَئِذٍ تَرَكَهُ التَّلاَمِيذُ كُلُّهُمْ وَهَرَبُوا»، ليبقى المعلّم وحيداً كما قرر. وحينئذ استفاقت الجموع من ذهولها «ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ»، وبعنف الذئاب ساقوه أمامهم، «وَمَضَوْا بِهِ إِلَى حَنَّانَ أَوَّلاً».

أمّا الخائن يهوذا إذ انتهت مهمته، بات عند البستان وحيداً. كان قائداً لساعات، والآن متروكاً كنفاية تحت زيتونة برية، يعاني برد الليل وكوابيسه.

يا لها من قصة حزينة فيها يُسلّم البار لأيدي الأثمة، وفيها تعطى الفرصة للإِسْخَرْيُوطِيُّ فيضيّعها ويحكم على نفسه بالموت الأبدي. قصة فيها يتخلى التلاميذ عن معلّمهم هاربين تائهين في ظلمة الليل كخراف لا راعٍ لها. ومع ذلك، ورغم أن المعلّم يعرف كل شيء، لم يتراجع عن رغبته في الموت صلباً لأجلهم، لأنه قد أحب خاصته الَّذِينَ في العالم، أحبهم إلى المنتهى.

الفصل العاشر
أمامَ حَنَّان

كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي يتمكن فيها رجال أشرار من إلقاء القبض على المعلّم وربط يديه، وقد تمّت بسماحٍ منه، بإرادته. بينما طيلة الفترة التي كان ينادي فيها ببشارة الملكوت لم يتمكن أحد من إلقاء القبض عليه، رغم المحاولات المستميتة التي وقف وراءها رجال الدين بكل سلطانهم، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. أمّا اليوم فالساعة قد جاءت لِيُسلّم ابن الإنسان للموت.

أمام صعوبة المشهد في البستان تفرق التلاميذ في ذلك الليل الحالك الذي حجبت فيه الغيوم الكثيرة ضوء البدر، وهربوا مختفين بين أشجار الزيتون. لكنّ بُطْرُس ويُوحَنَّا اللَّذَيْنِ تواريا في البستان خلف تلك الشجرة الضخمة التي كان المعلّم يصلي تحتها، اعتزما بعد التشاور أن يتبعا المعلّم إلى حيث يمضي. ومن شدة ارتباكهم لم يلاحظا الخائن يَهُوذَا المختبئ مثلهم، ولم يلاحظهم هو أيضاً، رغم قرب المسافة بينهم.

انحدر الجمعُ في طريقهم إلى وادي قَدْرُون، الذي يقع بين الأسوار الشرقية لأورشليم وجبل الزيتون، وهم يدفعون أمامهم المعلّم المرهق ويستحثونه للعَجَلة في سيره. وفي كل هذه العجالة لم يكونوا عالمين أنهم بينما يستعجلون المعلّم للموت، كانوا يستعجلونه لفدائهم من الموت الأبدي. يا للصور المتناقضة في هذا المشهد الغريب.

كان المعلّم متعباً ويداه موثقتان بالسلاسل، والطريق منحدرة ووعرة، وتحت هياج الرعاع وصراخهم واندفاعهم، سقط أكثر من مرة. ولأن الغيمة السوداء كانت فوقهم كلّ الطريق، أصابهم مسٌ من الجنون وهم لا يعلمون. كان هدير أصواتهم يزعج سكون الليل، ويقلق طيوراً قد استراحت في نومها.

بعد ذلك ساروا جنوباً بمحاذاة الوادي، إلى أن وصلوا مقابل الباب الشرقي للهيكل الذي يُعتبر جزءاً من سور المدينة الشرقي، حيث هناك جسر قديم يعلو الوادي، عبروه باتجاه الهيكل الذي يرتفع عن قعر الوادي بنحو ٤٠٠ قدم، ودخلوا الهيكل من بابه الشرقي الوحيد إلى دار الأمم، ومن هناك غادر الرعاع الهيكل من البوابات الجنوبية، البعض إلى بيوتهم، والبعض الآخر إلى دار قيَافَا الَّذِي كان رئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلكَ السَّنَةِ، وأيضاً، صهراً لحَنَّان رئيس الكهنة المعزول.

أمّا جندُ الهيكل، وقائد جند الهيكل، فبقوا مع المعلّم المقيّد اليدين في دار الأمم، حيث تم إبلاغهم بعد وقت قليل بأن حَنَّان ينتظرهم في قاعة السنهدريم في الزاوية الجنوبية الغربية لرواق الهيكل الداخلي بفارغ الصبر.

ومع الهزيع الثالث من الليل، أخذ بعضٌ من جند الهيكل المعلّم، ومضوا به إلى قاعة السنهدريم، ودخلوا منتشين أولاً إلى حيث ينتظرهم رئيس الكهنة المعزول حَنَّان، حَمَا قيَافَا، وأُغلقَ الباب.

كان حَنَّان شيخاً، وقد عُزل[1] من منصبه كرئيس كهنة، مع أنه طبقاً للنّاموس كان يجب أن يستمر في منصبه إلى نهاية حياته. لكن تحت ضغط السياسيين عُزل وعُيّن بدلاً عنه صهره قيَافَا. ومع ذلك، ولأن لليهود اعتباراتهم، سِيق المعلّم أولاً إليه، ليس لمحاكمته واتخاذ قرار بشأنه لأن القرار ينبغي أن يصدر عن رئيس الكهنة قيَافَا، بل لاستجوابه وللتعرف عليه بشكل أفضل، فبقي المعلّم مع حَنَّان نحو ساعة من الزمان أو أكثر قليلاً، حتى مطلع الصباح.

أمر حَنَّان قائد الجند بفك وثاق المعلّم، ليبدأ باستجوابه والتعرف عليه عن قرب. لأن ما وصله من أخبار عن المعلّم كانت متناقضة، وظن أن فيها الكثير من

---

[1] – في سنة (٣٧ ق.م)، وفي عهد هيرودس الكبير، تبدّلت قاعدة الخلافة، فلم يعد رئيس الكهنة يعيّن مدى الحياة، ولم تعد وظيفته وراثيّة.

المبالغة فقرر غربلتها بميزان فهمه. لكن لم يمض إلا قليل من الوقت حتى كانت الدهشة ترتسم على وجوه الجميع، فالإجابات السديدة التي كان يقدمها هذا المعلّم الجليلي، أوقعت رئيس كهنةٍ متمرس مثل هذا في حيرة من أمره. أمّا القليل من الخدّام الَّذِينَ وقفوا عن يمين ويسار حَنَّان فإنهم لم يسمعوا قط إنسانٌ يتكلم مثل المعلّم، فأصابهم الإرباك أكثر من رئيس كهنتهم.

مع مطلع الصباح، قبل أن ينبلج الفجر، كان حَنَّان رئيس الكهنة المعزول قد أصابه الإرهاق أكثر من المعلّم، واحتار في أمره. هذا الرجل لم يتعلّم على يد الربيين، لكنّه يعرف الكتاب المقدّس أكثر منهم جميعاً. لم يرفع سيفاً بوجه أحد لكن كلامه «أَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ»، وخَارِقٌ إِلى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ، وَمُمَيِّزٌ لأَفْكَار الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ. وإذ حارَ في أمره وتاه عن الطريق، قرر أن ينسحب من المشهد بعد أن أمر قائد الجند والَّذِينَ معه أن يأخذوا المعلّم «مُوثَقاً إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ». فاقتادوه كشاة تساق إلى الذبح، و«مَضَوْا بِهِ إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ حَيْثُ اجْتَمَعَ الْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ» في داره.

بينما حَنَّان يغادر إلى مخدعه في الهيكل، كان يفكر في نفسه ويقول: «إِنْ كَانَ هَذَا الرَّأْيُ أَوْ هَذَا الْعَمَلُ مِنَ النَّاسِ فَسَوْفَ يَنْتَقِضُ»، ولكن إن كان من عند الله فلن أتمكن أبدا من الوقوف في وجهه، وإلا جعلتُ من نفسي عدواً لله. فليتحمل قيَافَا المسؤولية عوضاً عني، إنه هائج أكثر من الشعب، ولا يريد الإصغاء لأحد. فإن تمكن من تنفيذ إرادته بقتل يسوع، فأنا بريء من دم هذا الرجل، وأرجو أن لا يقع إثمه على الأمة بأكملها. وإذ دخل مخدعه وأغلق بابه استراح لقراره هذا.

الفصل الحادي عشر
إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ

كان بُطْرُس وَيُوحَنَّا في حيرةٍ من أمرهم، فهم قد دخلوا مع الرعاع والجند إلى الهيكل، وإذ سمعوا إن المعلّم سيبقى في قاعة السنهدريم مع حَنَّان أولاً، خرجوا مع الرعاع إلى خارج الهيكل وبقوا قريبين من بواباته لمتابعة أخبار المعلّم.

لم يمض وقت حتى ساد الهدوء المكان، إلا من أصوات أزيز حشرات مزعجة. كانت التربة رطبه والحشائش قد نمت عليها، والبرد قارس، فجلس التلميذان الهاربان قريبين من بعضهما البعض، حتى بديا من بعيد، تلة صغيرة فوق كومة حشيش.

قال يُوحَنَّا: ماذا نفعل؟ أجابه بُطْرُس: سنبقى هنا، وإن أردت أن تمضي سأبقى بانتظار خروج المعلّم. هزّ يُوحَنَّا رأسه، ثم تمدد على السندس الأخضر قائلاً: سأبيت معك يا أخي، ولن أغادر قبل أن أطمئن على المعلّم. فما كان من بُطْرُس إلا أن تمدد هو الآخر بجانبه ثمّ قال: قلبي يوجعني، ولدي شعور سيئ تجاه هذا العيد، وتجاه المعلّم.. ما قاله مَتَّى أشاركه فيه الآن.

بعد صمْتٍ قليلٍ التفت يُوحَنَّا إلى بُطْرُس وكأنه قد تذكّر أمراً، فنهض على قدميه وقال له: من أين أحضرت يا أخي ذلك السيف الذي قطعت به أذن مَلْخُسَ في البستان؟ تلعثم بُطْرُس ثم أجاب: أردت أن أدافع به عن المعلّم. ثم تابع بخجل، أخذته من العليّة. ومع الأسف لم أنفع المعلّم، والسيف قد سقط مني في البستان. تنهد يُوحَنَّا، وسكت الاثنان.

كانت اللحظات تمرُّ كأنها دهراً، ومع كل حركة كان بُطْرُس ينهض تارةً، وتارةً يُوحَنَّا ليتأكدا، هل خرج المعلّم من الهيكل، أو أنه مازال في الداخل. وأخيراً صارت جلبة عالية، وضجيج ملأ المكان، فنهض الاثنان، وإذ بجنود الهيكل يقودون المعلّم أمامهم ويدفعونه بعنف دون رحمة. كانت أصوات ضحكاتهم السمجة تملأ المكان، فانحنيا من جديد حتى مرّ الموكب قربهم دون أن يلاحظهم أحدٌ، فساروا خلفه على مسافةٍ قريبةٍ، وإذ بالموكب ينحدر جنوباً ثم غرباً حتى وصل إلى دار قيَافَا.

بعد وقت قليل من وصول جند الهيكل مع المعلّم إلى دار قيَافَا، وصل يُوحَنَّا وبُطْرُس أيضاً، اللذان توقفا ليتشاورا فيما يفعلان. قال يُوحَنَّا لبُطْرُس بصوت هامس: ابقَ أنت هنا، سأدخل أنا إلى دار رئيس الكهنة وأحضر لك إذنا للدخول، ابقَ قريباً من الباب. هزّ بُطْرُس رأسه معطياً الموافقة. وإذ دخل يُوحَنَّا «الَّذِي كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ»، «مَعَ يَسُوعَ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ»، بقي بُطْرُس عند الباب منتظراً التصريح.

عَبَرَ الموكب الدهليز الطويل، ثم الصالة المربعة الفسيحة غير المسقوفة، التي في وسطها بئر مسوّر بالرخام الفخم، وتلتف حوله أحواض الورد. ومنها دخلوا إلى غرفة واسعةٍ فخمة جلس في صدرها قيَافَا بثيابه المهيبة، واجتمع حوله أعضاء السنهدريم، وبينهم نِيقُودِيمُوس، ويُوسُف الَّذي مِنَ الرَّامَةِ وهو عضو محترم في هذا المجلس. وفي إحدى الزوايا وقَفَ ثلّة من الشهود الَّذِينَ أُحضروا على عجل ليطلبوا دم البريء. أما يُوحَنَّا الذي تسلل بينهم إذ كان معروفاً لدى قيَافَا، فجلس صامتاً في مؤخرة القاعة ينظر ما يجري أمامه، والدهشة تتملكه، منتظراً أحد الخدم ليأتي له بالتصريح.

كان لا بد أن تجري المحاكمة عل درجتين، الأولى دينيّة أمام مجلس السنهدريم الذي يحكم في شؤون الأمة، والثانية مدنيّة أمام الحاكم الروماني لأن اليهود كانوا خاضعين للرومان. وكان من عادة الرومان أن يتركوا بعض السلطة للشعوب التي

يحكمونها، لذلك فقد ظلّ مجلس السنهدريم يمارس سلطاتِه ويُجري المحاكمات في القضايا التي لا تستوجب الموت. أمّا القضايا التي تستوجب الموت فكان يَلزم عرضها على الحاكم الروماني، لذلك كان ينبغي أن يُحاكم المعلّم أولاً أمام مجلس السنهدريم الذي يَحكم عليه، ثم يُحاكم أمام المحكمة الرومانية لإقرار هذا الحُكم.

في هذه الليلة الباردة كان الشجاع خارج الباب، والخوف يُقلقه من افتضاح فعلته بحقِّ مَلْخُسَ. وبينما يضرب أخماسه بأسداسه متفكراً بالعودة، إذ بيُوحَنَّا يأتي بالتصريح لإدخاله، «وَكَلَّمَ الْبَوَّابَةَ فَأَدْخَلَ بُطْرُسَ». أمّا البوَّابةُ فلم تُبصر وجهه حاسبةً أنّه من شدة البرْدِ قد تلثّم. وإذ نظرَ هدوء يُوحَنَّا اطمأنّ قليلاً.

«كَانَ الْعَبِيدُ وَالْخُدَّامُ وَاقِفِينَ، وَهُمْ قَدْ أَضْرَمُوا جَمْرًا لأَنَّهُ كَانَ بَرْدٌ، وَكَانُوا يَصْطَلُونَ». وبينما اتجه بُطْرُس اليهم واندّس بينهم «وَاقِفًا مَعَهُمْ يَصْطَلِي» خارجاً في الساحة السّفلى من الدار، متناسياً قول الكتاب: «طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الأَشْرَارِ وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ وَفِي مَجْلِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لَمْ يَجْلِسْ». عاد يُوحَنَّا إلى الداخل إلى حيث يجتمع مجلس السنهدريم، ليتابع محاكمة المعلّم، تاركاً الشجاع وحده وسط الدار. وفي الدّار قيل ليُوحَنَّا: من أجل أن والدك صديق حميم لرئيس الكهنة، سُمح لك بالدخول، لكن إن أردت البقاء فعليك أن تتعهد بأن تبقى صامتاً. وإذ وافق يُوحَنَّا سُمح له بالبقاء وحضور الجلسة التي طالت إلى ما بعد الصباح.

بَيْنَ الْخُدَّام جلسَ بُطْرُس لِيَنْظُرَ النِّهَايَة، وحول النّار كان يَصْطَلِي وكأن الأمر لا يعنيه، وبتصرفه هذا حاول أن يُقنع مَن حوله أنه مجرد متفرج. كانت الأحاديث تدور بين الخدم والعبيد عما جرى معهم في البستان، تارة يدور الكلام عن المعلّم وتارة عن تلاميذه، وإذ ذُكرت قصة بُطْرُس الذي قطع أُذن مَلْخُس لم يبقَ روحٌ في بُطْرُس من شدة الخوف. كان بشتّى الطرق يحاول أن يُقنع من حوله إنه غير معني بما يجري. لكن الجارية البوَّابة التي فتحت له الباب اقتربت منه، وعلى ضوء قنديلها الخافت تفرّست في وجهه المذعور، وفي تساؤل غير واثق «قَالَتِ الْجَارِيَةُ

الْبَوَّابَةُ لِبُطْرُسَ: أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تلاَمِيذِ هَذَا الإِنْسَانِ». وإذ لم يجبها تابعت، «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ الْجَلِيلِيِّ!» بالفَرَاسة خمّنتْ، وأصابت الحقيقة.

فتح بُطْرُس خِزانة إيمانه فلم يجد حبّة الخردل. تلفّت حوله فتصور مَلْحُس بين الواقفين. أخذته الرعدة، وإذ حار في أمره أنكَرَ قُدَّامَ الجَمِيعِ قَائِلاً: «لَسْتُ أَدْرِي وَلاَ أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ!»، ثم تابع بارتباك، «لَسْتُ أَنَا»، وإذ رآها تتفرس فيه كأنها غير مصدقة لما يقول، صرخ بخوف: «لَسْتُ أَعْرِفُهُ يَا امْرَأَةُ!». ولو كان قد تذكر قول المعلّم للجنود: «فَإِنْ كُنتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هَؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ» لفارقه خوفه، لأن المعلّم ضَمِنَ نجاة أحبائه قبل أن يُسلّم نفسه. لكنّه من شدّة الخوف «خَرَجَ خَارِجاً إِلَى الدِّهْلِيزِ فَصَاحَ الدِّيكُ»، ولم ينتبه.

«ثُمَّ إِذْ خَرَجَ إِلَى الدِّهْلِيزِ رَأَتْهُ أُخْرَى فَقَالَتْ لِلَّذِينَ هُنَاكَ: وَهَذَا كَانَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ» فامتلأ قلبه بالخوف. وإذ نظرَ في عيون الَّذِينَ حوله رآها كالقناديل تضيء. وعلى ضوء المشاعل والشرر المتطاير بدت الوجوه ملوّنة ومرعبة كالذئاب، «فَأَنْكَرَ أَيْضاً بِقَسَمٍ: إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ الرَّجُلَ»، متناسياً قول الكتاب: «لا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ الهَكَ بَاطِلا لانَّ الرَّبَّ لا يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً»، ومتناسياً قوله: «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ».

«وَلَمَّا مَضَى نَحْوُ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَكَّدَ آخَرُ قَائِلاً: بِالْحَقِّ إِنَّ هَذَا أَيْضاً كَانَ مَعَهُ لأَنَّهُ جَلِيلِيٌّ أَيْضاً». ثمّ قال آخر: «وَأَنْتَ مِنْهُمْ». ثم قال الحاضرون وقد تجمهروا حوله: «أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تلاَمِيذِهِ».. «حَقّاً أَنْتَ أَيْضاً مِنْهُمْ فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ». ثمّ «قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَبِيدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَهُوَ نَسِيبُ الَّذِي قَطَعَ بُطْرُسُ أُذْنَهُ: أَمَا رَأَيْتُكَ أَنَا مَعَهُ فِي الْبُسْتَانِ».

تحت حصار الأسئلة امتلكه الرعب، وانحلّت خرز حقويه وامْتَلأَتْا وجعاً، وأخذه مَخَاضٌ كَمَخَاضِ الْوَالِدَةِ. تلوّى حتى لم يعد يَسمع، وانْدَهَشَ حتى لم يعد ينظُر.

أرادَ الهرب، لكنّ قدميه انحلّتا وركبتيه صارتا كالماء، «فَابْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ!»، «وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ». أمّا هو فمن شدة ارتباكه لم يسمع صياح الدِّيك.

مسكين بطرس الشجاع، ها هو يبدو مرتبكاً كالورقة في مهبّ الريح، لاعناً نفسه ويومه، يكرّر ما قاله، وليس من يسمع أو يصدّق. يهوذا باع المعلّم بثلاثين من الفضة وهو أنكره مجاناً. ومن يدري لو أذن المعلّم للشيطان أن يغربل يُوحَنَّا أيضاً أما كان قد أغرقه قبل صياح الدّيك مع بُطْرُس في ذات اليّم.

يا لبُطْرُس هذا. في لحظة يندفع ليمشي على الماء، وبعد أخرى يصرخ قائلاً: إني هلكتُ. بغير استئذان يقطع أذن مَلْخُسَ، وفي لمح البصر يهرب كالجبان. في برهة يندفع داخلاً بيت رئيس الكهنة، وبعد هنيهة يُنكر المعلّم أمام جارية. انه «يُشْبِهُ مَوْجاً مِنَ الْبَحْرِ تَخْبِطُهُ الرِّيحُ وَتَدْفَعُهُ»، «مُتَقَلْقِلٌ فِي جَمِيعِ طُرُقِهِ».

الفصل الثّاني عشر
لِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟

كانت القيود تذلّ المعلّم، وتصرفات الرعاع من حوله تكسر قلبه. أمّا هو إذ «أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ» مدّ يديه للقيود راضياً، فمن شرب الكأس المرّة في البستان سيُكمل إلى النهاية.

في دار قيَافَا، مع مطلع الصباح، غصّت القاعة بالجموع الَّذِينَ حبسوا أنفساهم أمام هذا اللقاء المصيري. وبينما كان قيَافَا يجلس على كرسيه في صدر القاعة، وكمٌّ من الشيوخ يحيطون به، كان المعلّم يقف مرهقاً في منتصف القاعة وقد التفّ حوله بعضٌ من جنود الهيكل، «فَسَأَلَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تلاَمِيذِهِ وَعَنْ تَعْلِيمِهِ»، فأجاب المعلّم وقد بدا عليه التعب: «لَمْ أَتَكَلَّمْ بِالْخِفَاءِ فِي مَكَانٍ مِنَ الأَرْضِ مُظْلِمٍ. لَمْ أَقُلْ لِنَسْلِ يَعْقُوبَ: بَاطِلاً اطْلُبُونِي».. «أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ عَلاَنِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِماً. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ. ٢١لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا؟ اِسْأَلِ الَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ. هُوَذَا هؤُلاَءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا». وكان يشير بيديه المقيدتين إلى الشيوخ والكتبة المحيطين برئيس الكهنة. وإذ لم يَرُق الجواب لِمَلْخُس عبد رئيس الكهنة تقدم منه وبعنف لطمه فأسقطه أرضاً، وهو يصرخ في وجه المعلّم: «أَهَكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ الْكَهَنَةِ؟».

وبينما السكون يخيّم على المكان، استجمع المعلّم قوته ونهض عن الأرض بتثاقل من الألم، وقد ازرقّت عينه من أثر اللكمة، وتبدَّدَ صمت القبور حين تحركت السلاسل بيديه. وبعد لحظات من الصّمت نظرَ المعلّم بروح العتب إلى مَلْخُس الذي شفى أذنه قبل وقت قصير وهو يحاول أن يوازن نفسه، ثمّ قال له: «إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ

رَدِيّاً فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيّ، وَإِنْ حَسَناً فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي؟». نظر مَلْخُس إليه وهو معتد بقوته، ثم ابتسم باحتقار، فهو كسيّده، لا يحترم القانون إلا حين يخدمه.

رفع أحد الشيوخ يده وقال مخاطباً رئيس الكهنة بصوت خافت: «مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هَذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً. إِنْ تَرَكْنَاهُ هَكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ». هزّ رئيس الكهنة رأسه ونظر إلى الشهود الَّذِينَ أحضروهم لمحاكمة البار في منتصف الليل، وبعضهم في ثياب نومه، وقال: أليس لديكم ما تقولونه؟

«كَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةَ زُورٍ عَلَى يَسُوعَ لِكَيْ يَقْتُلُوهُ» مُتمّينَ النبوة: «شُهُودُ زُورٍ يَقُومُونَ وَعَمَّا لَمْ أَعْلَمْ يَسْأَلُونَنِي».

قام أحد اللؤماء من الشهود وقال: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ، «إِنِّي أَنْقُضُ هَذَا الْهَيْكَلَ الْمَصْنُوعَ بِالأَيَادِي وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِي آخَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِأَيَادٍ». وانتظر الجميع جواب المعلّم فلم يجب بشيء، أما رئيس الكهنة فقد صر على شفتيه وقال، هذه الشهادة لا نفع منها، أريد غيرها.

تقدم شاهد آخر وقال: «هَذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللهِ لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». لقد شفى في يوم سبت رجلاً يدهُ يابسةٌ، وفتح عيني مولود أعمى في سبت آخر. وأيضاً لم يجب المعلّم بشيء. تضايق رئيس الكهنة لأنه أدرك أن هذه الشهادة أيضاً لا قيمة لها، فقال بغضب أريد شهادة أخرى. تقدم آخر وقال: «لَمْ يَنْقُضِ السَّبْتَ فَقَطْ بَلْ قَالَ أَيْضاً إِنَّ اللهَ أَبُوهُ مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللهِ». ثم تقدم آخر قائلاً: إن هذا يفسد الأمة بتعاليمه، وآخر قال: إنه يمنع أن تعطى جزية لقيصر. وآخر قال: يدّعي أنه ملك إسرائيل. وبعده تتالت الشهادات كَسُمِّ الأصلال مدعومة برفع الأيادي وخفضها، لكنها جميعاً لم تنفع.

كانت القاعة الباردة قد زُيّن سقفها بثريات من الفوانيس لونّت المكان بالأصفر القرميدي، فبدت الوجوه تلك الليلة كجثامين القبور. أما الغيمة السوداء فقد انتشرت في كل المكان حتى كاد الجميع يتحسسون حضورها.

تقدم رئيس الكهنة من المعلّم وهو يرتجف من شدة الغضب. وكان يُزعجهُ شعوره بأن الوقت يمضي مسرعاً وقضية المعلّم لم تنته. لم يكن يريد أن يفكر ولا لِلحظة واحدة بأن العيد سيأتي والمعلّم مازال على قيد الحياة. ضايقه خياله عندما صور له المعلّم ملكاً يجلس في الهيكل، وهو ومن معه من الكهنة مرفوضين من النَّاس، ولا مكان لهم بين شيوخ الأمة. صرّ على أسنانه، إنه يحتاج شهادة واحدة ثمينة لكي يحكم عليه بالموت، وإن كانت كل الشهادات لم تنفع، فلن يضيع الفرصة، وسيتكلم هو بطريقة يدفع فيها المعلّم ليقرّ بقول يمسكه عليه إن أمكن، ثم يُطلق حكمه الرهيب. كان هذا أسلوبه في المحاكمات وقد برع فيه، وإن كان قد نجح مع الآخرين فلماذا لا ينجح مع المعلّم.

بخطوات بطيئة وصل إلى المعلّم ونظر بتحد في عينيه، ثم قال: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هَؤُلاَءِ عَلَيْكَ؟». أطرق المعلّم برأسه إلى الأرض وهو عالم بمكيدة قيَافَا، وبقي «سَاكِتاً وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ».

تقدّم قيَافَا من المعلّم، وقد استجمع قوته ثم صرخ بوجهه، وقالَ لهُ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟». كان في قرارة نفسه يدرك أن المعلّم لن يُنكر، وإن صمت تهرباً، فصمته سيحسب موافقة على الكلام. كانت الثواني بمثابة الساعات بالنسبة للجميع، وبينما المعلّم مازال مُطرقاً رأسه إلى أسفل، أعاد عليه السؤال ثانية: «أَأَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ الْمُبَارَكِ؟». رفع المعلّم عينيه ونظر في عيني قيَافَا، فأرعبته النظرة، وقال بصوت عالٍ ليسمعه الجميع: « أَنَا هُوَ». ثمّ التفت إلى الجموع وبصوت عالٍ قال: «وَأَيْضاً أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِياً عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ». عندها هاج الجميع وبدأوا يصرخون كلّ واحد بطريقته ورفعوا أياديهم وقبضاتهم في الهواء مطالبين بحكم الموت.

ابتسم رئيس الكهنة وأدرك أن طريقته قد نجحت، والآن يستطيع أن يستريح لأن الوقت لم يهرب من بين يديه والمحكمة تسير نحو النهاية التي خطط لها. فلم يستطع

أن يمنع نفسه من الضحك معبّراً عن فرحةٍ لا توصف. ثم فجأة تغيرت هيئته وكأنه قد أصابه مسٌّ من الجنون فصرخ مثل الحاضرين وهو يمزق ثيابه ويقول منهيا القضية ومصدراً حُكم الموت على البار: «قَدْ جَدَّفَ! مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ هَا قَدْ سَمِعْتُمْ تَجْدِيفَهُ! ٦٦مَاذَا تَرَوْنَ؟». فازداد الضجيج وازداد الصراخ حتى بدت القاعة وكأنها مسرح للمجانين، فيها الكل يصرخ ويقول: «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ».

نظر رئيس الكهنة إلى مَلْخُس، وهز برأسه معطيا إياه إشارة البدء. ابتسم مَلْخُس، وتقدم من المعلّم وبصق في وجهه، وبعده تقدم بقية العبيد وبصقوا هم أيضا في وجهه، ثم تقدم بعض خدّام الهيكل وسط الصياح والهياج من المعلّم، وغطّوا «وَجْهِهِ وَلَكَمُوهُ وَآخَرُونَ لَطَمُوهُ قَائِلِينَ: تَنَبَّأْ لَنَا أَيُّهَا الْمَسِيحُ مَنْ ضَرَبَكَ؟». وبينما هم يضحكون ويستهزئون بالمعلّم، تقدم خدّام آخرون معهم سياطٌ أعدّت للجلد، وبدأوا يجلدونه. «وَأَشْيَاءَ أُخَرَ كَثِيرَةً كَانُوا يَقُولُونَ عَلَيْهِ مُجَدِّفِينَ». كانوا يدفعون المعلّم يمينا ويساراً، تارةً يوقعونه، وتارةً ينهضون به، تصرفوا معه مثل الوحوش، بل مثل الذئاب التي لا تشفق على صيدها. كان بين أيديهم تسليةً بعد طول انتظار. أمّا هو فلم يفتح فاه بكلمةٍ كنعجةٍ صامتةٍ أمام جازيها.

هل هذه قاعة محكمة؟ أم قاعة مجانين. المفترض أنها قاعة محكمة لإعطاء كلّ ذي حقّ حقه. حتى ولو كان مجرماً فينبغي أن يساق إلى السجن ليأخذ عقوبته، لكن أن يُضرب ويهان المتهم بهذه الطريقة ومن قِبلِ رجال دينٍ قد أُمروا بإجراء العدل والحق، فهذا أمر لا يحتمل.

كان لقَيَافَا الامتياز الأوّل، منذ قامت للكهنوت رئاسة أن يتعرف على المسيّا ويقدّمه للعالم. لكنّه خيب آمال الآباء جميعاً، وكذلك الأنبياء الَّذِينَ أعطوه الرموز ليَعرِف المرموز إليه في ملء الزمان، فَلَبِسَ «اللَّعْنَةَ مِثْلَ ثَوْبِهِ فَدَخَلَتْ كَمِيَاهٍ فِي حَشَاهُ وَكَزَيْتٍ فِي عِظَامِهِ».

ارتجفت واقشعرت ملائكة السماء من المشهد. ارتفع هتافها عالياً ضد أدنياء يبصقون في وجه المحبوب. ثمّ سجلوا بالتفصيل والأمانة «جَمِيعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمُ الَّتِي فَجَرُوا بِهَا، وَ...جَمِيعِ الْكَلِمَاتِ الصَّعْبَةِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا عَلَيْهِ خُطَاةٌ فُجَّارٌ» في سجل أعمالهم الرهيب.

«وَإِذَا رَجُلٌ اسْمُهُ يُوسُفُ وَكَانَ مُشِيراً وَرَجُلاً صَالِحاً بَارّاً هَذَا لَمْ يَكُنْ مُوافِقاً لِرَأْيِهِمْ وَعَمَلِهِمْ وَهُوَ مِنَ الرَّامَةِ مَدِينَةٍ لِلْيَهُودِ» قال صارخاً بصوت عالٍ موجها كلامه لقَيَافَا: هل يحتاج نجار بسيط من الناصرة يدَّعي انه ابن المبارك إلى محكمة ليليّة للحكم عليه بالتجديف؟

لكن صوت الرعاع كان أقوى، فأسكتوه. وعندها نادى قيَافَا معلناً رفع الجلسة إلى أن يحين الوقت ليُعرض يسوع على الوالي بيلاطُس، فغادر الشيوخ والكهنة القاعة إلى قاعة أخرى، ليأخذوا استراحة، ثمّ يتشاوروا كيف ينتهون من الأمر. أمّا المعلّم فبقي بين الرعاع يستهزئون به، ويجدفون عليه، ويتفلون في وجهه.

رئيس الكهنة، حارس مفوّض لضمير الأمّة. مُفرز من النَّاس لتفسير أحكام العلي، وعزل التبن عن الحنطة. لكنّه اليوم بارك التبن، وأدان الحنطة، وقال للرعاع بغباء: مسيح الله مُدان. استجوب مسيح الله كمتهم مدان، وطلب منه أن ينطق بما يجرّمه، ليجعل قتله عملاً قانونياً. إنه عار سُجّل في تاريخ قضاء هذا الشعب. وإن حاولوا طمسه كعادتهم، لكنّه لن يُمحى من سجل قضاء السّماء، بل سيكون شاهدا على دينونتهم كل الأبدية.

هذا هو الشعب الذي أحبه الرب من بين سائر الشعوب، واختصَّه لنفسه، وهذا هو بُطْرُس الشجاع وَيَهُوذَا الخائن والتلاميذ الجبناء الَّذِينَ خذلوا المعلّم في ساعة آلامه.

أمام هذا المشهد أتوقف متعجباً من محبة المعلّم التي تشبه نهراً متدفقاً حيثما حلّت مياهه أثمرت معطية الحياة. يا له من معلّم محبٍّ حتى الموت، لا يوقف محبته بغض أعدائه، أو نكران أحبائه.

الفصل الثّالث عشر
إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْت

كان المفترض أن يستريحوا قليلاً بعد السهر الطويل، لكن قيَافَا قرر أن الوقت ليس في مصلحتهم، ولا بد من إنهاء ما بدأه، فما هي إلا استراحة قصيرة في القاعة المجاورة حتى أرسل مع مطلع النهار رسالة إلى رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب بيد مَلْخُس يدعوهم إلى اجتماع طارئ. «وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ تَشَاوَرَ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخُ الشَّعْبِ عَلَى يَسُوعَ حَتَّى يَقْتُلُوهُ». إنها محكمة أُقيمت على عجل، قضاتها رؤساء ظالمون، جلسوا على الكراسي ليدينوا البار. «هَا إِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ اجْتِمَاعاً لَيْسَ مِنْ عِنْدِي» يقول الرب.

أخرجوا المعلّم من قاعة المحكمة على عجلٍ وساروا به إلى القاعة غير المسقوفة، ثمّ إلى الدهليز وهناك أوقفوه عند الباب يحرسه خدّام الهيكل وبعض الجنود. أمّا القاعة، حيث فيها يجتمع المجلس برئيسه قيَافَا، وبينهم يُوحَنَّا المغلوب على أمره، فأُغلقَ بابها ليأخذ كل واحد مكانه.

في الدهليز التقى بُطْرُس مع المعلّم وجهاً لوجه، التقاه موثقاً، مذلولاً، ومن شدة المعاناة بالكاد يقف على قدميه. نظر إليه كأنه ينظر شبحاً، لم يعرف ماذا يقول، أو ماذا يفعل. أراد أن يتكلم، اختنقت الكلمات في فمه. أراد أن يتقدم إلى المعلّم ويمسك بيده، تسمرت قدماه في مكانهما. كان شارد الذهن، وعيناه مفتوحتان تنم عن فوضى في عقله. فجأة سُمع صياح الديك، وكمن استفاق من حلمه، «تَذَكَّرَ بُطْرُسُ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ: إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ» شعر أن الأرض تميد به، وأنه لم يعد قادراً على تمالك نفسه.

وأدرك للحظات أنه جبان لا يستحق الحياة. وأنه خان معلّمه، خيانة لا تُغتفر. فتوجه إلى باب الدار والدموع لا تفارق وجنتيه، وإذ فتح الباب، «خَرَجَ إِلَى خَارِجٍ وَبَكَى بُكَاءً مُرًّا». كانت هذه الثواني من أصعب اللحظات في حياة بُطْرُس، ولا يُعرف أنه بكى في كل حياته كما بكى هذه المرّة.

توجه بُطْرُس إلى الباب وانسل منه راكضاً بسرعة إلى بيت مريم، أخت بَرْنَابَا اللاوي القبرصي الجنس. وكان بيتها من الاتساع ليجتمع فيه الكثيرون، وكانت مريَم أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، ذات ثراء وشخصية بارزة في أورشليم. فلما وصل بُطْرُس، قَرَع الباب الخارجي، فجاءت خادمة اسمها رَوْدَا لتتسمّع. فلمّا عرفت صوت بُطْرُس فتحت الباب، وأسرعت إلى داخل البيت لتخبر يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، الذي كان شابا طريّاً لم يشتد عوده بعد، وتخبر أمّه، بأن بُطْرُسَ بالباب. فدخل بُطْرُس وقصّ عليهم كلّ ما حصل بالأمانة. ومع أنه أنكر المعلّم وظهرَ جباناً أمام الخدّام، لكنه الآن ظهر رجلاً شجاعاً يبحث بصدق عن مخرج لأزمته مع المعلّم. فقالوا له: امكث معنا لنرى ماذا سنفعل، وكيف ستنتهي الأمور. أنت هنا بأمان.

في القاعة حيث يجتمع المجلس، وحيث كانت الغيمة السوداء ترّف على الحضور، رفع قيَافَا يده وهو جالس في مكانه، فساد الصمت المكان. أصلح من جلسته، وأراد أن يتكلم، لكنه قرر أن يقف ويتكلم، كان التوتر بادياً على محيّاه. تقدم إلى المنتصف، بثيابه الممزقة، وضرب الأرض بعصاه ثم قال: أيها الرجال الإخوة، نحن أمام قضية تمسّ الأمة بأكملها. هناك رجلٌ دجال مهرطق، يدّعي أنه ابن الله، استخدم علاقته مع بَعْلَزَبُولَ رَئِيسِ الشَّيَاطِينِ لصنع بعض العجائب التي بها أضلَّ النَّاس، وبهذه الطريقة كان يستميل النَّاس أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ بِخِلاَفِ النَّامُوس، فتبعوه وأرادوا أن ينصّبوه ملكاً، «وَلَكِنَّ هَذَا الشَّعْبَ الَّذِي لاَ يَفْهَمُ النَّامُوسَ هُوَ مَلْعُونٌ».. لذلك من جهلهم تبعوه وأرادوا أن ينصّبوه ملكاً. ولو حدث لضاعت الأمة بأكملها، وضاع هيكلنا، وناموسنا العظيم. فصرخ الجميع أكثر من مرة: «هَذَا الشَّعْبَ الَّذِي لاَ يَفْهَمُ النَّامُوسَ هُوَ مَلْعُونٌ».

رفع قيَافَا يده ثانيةً فساد الصمت، ثم ضرب بعصاه على الأرض وقال: هذا المهرطق ينبغي أن يموت. ماذا ترَوْنَ؟ فأجابُوا وكأنه قد أصابهم مسٌّ: «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْت».. «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْت».

من جديد رفع قيَافَا يده وتابع يقول: إن إجماعكم يؤكد أن أمتنا بخير، ومجمعنا باقٍ. أيها الرجال الإخوة، اليوم هو الجمعة يوم عيد، ولا يمكن لنا أن نأمر بقتل أحدٍ لأسباب كثيرة. فمن جهةٍ، لا نريد أن ندنّس العيد بموت أحد، ولا نريد أن يتنجّس أحد بقتل مهرطق لأن طقوس التطهير ستمنعه من حضور العيد. ومن جهة أخرى لا يمكن لنا أن ننفذ الحكم، بل لابد من موافقة الوالي بيلاطُس، هذا ما اتفقنا عليه مع القيصر. وبما أننا لا يمكن أن نسمح ببقاء هذا المهرطق حياً، فيجب أن نجد طريقة لموته، طريقة، تجعل الشعب الذي تبعه يدرك أنه ملعون من الله فينفضّوا عنه.

ساد الصمت المكان، ونظر كل واحدٍ إلى الآخر، وقال بعضهم: تُرى إلى ماذا يرمي حَبرُ الأمة، ما هي خطته؟ ولم يطل الوقت حتى تابع قيَافَا قائلاً: يُعلّمنا الناموس: «إِذَا كَانَ عَلى إِنْسَانٍ خَطِيَّةٌ حَقُّهَا المَوْتُ فَقُتِل وَعَلَقْتَهُ عَلى خَشَبَةٍ ٢٣ فَلا تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلى الخَشَبَةِ بَل تَدْفِنُهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ لأَنَّ المُعَلقَ مَلعُونٌ مِنَ اللهِ».

أيها الرجال الإخوة، اليوم بيلاطُس الوالي سيقدم ثلاثة لصوص للموت صلباً، وليكن هذا المهرطق، رابعهم. وسأعمل جاهداً ليوافق بيلاطُس على تنفيذ الحُكم فيه، وأنتم ستكونون عوناً لي.

يجب أن يموت يسوع في العيد، وأن يموت مصلوباً لأن هذا الشعب الذي تبع يسوع يجب أن يقتنع أن يسوع كان ملعوناً من الله وليس مباركاً، حيث كلمة الرب تقول، ملعونٌ كل من عُلّق على خشبة. ولأننا لا نملك صلاحية تنفيذ الحكم فلينفذه الوالي بيلاطُس نيابة عنا. وإن أطلق لنا أحد اللصوص، أو أراد استبداله كعادته، فليكن يسوع بديل لص يُطلق سراحه. وهكذا نخرج نحن من الموضوع، وقد حققنا غايتنا بإقناع النَّاس أن يسوع ملعون من الله، دون أن ندنّس العيد، أو يتنجّس أحدنا.

وما أن انتهى من فكرته الشيطانية هذه حتى ضجّت القاعة بالتصفيق، دليل موافقتهم على تنفيذ كل ما قيل، وإعجاباً بدهاء حَبر الأمة العظيم.

وإذ صار هدوء في القاعة، وقف نِيقُودِيمُوس الشيخ الجليل طالباً الحديث، فأعطاه قيَافَا الإذن بالكلام. فقال: أيها الرجال الأخوة، إن محاكمة يسوع ليلاً قبل طلوع الصباح، محاكمة باطلة. لا توجد محكمة ليلية، ولم نسمع عن محكمة ليلية، لا عند الرومان الَّذِينَ اشتهروا بنزاهة قضائهم، ولا عندنا نحن الَّذِينَ نعمل بخوف الله. فلنطلق سراحه ونحاكمه في يوم آخر كما نحاكم الجميع.

كانت الغيمة فوق الجميع وإذ بها تتجمع فوق نِيقُودِيمُوس الذي شعر بثقلها فملأ الخوف قلبه، ليستدرك نفسه. وبعد قليل صمت قال معدلاً من كلامه بصوت خافت مضطربٍ: أو.. فلنعد محاكمة يسوع.

صرخت الجموع طالبة من نِيقُودِيمُوس أن يَسكت، فجلس في مكانه ولم ينبس بشفة. أمّا قيَافَا فرفع يده وقال بخبثٍ، وبصوت هادئ، مفاجئاً الجميع: ما يقوله أخونا نِيقُودِيمُوس حق، ينبغي أن تعاد محاكمة هذا المهرطق، فمحكمة ليلية لا قيمة لها.

ساد الهدوء المكان، وللحظات ظن الجميع أن قيَافَا يتكلم مازحاً. أمّا نِيقُودِيمُوس فاستجمع شجاعته ووقف ثانية وقال بصوت عالٍ: «أَلَعَلَّ نَامُوسَنَا يَدِينُ إِنْسَاناً لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلاً وَيَعْرِفْ مَاذَا فَعَلَ؟».. ثمّ ألا تقول كتبنا أنه لا يجوز تنفيذ أيُّ نوع من الأحكام ليلة السبت، أو ليلة العيد، وها هو العيد قادم.

أجاب قيَافَا بخبثٍ: أنت محق يا أخي، سنعيد المحاكمة. أما من جهة تنفيذ الأحكام ليلة العيد، فاعلم يا أخي أن للضرورة أحكام. ألا تذكر ما عمل داود عندما جاع هو ورجاله؟ كيف دخل بيت الله وأخذ خبز التقدمة وأكل منه، وأعطى مرافقيه، مع أن الأكل من هذا الخبز لا يحل إلا للكهنة وحدهم؟

لم يعرف نِيقُودِيمُوس بماذا يجيب، فبقي ساكتاً. عندها أرسل قيَافَا وراء المعلّم وسط استغراب الجميع، فأتوا به من الدهليز، وفكوا وثاقه، «وَأَصْعَدُوهُ إِلَى مَجْمَعِهِمْ

قَائِلِينَ: إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا». أدرك المسيح خبثهم، ولأن الأمور مقضية والساعة أزفت قال لَهُمْ: «إِنْ قُلْتُ لَكُمْ لاَ تُصَدِّقُونَ، ٦٨وَإِنْ سَأَلْتُ لاَ تُجِيبُونَنِي وَلاَ تُطْلِقُونَنِي. ٦٩مُنْذُ الآنَ يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ قُوَّةِ اللهِ».

فضجّت القاعة من جديد، وقالَ الْجَمِيعُ: «أَفَأَنْتَ ابْنُ اللهِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا هُوَ. فَقَالُوا: مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شَهَادَةٍ؟ لأَنَّنَا نَحْنُ سَمِعْنَا مِنْ فَمِهِ».

توجه قيَافَا نحو نِيقُودِيمُوس، وقال له: ها نحن قد فعلنا ما أوصيت به، محكمة نهارية، لم تختلف فيها أقوال هذا المهرطق عمّا قاله في المساء، ولم يختلف إجماع الإخوة الآن عن إجماعهم في المساء. ثم أشار لمَلْخُس، «فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بيلاطُس». وكان هذا مع الفجر (مطلع الصباح)، وكان بيلاطُس في ذلك اليوم من كل عام لا ينام، فيوم العيد هو أكثر الأيام التي تحدث فيها المشاكل والاضطرابات.

يا لهم من حمقى، أوثقوا يديه فحرموا أنفسهم من خيراتها وعطائها. من الآن فصاعداً من سيطعم الجياع فيهم، من سيشفي مرضاهم، من سيطهّر البرص فيهم، من سيُخرج الشياطين من أبنائهم. صدق الكتاب إذ قال عنهم، «أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم».

أما يُوحَنَّا فخرج على عجَلٍ إلى بيتِ مريَم أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، وهناك وجد الجميع مجتمعين، ومعهم مَرْيَم أم يسوع، ونسوة كثيرات كن قد تبعن يسوع، كمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَيُوسِي، وزوجة كِلُوبَا. فقصّ عليهم باختصار كل ما جرى وأخبرهم في النهاية أنهم سيصلبون المعلّم!

سيطرَ الخوف عليهم جميعاً، وقرروا البقاء في المنزل، لكن بعضاً منهم قرر أن يمضي إلى قلعة أنطونيا –دار الولاية– حيث من هناك سيُصدر الوالي بيلاطُس الْبُنْطِيّ، الحُكم على المعلّم.

الفصل الرّابع عشر
أمامَ بيلاطُس الْبُنْطِيِّ (بُنطيوس بيلاطُس)

خرج الموكب من دار رئيس الكهنة قيَافَا، وتوجه شمالاً باتجاه قصر هِيرُودُس، ثم انعطف شرقاً باتجاه الهيكل، ثم انعطف شمالاً حتى وصل إلى قلعة انطونيا التي تقع في الركن الشمالي الغربي من الهيكل، وفيها يقيم الوالي بيلاطُس الْبُنْطِيِّ.

كان المشهد غريباً، غيمة سوداء تظلل المئات من الرعاع والهمج بقيادة مجلس السنهدريم، ورئيس الكهنة، وهم يسيرون في الشوارع والأزقة الضيقة لمدينة أُورُشَلِيم باتجاه دار الولاية فجراً، حيث الوالي بيلاطُس صاحب الأمر، ليسلّموه المعلّم، ويطلبوا منه أن يحكم عليه بالموت صلباً.

في الشوارع الضيقة كانت النوافذ تُفتح بخوف على صوت الضجيج لمعرفة ماذا يحدث؟ بينما بعض البيوت التي فُتحت أبوابها، سرعان ما أغلقها أصحابها خوفاً من حادث مفتعل قد يودي بحياتهم. وبقدر ما كانت الأصوات في الطرقات مرتفعة، كانت الأصوات على أسطح المنازل مرتفعة، حيث الجيران يصرخون ويلوحون بأيديهم مستفسرين عن سبب إيقاظهم المفاجئ عند الفجر، ومتسائلين عن مصير المعلّم الذي اقتاده الرعاع وهو في رأس الموكب.

لماذا هذا الموكب الكبير جداً؟ بما أنكم حكمتم على المعلّم بالموت، فليأخذه اثنان أو ثلاثة من الحراس إلى بيلاطُس، لماذا هذه المظاهرة الكبيرة، وهذا الإزعاج في يوم عيد. ويوم العيد هو يوم للرّب. وانتم يا للعجب، في هذا اليوم تهتفون ليس بما يمجد الله، لكن بقتل مسيح الله.

كان الموكب كبيراً جداً، الغاية منه إقناع بيلاطُس بالإسراع في إصدار حكم الموت على المعلّم باعتباره فاعل شر. ولو لم يفعلوا ذلك ربما كان بيلاطُس قد استهان بالأمر، ورفض محاكمة المعلّم، بل وأطلق سراحه دون أن يقيم لهم أي اعتبار. أو كان سيجيبهم في أحسن الأحوال: ضعوه في السجن وبعد العيد أنظر بأمره.

كم هو غريب حقاً أن يُقتاد المتهم بهذه الطريقة وسط أناس همج، وهم يصرخون في الشوارع طالبين موته قبل صدور حُكم الوالي عليه.

لمّا وصل الموكب إلى قلعة انطونيا –دار الولاية– استغرب الجنود هذا المشهد. مئات من الرعاع الهمج يتطاير الغبار تحت أقدامهم، وهم يصرخون: الموت ليسوع، ليُصلب يسوع. وفي جنونهم يقودون شخصاً وحيداً أعزلاً قد صار بين أيديهم كالعصافة التي تذريها الريح.

صرخ الجنود بهم: ماذا تريدون؟ لماذا كل هذا الضجيج؟ هل أنتم قادمون لشرٍّ، أو انتقام، أو لأمر آخر؟

في البداية لم يتبين الجنود ما الذي يحصل، إذ كانت المفاجأة كبيرة عليهم رغم استعدادهم.

أجاب قائد جند الهيكل: نريد أن نقابل الوالي. فقيل له: ليدخل رئيس الكهنة، وبعض الكهنة لمقابلة الوالي، واصرفوا بقية الجموع، ولا داعي لكل هذا الهياج والصياح. أجاب أحد الكهنة: نحن لم نأت لنقابل الوالي داخل الولاية بل خارج الولاية.

استغرب الجنود القول فأجابوا: أنتم تريدون مقابلة الوالي، أنتم محتاجون للوالي، فلماذا يخرج هو إليكم، أليس منطقياً أن تدخلوا انتم إليه. أجاب أحد الكهنة بفجور: لا نستطيع أن ندخل دار الولاية لكي لا نتنجّس، لأن الدار هي دار للأمم. وبما أن اليوم هو يوم الجمعة، وهو عيد الفصح والفطير، فإن تنجسنا لن نستطيع أن نأكل الفصح. «وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ لِكَيْ لاَ يَتَنَجَّسُوا فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ».

يا لكم من مجرمين، دخول دارِ شخصٍ أممي يُنجّس، أمّا قتل البار فلا ينجّس. إن كان الله قد قال لِقَايِين: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ»، فماذا سيقول لكم أيها المعتوهين، عن دم المسيح الذي هدرتموه.

جاء قائد المئة على عجل يحيط به أربعة من الجنود الأشداء، وإذ نزل درج القلعة فاجأه المشهد. تقدم بسرعة نحو الموكب فساد الصمت في المكان. اقترب من رئيس الكهنة قيَافَا وقال له: هل للخير جئت؟

أجاب قيَافَا: إنها قضية تخص أمتنا، ونريد من الوالي (بُنطيوس بيلاطُس) أن يساعدنا في إنهائها! أجاب القائد: أيّة قضية؟ نظر قيَافَا في عيني القائد وقال وهو يشير إلى المعلّم المقيّد بالسلاسل: هذا الرجل الدجال.. يسوع... يهدد أمتنا بالخراب، ومثله لا ينبغي أن يعيش!

تقدم قائد المئة من المعلّم ونظر إليه وهو مثقل بالسلاسل. ثم وقف مقابله ورفع ذقنه لينظر في عينيه، ويتأكد من هُويّته، إذ لديه الكثير من الخبرة في التعامل مع المجرمين.

التقت العيون، تفرس قائد المئة في عيني المعلّم، ثم دار حوله، وعاد إلى مواجهته ثانية. كانت أثار الكدمات واضحة على وجهه، والإرهاق والتعب يسيطران على جسده. أدرك القائد بحدسه أن هذا الرجل ليس من القتلة والمجرمين الَّذِينَ يهددون حياة النَّاس والشعوب. تراجع للخلف عائداً إلى قيَافَا وجبينه مقطباً ليقول له: أي شر عمل هذا الإنسان؟ أجاب قيَافَا: لا وقت لدينا للشرح، العيد على الأبواب والوقت ضيق، نريد مقابلة بُنطيوس بيلاطُس. أجاب القائد: حسناً ادخل إليه إنه في القاعة. واصرف هؤلاء من هنا، لا نريد شغباً في العيد.

بل ادخل إليه وأخبره أننا بانتظاره. كان جواب قيَافَا صارماً. فأدرك قائد المئة بحدسه أن الأمر خطير جداً ولا يمكن لأحد إنهائه سوى الوالي. زمّ شفتيه واستدار باتجاه القلعة، ودخل مسرعاً لمقابلة بيلاطُس.

دخل قائد المئة إلى بيلاطُس الوالي على عَجلٍ، وأخبره بكل ما جرى، وأضاف، إن لم تخرج إليهم قد يحدث شغبٌ في العيد. وإن وصلت الأخبار للقيصر قد تخسر مُلكك.

سأل بيلاطُس قائد المئة بهدوء وهو جالس على كرسيّه، وقد وضعَ يده على رأسه: ماذا يريدون مني؟ أجابه: يريدون أن تحكم بالموت على شخص يُدعى يسوع. سأله: هل هو محارب؟ هل لديه محاربين؟ هل هناك جريمة قَتل؟ أجابه: لا أعلم.

وقف بيلاطُس على قدميه وهو يترنح لأن قدمه قد اخدرّت من كثرة الجلوس. وإذ ارتاحت قدمه حركها يمينا ويساراً، ثم عدل من وقفته وتوجه إلى قائد المئة وقال له: في كلّ عامٍ هؤلاء اليهود يسببون لنا مشكلة في عيد الفصح، ورغم أننا نحاول استرضاءهم لكن يبدو أنه لا فائدة.

وضع يده على كتف قائد المئة وتابع حديثه، ما الذي يجري أيها القائد؟ ومن هو يسوع هذا؟

التفت قائد المئة لجنوده قائلاً: هل بينكم من يعرف يسوع هذا؟ أجاب أحدهم: نعم سيدي. ثم اقترب من الوالي وقال: يسوع هو شخص يهودي فقير، كان يعمل نجاراً، أمه تدعى مريم، وعلى ما يُظن أبوه يدعى يوسف النجّار، عمّده يُوحَنَّا في نهر الأردن، وقال فيه كلاماً كثيراً، وبعض مما قاله، إن المسيح أعظم مني، وقال عن نفسه، إنه غير أهل ليحل سيور حذاء يسوع، وقال عنه: إنه حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم، كلام يخص دينهم وعقيدتهم. قاطعه بيلاطُس بالقول: هل تقصد يُوحَنَّا الذي قطع رأسه الوالي هِيرُودُس في حفلة عيد ميلاده. أجاب الجندي: نعم سيدي. ثمّ تابع قائلاً: وقد سمعنا عنه إنه يصنع المعجزات بكثرة، وقد رأيت بعضها. ثمّ صمت قليلاً وتابع يقول: سيّدي، في كفر ناحوم كان يوجد عَبْدٌ لِقَائِدِ مِئَةٍ مريضاً مُشرفاً على الموتِ، وهو عَزِيز عِندَهُ، هذا شفاه يسوع. هذه القصة

سمعتها من قائد المئة شخصياً. ثم تابع يقول: أما القصة الأغرب سيدي فقد جرت في بيت عنيا منذ مدة قريبة.. لا أعرف إن كنت ستصدق الأمر! اقترب منه بيلاطُس قائلاً: أية قصة أيها الجندي؟ تابع الجندي قائلاً: إنها قصة قيامة لعازر من بين الأموات بعد أربعة أيام من دفنه. ضحك بيلاطُس وقال: وهل تصدق مثل هذه القصة أيها الجندي؟ هؤلاء اليهود لديهم الكثير من الخرافات والقصص المرتبطة بملائكة وشياطين، دعك منهم لئلا يصيبك مس من الجنون. ثم تابع قائلاً، وماذا تعرف عن صانع المعجزات هذا أيضاً. أجاب الجندي: نعم سيدي، لديه اثني عشرَ تلميذاً يتجولون معه، جلّهم من الفقراء. وسمعنا إن «يُوَنَّا امْرَأَةُ خُوزِي وَكِيلِ هِيرُودُسَ وَسُوسَنَّةُ وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ كُنَّ يَخْدِمْنَهُ مِنْ أَمْوَالِهِنَّ».

قاطعه بيلاطُس بالقول: قُلتَ يُوَنَّا امْرَأَةُ خُوزِي. إنها تتردد على زوجتي منذ فترة. لعلّها كلّمتها عن يسوع هذا. ثمّ نظرَ إلى قائد المئة وقال: أيها القائد، أنا لم أنم منذ ليلة أمس. رأسي لا يحتمل كل هذه المعلومات. ثم التفت ثانية إلى الجندي وقال: أخبرني باختصار عن أمور تهمّني. هل هو محارب؟ هل أتباعه يجيدون استخدام السيوف؟

أجاب الجندي: كلا سيدي. فهز قائد المئة رأسه علامة الموافقة. ثم تابع الجندي: إنه لم يرفع سيفا بوجه أحد، ولم يحمل سيفاً، ولا أتباعه يجيدون استخدام السيوف، كلهم بسطاء. ولم نسمع أبداً إنه اعتدى على أحد أو دخل معه في مشاجرة.

تجول بيلاطُس في القاعة قليلاً ثم التفت إلى القائد وبغضب قال: إذا ما هي قصة هؤلاء الكهنة، ولماذا يطلبون قتل يسوع.

أجاب أحد الحرس، لو سمحت لي سيّدي أن أتكلم. أشار بيلاطُس بيده فتكلّم الحارس: سمعت الكثير عن يسوع، وسمعت الكثير عن خلافاته مع رجال الدين وعلماء الشريعة، إنهم يبغضونه ويحسدونه وفي كل حوار معهم يهربون منه بخزي الوجوه. وفي إحدى المرات سألوه بمكر، « أَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نُعْطِيَ جِزْيَةً لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟»

فأدرك مكرهم، وقال لهم: أروني ديناراً، ثم أخذ الدينار وسألهم: لمن الصورة والنقش عليه؟ فأجابوا: «للقيصر!» فقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا إِذاً مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ». فتَعَجَّبُوا مِنْ جَوَابِهِ وَسَكَتُوا ومضوا بخجل أمام الشعب.

هزّ بيلاطُس رأسه وقال بإعجابٍ: حقاً قد سمعت هذا القول وأعجبت به، وقد ظننت انه لأحد حكمائنا أو سياسيينا.. تابع أيها الجندي.

نعم سيدي. قال الجندي. وتابع من حيث توقف: إنهم يحسدونه ويهابونه، فهو يعرف كُتبهم أكثر منهم. وأيضاً، هو شخص متواضع، وهم مملوئين كبرياء، ويكرهون فيه تواضعه الذي يكشف كبرياءهم ورياءهم. ولديهم الخشية من خسارة نفوذهم إن تبعه النَّاس.

قاطعه بيلاطُس بالقول: هم.. من أجل ذلك يريدون التخلص منه.. «فَخَرَجَ بيلاطُس إِلَيْهِمْ» من دار الولاية، ومعه قائد المئة وبعض الجند، فوجد جمعاً غفيراً يقودهم رئيس الكهنة قَيَافَا، قد أصابتهم حمى وهم يهتفون بموت يسوع. وإذ رأته الجموع توقفت عن الصياح.

سألهم بيلاطُس وهو يتنهد بانزعاج ويشير بيده ليسوع: «أَيَّةَ شِكَايَةٍ تُقَدِّمُونَ عَلَى هَذَا الإِنْسَانِ؟».

أدرك الخبيث قَيَافَا ومن معه إن السؤال فيه فخاً. فالطريقة لتقديم شكاية لا تتم بهذا الشكل الذي فيه يُضرب المتهم في الشارع بهذا العنف، ويُقتاد رغماً عنه إلى دار الولاية. هذا يعرضهم للمساءلة القانونية. وأدرك أيضاً أن تقديم الشكوى على شخص يعني أن يحوَّل هذا الشخص إلى المحكمة، وهذا ما لا يريدونه.

إذن بيلاطُس يريد تحويل يسوع للمحاكمة، ويريد أيضا محاكمتهم. يا لها من ورطة؟ لو تمّ تحويل يسوع للمحاكمة فمعناه أن قضية يسوع ينبغي تأجيلها لما بعد العيد. ومن يدري بعد سبعة أيام أو أكثر ماذا سيحدث! ويا تُرى هل بإمكانهم أن يمسكوا يسوع ثانية!

لذلك حسم قيَافَا أمره وتكلم هامساً في أذني من معه قبل أن تنقلب الأمور عليهم. فنظروا إلى بيلاطُس الذي لا يقلّ دهاءً عن قيَافَا، وأَجابوا: «لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلَ شَرٍّ لَمَا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَاهُ إِلَيْكَ». ثمّ قال أحد الكهنة: كنا نتوقع منك أن تثني علينا لما نقوم به من دور إيجابي في حماية المجتمع، ومساعدة رجالك في ضبط الأمن.

غريب تصرف هؤلاء الكهنة. أيها الكهنة المرائين ما هو دوركم في الحياة؟ هل أنتم تُعلّمون الشريعة، وتحفظون القوانين، وتعبدون الله. أم أنتم رجال شرطة تعتقلون النَّاس، وتطالبون الوالي بإصدار الأحكام حسبما يتفق مع مزاجكم. وإن كنتم رجال شرطة فماذا تفعل شرطة الوالي، وكيف قدرتم أن تعرفوا إن هذا الرجل فاعل شر! وبحسب أي قانون تحكمون. رغم أن شرطة الوالي على عظمتها لم تعرف ولم تسمع أبداً عن يسوع أنه فاعل شر.

ولكي يضغطوا على الوالي حتى يستجيب لهم ويمتنع عن إجراء محاكمة يسوع ويقبل حكمهم، «ابْتَدَأُوا يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: إِنَّنَا وَجَدْنَا هَذَا يُفْسِدُ الأُمَّةَ وَيَمْنَعُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ قَائِلاً: إِنَّهُ هُوَ مَسِيحٌ مَلِكٌ». وهكذا أَقْوَالُ «الأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُقْرَأُ كُلَّ سَبْتٍ تَمَّمُوهَا إِذْ حَكَمُوا عَلَيْهِ. وَمَعْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا عِلَّةً وَاحِدَةً لِلْمَوْتِ طَلَبُوا مِنْ بيلاطُس أَنْ يُقْتَلَ».

عجباً، هم لم يحاكموا يسوع لأجل أي واحدة من هذه الشكايات، ويعرفون أنها كلها شهادات زور قد ثبت بطلانها. فلماذا إذن يكذبون على الوالي وهم رجال دين، وفي يوم مقدّس هو يوم عيد للرب.

إن كنتم في هذا اليوم تكذبون وتقتلون ففي بقية الأيام ماذا تفعلون!

كان ينبغي أن يقولوا للوالي التهمة الحقيقية التي لأجلها حكموا على المعلّم بالموت. أي ادعائه بأنه ابن الله، لكنهم لم يقولوا لأنهم يدركوا أن هذه التهمة لا قيمة لها عند الحاكم الروماني، ولا تُعتبر لديه تجديفاً يستحق الموت، فالقيصر نفسه يدّعي

انه الله. كلٌّ حرٌّ في ما يدّعي، حتى لو ادّعى انه الله. كل هذا يبقى مجرد كلامٌ ليل يطويه نهار. لذلك اختاروا للمعلّم تهماً يمكن أن تثير اهتمام بيلاطُس، فقالوا: إنه يهيج الشعب، يقصدون أنّه إرهابي، وقالوا: يدّعي إنه ملك، يقصدون أنّه خائن، وقالوا: يمنعنا من دفع الجزية لقيصر، يقصدون أنه متمرد. ومع ذلك كل هذه التهم لا تستوجب الموت بنظر الوالي الروماني بيلاطُس، بل إن تصرفهم مع المعلّم هو الذي يستوجب المُساءلة.

كان بيلاطُس متضايقاً جداً من تصرفهم فهو لم يعتد أبدا أن يملي عليه أحد ماذا ينبغي أن يفعل، إنه والي، وقاضي مسؤول أمام القيصر. والقانون الروماني لا يحكم على أحد بالموت قبل أن يعطي فرصة للمتهم للدفاع عن نفسه، فكيف يخالف القانون ويساير هؤلاء الهمج في رغباتهم الشريرة.

كان الموقف صعباً ويحتاج لحكمة. لذلك قرر أن يتخلص من هذه القضية بجعلهم يتحملون عواقبها، وأيضاً ينهي هذه الفوضى التي تجعله في موقف لا يحسد عليه أمام القيصر. «فَقَالَ لَهُمْ بيلاطُس: خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاحْكُمُوا عَلَيْهِ حَسَبَ نَامُوسِكُمْ». لكنهم كانوا أذكى منه وأشد خبثاً، «فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: لاَ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقْتُلَ أَحَداً ٣٢لِيَتِمَّ قَوْلُ يَسُوعَ الَّذِي قَالَهُ مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ». بتعبير آخر حاكمناه حسب شريعتنا قبل أن نأتي إليك، وحَكمنا عليه بالموت. ولأنّه لا يمكننا تنفيذ الحُكم، عليك أنت أن تعطي موافقتك على حُكمنا، ويُنفّذ فيه حُكم الموت.

غريبون هم هؤلاء الشيوخ، يقولون: لا يجوز لنا أن نقتل أحداً، ويقصدون، أحداً في العيد. يعني نحن نقتل قبل العيد ونقتل بعد العيد. أما في العيد فلا نقتل. ولكن إن استلزم الأمر قتل أحد حتى لو كان مسيح الرب، فلن نعدم الوسيلة لقتله في أي يوم من أيام الأسبوع. وها أنت حاضر أيها الوالي لتنفيذ رغبتنا في القتل في يوم عيد.

يا لهم من أشرار، إنهم فعلاً أبناء قتلة الأنبياء.

كان بيلاطُس متضايقاً جداً منهم ولا يريد أن يلبي رغبتهم بقتل المعلّم، ففي خضوعه لهم إهانة لكرامته. لذلك فكر في التهم الثلاثة التي عرضوها عليه. يفسد الأمة لا معنى لها. يعارض دفع الجزية لقيصر، لا معنى لها. انه ملك، استوقفته. فقرر كقاض أن يسمع من المعلّم دفاعه عن نفسه كما ينص القانون الروماني. فدخل إلى دار الولاية تاركاً الهمج والرعاع خارجاً. ودعا يسوع على انفراد، «فَوَقَفَ يَسُوعُ أَمَامَ الْوَالِي. فَسَأَلَهُ الْوَالِي قَائِلاً: «أَأَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟»». أراد جواباً سريعاً ليعرف هل فعلاً يقول يسوع عن نفسه هذا الكلام. وبالتالي يهدده في مُلكه، أم أن الكلام هو تلفيق كباقي الكلام. لأنه عرف أنهم أسلموه حسداً. فأجابه يسوع بسؤال: «أَمِنْ ذَاتِكَ تَقُولُ هَذَا، أَمْ آخَرُونَ قَالُوا لَكَ عَنِّي؟»[1].

رفض بيلاطُس الإجابة على السؤال وقال باستهزاء: «أَلَعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ؟» حتى اهتم بانك مَلك اليهود، أو أنك لست مَلك اليهود.. ثم تابع: «أُمَّتُكَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَسْلَمُوكَ إِلَيَّ. مَاذَا فَعَلْتَ؟». فعاد المعلّم لنفس السؤال الذي ابتدأه بيلاطُس وقال له: نعم أنا ملك، و«مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلَكِنِ **الآنَ** لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا».

قال بيلاطُس باستهزاء: «أَفَأَنْتَ إِذاً مَلِكٌ؟. أَجَابَ يَسُوعُ: أَنْتَ تَقُولُ: إِنِّي مَلِكٌ» فتوافق على كلامي. وأنا أقول لك: «لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا، وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي».

لم يهتم بيلاطُس كثيراً لكلام المعلّم إذ يدّعي أنّه مَلك، وله مملكة ليست من هذا العالم. فردد في قرارة نفسه. لا بد أنه قد فقد عقله. ما هذا الملك المقيّد المهان المحكوم عليه بالموت؟ لم أرَ في حياتي رجلا أعجب من هذا، يدّعي أنه ملك وهو

---

[1] – **أنت اكتشفت إني ملك أم آخرون قالوا لك إني أدّعي بأني ملك.**

تحت حُكم الموت. ومع ذلك استوقفته عبارة يسوع، «كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي»، فقَالَ لَهُ بيلاطُس متهكماً: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟»، إن أعظم فلاسفة اليونان لم يستطيعوا أن يعرفوا الحقّ، فكيف لك أن تعرف الحقّ. ألعلّك أعظم من سقراط، وأفلاطون، وأبقراط الَّذِينَ علمونا الحكمة!

«وَلَمَّا قَالَ هَذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ: أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً». هذا الرجل لا يستحق كل هذا الاهتمام. ربما هو فيلسوف حالم، أو شخص غير عاقل يحلم بأنه مَلك ويعرف كل الحق. ثم كرر كلامه «إِنِّي لاَ أَجِدُ عِلَّةً فِي هَذَا الإِنْسَانِ» يستحق من أجلها الموت، فانصرفوا من هنا. فأضاع الفرصة على اليهود بقتله.

لكن بقدر إصرار بيلاطُس على عدم محاكمة المعلّم، كان قيّافَا ومن معه، مصرّين على محاكمة المعلّم وقتله اليوم، وقبل موعد الفصح. ولن يسمحوا لبيلاطُس بإضاعة هذه الفرصة من يدهم. فألحّوا عليه قائلين: «إِنَّهُ يُهَيِّجُ الشَّعْبَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ مُبْتَدِئاً مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى هُنَا». ثم أخذوا يصرخون ويضجون وبيلاطُس محتارٌ في أمره، وأمرِ هؤلاء الرجال الكهنة المجانين. كيف له أن يَحكم على هذا الرجل بالموت إرضاء لهم، وهو لم يجد فيه علّة. وإذ نظر إلى يسوع مليّاً، قال في قلبه: هذا الرجل ليس مجرماً ولا صاحب سوابق، وأنا لم أسمع من فمه كلمة ردية واحدة بحق من اتهموه، وطلبوا الموت له. إنه حقاً أشرف منهم.

«١٢وَبَيْنَمَا كَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ لَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ. ١٣فَقَالَ لَهُ بيلاطُس: «أَمَا تَسْمَعُ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ؟» ١٤فَلَمْ يُجِبْهُ وَلاَ عَنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، حَتَّى تَعَجَّبَ الْوَالِي جِدّاً». فقال في قلبه: إنه حتى لم يدافع عن نفسه أمام هؤلاء الوحوش، تُرى هل يئس من عدالة روما، أو هل يظنني لا أحترم قوانين روما، أو أنني أحد الَّذِينَ اشتراهم الكهنة. فعزّت عليه نفسه.

كان يفكر في قلبه، ماذا يفعل؟ كيف يتصرف أمام هذه المعضلة؟ لقد أشفق على هذا الإنسان، وكبريائه كقاض لا يسمح له أن يساير هؤلاء الهمج بقتله. وبينما هو مفتكر في أموره جالِساً على كُرْسِيّ الولاَيَة الذي أحضره له الجند، أرسلت إليه امرأته قائلة: «إِيَّاكَ وَذَلِكَ الْبَارَّ لأَنِّي تَأَلَّمْتُ الْيَوْمَ كَثِيراً فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ».

يا لها من شهادة تأتي من زوجته، وتتوافق تماماً مع قناعته بأن هذا الرجل لم يفعل شيئاً يستحق لأجله الموت. وإن كل القضية لا تعدو كونها حسداً من رجال دين يهود كما قال خُدامه.

نظر إلى الكهنة والشعب. كانوا يصرخون ويشتكون على يسوع كثيراً، ثمّ نظر إلى يسوع فكان «مِثْلَ إِنْسَانٍ لاَ يَسْمَعُ وَلَيْسَ فِي فَمِهِ حُجَّةٌ»، فتعجب من الأمر.

ولما كانوا يصرخون ويقولون : «إِنَّهُ يُهَيِّجُ الشَّعْبَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ مُبْتَدِئاً مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى هُنَا». استوقفته العبارة «مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى هُنَا». فوقف على قدميه وسأَلَ: «هَلِ الرَّجُلُ جَلِيلِيٌّ؟ ٧وَحِينَ عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ سَلْطَنَةِ هِيرُودُسَ». خطرت له فكرة يتخلص بموجبها من إصدار الحكم على يسوع إرضاءً لهم، فقرر إرساله إلى هِيرُودُس الوالي، رغم أنه في حالة عداء معه، وهكذا «أَرْسَلَهُ إِلَى هِيرُودُسَ، إِذْ كَانَ هُوَ أَيْضاً تِلْكَ الأَيَّامَ فِي أُورُشَلِيمَ».

كان هِيرُودُس والي الجليل في زيارة لأورشليم بسبب العيد، إذن، فليحكم هِيرُودُس على هذا الجليلي بدلاً عنه. إنه ثعلبٌ، ويعرف كيف يتدبر الأمور. ولكن هل حقاً انتهت المشكلة مع هؤلاء الرعاع؟

الفصل الخامس عشر
دَماً بَرِيئاً

في جَثْسَيْمَانِي، أطلّت سنابل الشمس من بين أشجار الزيتون، ولامست وجهاً شاحباً لم يعرف راحة الضمير طوال الليل. تحركت أجفانه. استدار برأسه. تسارعت أنفاسه. وضع يديه المملوءتين بالعرق على رقبته. ثمّ استيقظ فجأة وهو يصرخ بأعلى صوته لا..لا. وإذ نظر حوله مذعورا أدرك انه كان في كابوس مرعب. عدّل من جلوسه. التقط أنفاسه ثانية، ثمّ قام متثاقلاً. وبينما استند على أشجار الزيتون، ثبّت وجهه الحزين على أورشليم.

وصل ببطء إلى مدخل البستان، فأمسك بيده المرتجفة الباب الخشبي الكبير الذي كان مفتوحاً على مصراعيه منذ ليلة أمس. شعر بأنامله تبرد، وفمه يجف، وأفكاره تضطرم اضطرام النار في المرجل. فبقي في مكانه لا يعلم ماذا يفعل. بعد دقائق قليلة توسعت أجفانه، وتوترت عضلاته. فانطلق مسرعا دون توقف باتجاه ذلك الجسر الخشبي الذي يفضي إلى الهيكل.

مرَ بين الخيام. انزلق على الطريق المنحدرة أكثر من مرة متعثراً بحجارتها، فنهض متابعاً وكأنه يسابق في مضمار. ركضت خلفه بعض الكلاب الشاردة، فلم يبالِ بها. أخيراً وصل إلى الجسر الخشبي العتيق، فأمسك بالحبال التي على جانبيه ووقف يلهث حتى كاد يتوقف قلبه.

أحنى صدره ورأسه إلى أسفل وهو ممسك بالحبل المشدود على الجسر آخذاً وضع القرفصاء. وإذ نظر إلى أسفل أصابه الدوار من شدة الارتفاع، فحول عينيه باتجاه الأعلى، وبقي في وضعه هذا لدقائق حتى استعاد هدوءه.

من جديد رفع صدره ورأسه ونهض واقفاً دون أن يترك الحبل من يده. ثمّ انطلق يركض، والجسر يهتز تحت قدميه حتى وصل إلى نهايته، فترك الحبل، وتابع ركضه باتجاه الهيكل، فعبر بابه إلى باحة الأمم ومن أحد أبوابها خرج إلى الطريق العام وهو لا يعلم إلى أين يمضي.

كانت المدينة مضطربة، كأنها في يوم ضيق. سأل الإِسْخَرْيُوطِيُّ أحدهم: ما الأمر. قيل له: إنه رجل الناصرة، «أَوْثَقُوهُ وَمَضَوْا بِهِ وَدَفَعُوهُ إِلَى بيلاطُس الْبُنْطِيِّ الْوَالِي».. أَسرِعْ لئلّا يفوتك مشهد المحاكمة. وإذ وصل مرعوباً إلى دار الولاية رأى فصلاً من مسرحية محاكمة المعلّم، فظنه الأخير. رأى المعلّم يُرسَل مقيداً لهِيرُودُس، فسأل: ما الأمر؟ قيل له، الوالي بيلاطُس لم يُصدر حكماً في يسوع لأن يسوع جليلي، فأرسله إلى هِيرُودُس والي الجليل ليحكُم فيه.

وإذ سَمع الجموع تقول، إن الكهنة قد حكموا على يسوع بأنه مجدّف ويستحق الموت. وأنهم لن يتركوه قبل أن ينفذوا فيه الحُكم. ارتعب، وندِمَ. ثمّ صرخ بين الجموع لا.. لا، وكأنه يستذكر كابوسه. ثمّ استدار باتجاه الهيكل، وإذ وصل هناك استقبله الكهنة بابتسامة شاحبة.

ماذا تريد. لماذا جئت إلى هنا. كان مذعوراً وحركاته تنم عن مس قد أصابه. أخرج الثلاثين من الفضّة وقال بمرارة وبلا رجاء: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَماً بَرِيئاً». ثمّ سقط على ركبتيه مجهشاً بالبكاء.

نظرت إليه الثعالب وقالت بخبث: «مَاذَا عَلَيْنَا؟ أَنْتَ أَبْصِرْ»[1].

أيبصر الأعمى؟ لو كان يعرف ماذا يَفعل لفعل، لكنه التجأ إليكم لتنقذوه. ألستم كهنة العلي، ورعاة إِسْرَائِيل؟ أَلاَ يَرعَى الرُّعَاةُ الغَنَم؟ ويلٌ لكم يا رُعاة إِسْرَائِيل. «الْمَرِيضُ لَمْ تُقَوُّوهُ، وَالْمَجْرُوحُ لَمْ تعْصِبُوهُ، وَالْمَكْسُورُ لَمْ تَجْبُرُوهُ، وَالْمَطْرُودُ

[1] – قل لنا ماذا تريد أن نفعل لك؟

لَمْ تَسْتَرِدُّوهُ، وَالضَّالُّ لَمْ تَطْلُبُوهُ». وبدل ذلك ها أنتم قد ضيقتم الخناق عليه لتقتلوه.

لملمَ خيبته وغادر المكان وهو مضطربٌ جداً. ولكن إذ أراد توريط الكهنة في جريمته «طَرَحَ الْفِضَّةَ فِي الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ». كانت هذه طريقته للقول: أنتم أيضاً مذنبون معي في دم المعلّم. «فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». هذا سيجعل الخزانة نجسة، وسيجعلنا مشاركين بصفقة قتل يسوع. والناموس يمنعنا من إدخال أي مال للخزنة من مكسبٍ قذرٍ. وبغباء قلّ نظيره أدانوا أنفسهم مع الاسخريوطي بجريمة قتل البار. وإذ أرادوا أن يخرجوا من مأزقهم هذا، «تَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِيِّ مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ»، حيث المقبرة مكان نجس. فحكموا ثانية على أنفسهم بنجاسة مالهم وأكّدوا نجاسة فعلتهم.

إذن، هذا المال هو ثمنُ دمٍ. هو جريمةٌ. وحقل الْفَخَّارِيِّ الذي اشتريتموه شاهدٌ يؤكد لكل الأجيال أنكم اشتريتم مسيح الرب من الإِسْخَرْيُوطِيُّ بثلاثين من الفضة ثم قتلتموه. وأنكم لا تستحون بعملكم النجس هذا. يا لعاركم الذي لا يُمحى.

«اَلشِّرِّيرُ يَهْرُبُ وَلاَ طَارِدَ».. ركض ابن الهلاك جنوباً والغيمة فوق رأسه، والصوت القديم في داخله: « إِذَا حُوكِمَ فَلْيَخْرُجْ مُذْنِباً وَصَلاَتُهُ فَلْتَكُنْ خَطِيَّةً. لِتَكُنْ أَيَّامُهُ قَلِيلَةً وَوَظِيفَتُهُ لِيَأْخُذْهَا آخَرُ. لِيَكُنْ بَنُوهُ أَيْتَاماً وَامْرَأَتُهُ أَرْمَلَةً. لِيَتِهْ بَنُوهُ تِيهَاناً وَيَسْتَعْطُوا وَيَلْتَمِسُوا خَيْراً مِنْ خِرَبِهِمْ. لِيَصْطَدِ الْمُرَابِي كُلَّ مَا لَهُ وَلْيَنْهَبِ الْغُرَبَاءُ تَعَبَهُ. لاَ يَكُنْ لَهُ بَاسِطٌ رَحْمَةً وَلاَ يَكُنْ مُتَرَئِّفٌ (من يتحنن) عَلَى يَتَامَاهُ. لِتَنْقَرِضْ ذُرِّيَّتُهُ. فِي الْجِيلِ الْقَادِمِ لِيُمْحَ اسْمُهُمْ. لِيُذْكَرْ إِثْمُ آبَائِهِ لَدَى الرَّبِّ وَلاَ تُمْحَ خَطِيَّةُ أُمِّهِ. لِتَكُنْ أَمَامَ الرَّبِّ (خطاياهم) دَائِماً وَلْيَقْرِضْ مِنَ الأَرْضِ ذِكْرَهُمْ. مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنْ يَصْنَعَ رَحْمَةً بَلْ طَرَدَ إِنْسَاناً مِسْكِيناً وَفَقِيراً وَالْمُنْسَحِقَ الْقَلْبِ لِيُمِيتَهُ. وَأَحَبَّ اللَّعْنَةَ فَأَتَتْهُ وَلَمْ يُسَرَّ بِالْبَرَكَةِ فَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ. وَلَبِسَ اللَّعْنَةَ مِثْلَ ثَوْبِهِ فَدَخَلَتْ كَمِيَاهٍ فِي حَشَاهُ وَكَزَيْتٍ فِي عِظَامِهِ. لِتَكُنْ لَهُ كَثَوْبٍ يَتَعَطَّفُ بِهِ وَكَمِنْطَقَةٍ يَتَنَطَّقُ بِهَا دَائِماً. هَذِهِ أُجْرَةُ مُبْغِضِيَّ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ وَأُجْرَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ شَرّاً عَلَى نَفْسِي».

وإذ انتهت الكلمات، أدركَ بعد فوات الأوان أنها نبوّة عنه. وفجأة وجد نفسه في المدينة السفلى على حدود وادي هِنُّوم، حيث النيران لا تنطفئ، والدود بين الجثث لا يموت. فخرج من إحدى بواباتها باتجاه الوادي، ثمّ تلفّت حوله مرعوباً كما في حلمه. وإذ وجد حبلاً، شنق به نفسه على عجلٍ، وتحت ثقله انكسر الغصن، فسقط متدحرجاً في الوادي. «وَإِذْ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ انْشَقَّ مِنَ الْوَسَطِ فَانْسَكَبَتْ أَحْشَاؤُهُ كُلُّهَا. وَصَارَ ذَلِكَ مَعْلُوماً عِنْدَ جَمِيعِ سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ».

يا للبائس، لم يجد الذي يقول له: مغفورة لك خطاياك. لم يجد من يحله من قيود الخطية والشيطان. فمات مخنوقا في خطاياه.

الفصل السّادس عشر
فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُس

في مطلع الصباح سيقَ المعلّم على عَجلٍ والقيود في يديه وسط جمع كبير من الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ وَالْعَسْكَر والرعاع، إلى دار ثعلبٍ على الجليل يُعيّد في أُورُشَلِيم، حيث هناك استقرت الغيمة السوداء. كان هياجهم شديداً. كلماتهم لا تطاق. غبار أرجلهم زاد من عطش المعلّم وأيبس فمه. أمّا جسده المُضنى فآذته تسلية الْعَسْكَر والرعاع بالرماح والعصي.

انطلق الموكب من دار الولاية جنوباً بمحاذاة الهيكل، ثم انعطف غرباً، وسار بين البيوت المتلاصقة حتى وصل قصر هِيرُودُس الذي يقع على سور المدينة الغربي، قريباً من دار قيَافَا. كانت رحلة طويلة شاقة على المعلّم فيها سار من شرق المدينة إلى غربها، وسط تعييرات مبغضيه، وخذلان أحبائه.

لم يدخل الكهنة قبلاً دار هِيرُودُس لئلا يتنجسوا، أما الآن فللضرورة أحكام. دخلوا الدّار قبل المعلّم، «وَوَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ بِاشْتِدَادٍ».

ماذا تريدون؟ قال هِيرُودُس وهو يتثاءب مع مطلع الصباح. أجاب قيَافَا وهو ينظر إلى المعلّم بغضب، وقد أصابه التعب هو الآخر من كثرة المسير وطول السهر: حَكمنا على هذا المهرطق بحسب ناموسنا بالموت، وإذ عرضناه على الوالي بيلاطُس الْبُنْطِيّ لتنفيذ الحكم فيه، قال: إن الرجل جليلي، خذوه إلى هِيرُودُس. وها نحن الآن أمامك، بانتظار قرارك في هذا الرجل الذي «يُفْسِدُ الأُمَّةَ وَيَمْنَعُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ قَائِلاً: إِنَّهُ هُوَ مَسِيحٌ مَلِكٌ». ثم توقف ليلتقط أنفاسه، وإذ بدى عليه التعب، تقدم أحد الكهنة وأمسك بذراعه قبل أن يسقط.

أخيراً، وقف الثعلب أمام المعلّم. تفحّصهُ. نظر في وجهه أثار اللكمة. دار حوله. ثم أمر بفكّ وثاقه. وفرح جداً «لأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَنْ يَرَاهُ لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً».

إذاً هو مَلك، كرر هِيرُودُس الكلام. وإذ تحررت يدا المعلّم، نظر هِيرُودُس إليه بخبث قائلاً: منذ زمن طويل أريد أن أراك، ولا أخفيك فرحتي بهذا اللقاء. قد سمعتُ عنك أشياء كثيرة من صنع آيات وعجائب، حتى أنه قيل لي أنك أقمت ميتاً.

قاطعه رئيس الكهنة قيَافَا بالقول وهو يرتجف: هذه مجرد إشاعات، هذا الرجل يتعامل مع الشياطين. وقبل أن يكمل كلامه، قاطعه هِيرُودُس بأن رفع يده آمراً إياه بالسكوت. فقلق قيَافَا، خشية أن يقوم المعلّم بصنع معجزة تُسر هِيرُودُس فيقوم بإطلاق سراحه.

قال هِيرُودُس مخاطباً المعلّم وهو يتثاءب: هل يمكنك أن تصنع معجزة الآن؟ مثلاً أن تجعل هذا السيف، وأخرج سيف حارسه من غمده، ثم تابع القول: من الذهب، هممم.

لم يجبه المعلّم، ولم يحرك ساكناً. فقال له: حسناً، حسناً، دعنا من الذهب الذي هو حاجة كل الملوك، هل يمكنك أن تفتح هذا الباب المغلق بإشارة منك؟ وكان يتكلم عن باب قصره. فلم يجبه المعلّم أيضاً. عندها اقترب أحد الجنود منه وقال له: سيدي، هذا الإنسان قيل عنه إنه يشفي المرضى، ما رأيك أن أذهب وأحضر لك بعضهم، لنرى حقاً إن كان هذا السجين قادراً على شفاء المرضى. وإذ أعجبه القول، أمره بأن يذهب ويحضر على عجل كل من يراه في الطريق مصاباً بعاهة ما. ثم جلس على كرسيّه ينظر إلى المعلّم متفرساً فيه وهو يهز قدميه. وإذ «سَأَلَهُ بِكَلاَمٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ».

كان القلق بادياً على قيَافَا خشية أن يدخل المعلّم بحوار مع هِيرُودُس، فيستميله. لكنّ صمت المعلّم أعاد له هدوءه. تقدم قيَافَا من هِيرُودُس وقال له: أيها الوالي،

الوقت يتداركنا ونحن في عيد، نرجو من جلالتكم أن تساعدونا لنتخلص من هذا المشعوذ الذي يدَّعي أنه مَلك بإصدار أمر من جلالتكم يريح أمتنا التي لن تنسى معروفكم.

وقف هِيرُودُس وهو يهمهم، ثمّ تقدم من المعلّم وقال له: لا أعرف ما هو سبب صمتك، هل أنت خائف؟ لا تخف لا أريد بك شراً، أمتك رفضتك، وأنا أريد أن امتحنك ببعض الأسئلة والمعجزات، فكن ودوداً ولا تستثمر في صبري لأنه قد ينفذ سريعاً. ومع ذلك لم يجبه المعلّم بشيء. كل ما هنالك أنه كان قد أحنى رأسه إلى الأرض من شدة التعب والإرهاق.

لم يطل الوقت حتى دخل الجندي إلى الملك، مستأذناً أن يُدخل له المرضى الَّذِينَ أحضرهم، فأذن له، وإذ بمجموعة من العرج، والصم، والعمي قد دخلوا ووقفوا أمام هِيرُودُس وهم يرتجفون من الخوف. عندها قال هِيرُودُس للمعلّم وقد «تَرَجَّى أَنْ يَرَاهُ يَصْنَعُ آيَةً»: الآن دورك في إثبات أنك رجلٌ صانع معجزات خير، هؤلاء بحاجة إليك، أرجو أن تصنع ولو معجزة واحدة، ليس بالضرورة أن تشفي الجميع يكفي واحداً، أو لنقل اثنين. ثم أشار إلى مجموعة المرضى وتابع كلامه: اختر من شئت من هؤلاء، وسأكرمك أشدّ الكرم إن نجحت في شفاء أحدهم.

أراد قيَافَا أن يعترض لأنه يعرف أن المعلّم لديه القدرة على صنع المعجزات، ولكن من حماقته لم يدرك أن المعلّم ليس رجل الاستعراضات الذي يعمل على تلبية رغبات النَّاس. وأنه من المستحيل أن يلبي رغبات الثعلب هِيرُودُس الذي يريد أن يقضي وقتاً للتسلية ولا يعنيه الإيمان من قريب أو بعيد. أمّا هِيرُودُس فرفع يده آمراً قيَافَا بالصمت.

جاء المعلّم للذين وجدوا أنفسهم في احتياج إليه، أما هذا الثعلب الذي لا يعنيه المعلّم ولا تعليمه ولا معجزاته بشيء، فلم يجبه ولا بكلمة واحدة.

بدا المعلّم «كَأَبْكَم لاَ يَفْتَحُ فَاهُ».. ومِثْل «إِنْسَانٍ لاَ يَسْمَعُ وَلَيْسَ فِي فَمِهِ حُجَّةٌ». وإذ خشي رؤساء الكهنة استجابة المعلّم لرغبه هِيرُودُس، تجمعت الغيمة فوقهم فزاد هياجهم، وارتفع صوتهم فوق صوت هِيرُودُس.

تضايق هِيرُودُس من المعلّم. نظر إليه، فرأى في صمته وقار الأباطرة. أرعبه المشهد للحظات. وإذ ذَكر نفسه ابتسم، واحتقره «مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ». ثم أمر فاحضروا له ثوباً فاخراً. أمسك الثوب وقال: هذا الثوب للملوك. ثم نظر إلى أحد الجند وقال له: ألبس هذا الثوب لجلالة الملك. ثم ضحك باستهزاء وتابع: بعد أن يلبس الثوب جمّلوا يديه بالقيود التي تليق بملوك اليهود. وانفجر ضاحكاً. «وَأَلْبَسَهُ لِبَاساً لاَمِعاً وَرَدَّهُ إِلَى بيلاطُس» والقيود في يديه.

لم يُعلّق قيَافَا على كلمات هيرودس الثقيلة، فلكل شيء أوان، ولكل أمر تحت السماء زمان. «لِلسُّكُوتِ وَقْتٌ وَلِلتَّكَلُّمِ وَقْتٌ». وقال لهِيرُودُس: قلت لك إنه مهرطق، ودجال كبير، وها قد ثبت أمامك أنه غير قادر على إجراء معجزة واحدة. ناهيك على صمته غير المفهوم، لذلك أرجو باسم أمتنا أن تصادق على حُكمنا وهذا معروف لن ننساه لك.

لكن هِيرُودُس رفض المصادقة على حكمهم، متهرباً من إدانة نبيل الملامح. ولم يحرّك القضيّة لأنه عالم بمكر اليهود ومؤامراتهم، وأن هذا الرجل الصامت لا يستحق حكم الموت. ليتمّ القول: «لأَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ اجْتَمَعَ عَلَى فَتَاكَ الْقُدُّوسِ يَسُوعَ الَّذِي مَسَحْتَهُ هِيرُودُسُ وَبيلاطُس الْبُنْطِيُّ مَعَ أُمَمٍ وَشُعُوبِ إِسْرَائِيلَ لِيَفْعَلُوا كُلَّ مَا سَبَقَتْ فَعَيَّنَتْ يَدُكَ وَمَشُورَتُكَ أَنْ يَكُونَ».

بعد أن قيّد المعلّم من جديد، ووضعوا فوق ثوبه لباساً لامعاً ليسخروا منه، أخرجوه كما دخل مدفوعا بالعصي والرماح وسط هياج رعاع يستكملون ذنبهم. أمّا هو فمن شدة قساوتهم سقطَ في الطريق فانخلع ثوبه اللامع، وقبل أن يضع يده أمام

وجهه، ارتطم رأسه بالأرض الترابية فتلوث وجهه واحمرت عيناه، فقام بصعوبة والجمع يصيح ويستهزئ به، ورفع عينيه إلى السماء مخاطباً أبيه السماوي: «أَنْتَ عَرَفْتَ عَارِي وَخِزْيِي وَخَجَلِي. قُدَّامَكَ جَمِيعُ مُضَايِقِيَّ».

كانت الرحلة شاقة على المعلّم، فالمسافة من دار الولاية إلى قصر هِيرُودُس ليست قصيرة، وها هو يعود ذات المسافة من قصر هِيرُودُس الذي يقع غرب المدينة إلى دار الولاية التي تقع شمال شرق المدينة سيراً على الأقدام. ومع ذلك احتملها بصمت من أجل أحبائه، وإذ افتكر بالسرور الموضوع أمامه، احتمل كل العار والخزي.

ما أن وصل ثانية إلى دار الولاية، حتى قيل لبيلاطُس: هِيرُودُسُ يُبلغك السلام ويقول: من دواعي سروري أن تحكم أنت على هذا الإنسان. ومن وقتها «صَارَ بيلاطُس وَهِيرُودُسُ صَدِيقَيْنِ مَعَ بَعْضِهِمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لأَنَّهُمَا كَانَا مِنْ قَبْلُ فِي عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمَا».

الفصل السّابع عشر
فَمَاذَا أَفْعَلُ بِيَسُوعَ؟

أرسَلَ الوالي بيلاطُس، المعلّم، إلى الوالي هِيرُودُس حاكماً ببراءته. رافعاً بذلك القضيّة إلى محكمةٍ أعلى، قابلاً فيها أن يكون الأدنى ليَخرج من المأزق. وإذ أُعيد إليه المعلّم على غير المألوف، بريئاً بمهزلةٍ، كيف يعود فيُحاكِم مَنْ سبق فأبرأه.

قال قائد المئة لبيلاطُس الهارب من المعلّم: الذي أرسلته إلى هِيرُودُس قد عاد. فاضطرب، وخرج من دار الولاية مع قائد المئة، وبعض الجند، ليجد جماعة من المعتوهين المجانين أمام كرسي الولاية يحيطون بالمعلّم. شاتمين الخارج من الناصرة ملكاً بلا جيشٍ، ومنتقدين ميلاده الوضيع، وفقره المدقع، بكلماتٍ سمجه. أثخنوه بالجراح والإهانات، فصار كشاة تساق إلى الذبح. وبينما يلهون به ويتناقلونه بين الأيادي حَبَسَ الوثنيّ أنفاسه، ورقّ له، وأمسك نفسه عن البطش بهم.

قال قائد المئة وهو يصر على أسنانه: مولاي، هؤلاء المجانين سيقتلون يسوع إن لم ننقذه من أيديهم. هذه جريمة بشعة تنفّذ أمام عيني الوالي، وطعنا بعدالة روما.. نظر إليه الوالي وهو يزمّ شفتيه ويأخذ نفساً عميقاً، وقال: هذه الأمة أتعبتني، كهنتهم أشد دهاء ومكراً من أكثر منافقي بلاط روما. أيّ خطأ معهم قد يكلفني كرسي الولاية. صبراً أيها القائد.

«وَكَانَ الْوَالِي مُعْتَاداً فِي الْعِيدِ أَنْ يُطْلِقَ لِلْجَمْعِ أَسِيراً وَاحِداً مَنْ أَرَادُوهُ. وَكَانَ لَهُمْ حِينَئِذٍ أَسِيرٌ مَشْهُورٌ يُسَمَّى بَارَابَاسَ»، «كَانَ قَدْ طُرِحَ فِي السِّجْنِ لأَجْلِ فِتْنَةٍ حَدَثَتْ فِي الْمَدِينَةِ وَقَتْلٍ»، وهو «مُوثَقاً مَعَ رُفَقَائِهِ فِي الْفِتْنَةِ الَّذِينَ فِي الْفِتْنَةِ فَعَلُوا قَتْلاً». ذات التهمة التي أُلصقت بالمعلّم كذباً.

وفيما هم مجتمعون أمامه، «دَعَا بيلاطُس رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالْعُظَمَاءَ وَالشَّعْبَ، ١٤وَقَالَ لَهُمْ: «قَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ هَذَا الإِنْسَانَ كَمَنْ يُفْسِدُ الشَّعْبَ. وَهَا أَنَا قَدْ فَحَصْتُ قُدَّامَكُمْ وَلَمْ أَجِدْ فِي هَذَا الإِنْسَانِ عِلَّةً مِمَّا تَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. ١٥وَلاَ هِيرُودُسُ أَيْضاً، لأَنِّي أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ. وَهَا لاَ شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ صُنِعَ مِنْهُ».

صمت لبرهة ثمّ تابع قائلاً: «لكُمْ عَادَةٌ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ وَاحِداً فِي الْفِصْحِ». ومن بين هؤلاء المجرمين الثلاثة المحكومين صلباً، وأشرّهم بَارَابَاس. وكان يشير بيده إليهم. «مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ؟ بَارَابَاسَ أَمْ يَسُوعَ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ». ثم صرخ بأعلى صوته قائلاً: «أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». وإذ «عَرَفَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ حَسَداً»، ترجّى أن ينقذه الشعب من الحُكم بسبب تهمةٍ باطلة اصطنعها رجالُ دينٍ مُرائين. ذئاب مساءٍ جاؤوا يطلبون دمه.

التفت قائد المئة إلى بيلاطُس وقال: سيدي، لن تنتفع شيئاً، فهؤلاء الرعاع سيخذلونك حتماً.

تجمّعت الغيمة السوداء فوق قيَافَا، فانتفض في مكانه إذ أدرك مغزى كلام بيلاطُس. والتفت إلى الكهنة رافعاً يده محتجاً «فَهَيَّجَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْجَمْعَ لِكَيْ يُطْلِقَ لَهُمْ بِالْحَرِيِّ بَارَابَاسَ».

أراد الوثني أن يكفي نفسه شرّ أمةٍ أتعبت الله بخطاياها. «أُمَّةٌ عَدِيمَةُ الرَّأْيِ وَلا بَصِيرَةَ فِيهِمْ».. «عِنَبُهُمْ عِنَبُ سُمٍّ وَلَهُمْ عَنَاقِيدُ مَرَارَةٍ. خَمْرُهُمْ حُمَةُ الثَّعَابِينِ وَسِمُّ الأَصْلالِ القَاتِلُ».. «وَلَكِنَّ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخَ حَرَّضُوا الْجُمُوعَ عَلَى أَنْ يَطْلُبُوا بَارَابَاسَ (ابن أبيه) وَيُهْلِكُوا يَسُوعَ».. «فَصَرَخُوا بِجُمْلَتِهِمْ قَائِلِينَ: خُذْ هَذَا وَأَطْلِقْ لَنَا بَارَابَاسَ».. خذ مجهول الهُويّة (يسوع) وأطلق لنا ابن أبيه. مع أنّ بَارَابَاس كان مرتكباً فعلاً ما اتهموا به يسوع كذباً.

قال بيلاطُس لقائد المئة: حدسك في مكانه، لكني سأحاول ثانية. رفع يده فساد الصمت المكان، فطرح عليهم السؤال ثانية وهو مرتبك: «مَنْ مِنَ الِاثْنَيْنِ تُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ؟ فَقَالُوا: بَارَابَاسَ». أُسقط في يديه. وإذ تذكر الحُلم، سألهم ثانية بغضب، وهو مصمم على إطلاق المعلّم: «فَمَاذَا أَفْعَلُ بِيَسُوعَ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ».. «فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِالَّذِي تَدْعُونَهُ مَلِكَ الْيَهُودِ».. «أَفَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». ٤٠فَصَرَخُوا أَيْضاً جَمِيعُهُمْ قَائِلِينَ: «لَيْسَ هَذَا بَلْ بَارَابَاسَ!»»، ثمّ «قَالَ لَهُ الْجَمِيعُ: لِيُصْلَبْ».

يا لخزيكم، يُقارَن المسيّا بلصٍ فيربح اللصّ الرهان، وبغباء تقولون: اصلبه اصلبه. بينما أنبياؤُكم يقولون: «تَحْتَ ظِلِّهِ اشْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَثَمَرَتُهُ حُلْوَةٌ لِحَلْقِي».

وإذ خرج بيلاطُس عن عقله، «فَقَالَ لَهُمْ ثَالِثَةً: فَأَيَّ شَرٍّ عَمِلَ هَذَا؟ إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهِ عِلَّةً لِلْمَوْتِ فَأَنَا أُؤَدِّبُهُ وَأُطْلِقُهُ». أيُّ تأديبٍ هذا يا بيلاطُس وأنت شاهدٌ أن المتهم بريء.

وإذ بدا لهم متردداً في الحكم عليه، استقرت الغيمة السوداء فوق رؤوس الجميع من جديد ليتفاقم هياج الشعب أضعافاً. «وَإِذْ كَانُوا يَصِيحُونَ وَيَطْرَحُونَ ثِيَابَهُمْ وَيَرْمُونَ غُبَاراً إِلَى الْجَوِّ».. «فَازْدَادُوا جِدّاً صُرَاخاً: اصْلِبْهُ».. «فَكَانُوا يَلِجُّونَ بِأَصْوَاتٍ عَظِيمَةٍ طَالِبِينَ أَنْ يُصْلَبَ. فَقَوِيَتْ أَصْوَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ».

«فَلَمَّا رَأَى بيلاطُس أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ شَيْئاً بَلْ بِالْحَرِيِّ يَحْدُثُ شَغَبٌ أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارّ. أَبْصِرُوا أَنْتُمْ. فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ: دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلاَدِنَا».. «فَبيلاطُس إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِلْجَمْعِ مَا يُرْضِيهِمْ» بسبب الخوف منهم.. «فَحَكَمَ بيلاطُس أَنْ تَكُونَ طِلْبَتُهُمْ. فَأَطْلَقَ لَهُمُ الَّذِي طُرِحَ فِي السِّجْنِ لأَجْلِ فِتْنَةٍ وَقَتْلٍ، الَّذِي طَلَبُوهُ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ لِمَشِيئَتِهِمْ». إذ طلبوا أن يكون دمه عليهم وعلى أولادهم، ظانين أنهم قادرين على حمل نتائج فعلتهم في قتل البار.

صلبوا المعلّم ليفوزوا بأسيرهم المحبوب بَارَابَاس، «لِذلِكَ يَصْمُتُ الْعَاقِلُ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ لأَنَّهُ زَمَانٌ رَدِيءٌ».

نعم، قد غَسل بيلاطُس يديه، لكنّه لم يغسل قلبه. وإذ سَلّم للموت شخصاً حَكم ببراءته، دان نفسه.

«أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ وَأَسْلَمَ يَسُوعَ بَعْدَمَا جَلَدَهُ لِيُصْلَبَ». نزعوا عنه ثيابه وربطوه إلى عمود خارج دار الولاية، ثمّ تناوب عليه جلادان، ليجُلد دون شفقةٍ جلداً مات تحته الكثيرون. كان المعلّم يتلوى من الألم وشفتاه تُغلقان على كل صراخ. عرقه يتصبب كالمحموم، وعضلاته ترتجف دون توقف. ومع كل زئير للجلاد كان ينتفض، وتتقلص يداه فتمزقهما السياط المرعبة. وإذ أَغلق فمه عن النوح تسامت نفسه بالترنيم: «بَذَلْتُ ظَهْرِي لِلضَّارِبِينَ وَخَدَّيَّ لِلنَّاتِفِينَ. وَجْهِي لَمْ أَسْتُرْ عَنِ الْعَارِ وَالْبَصْقِ».. «عَلَى ظَهْرِي حَرَثَ الْحُرَّاثُ. طَوَّلُوا أَتْلاَمَهُمْ».. «أَحَاطَتْ بِي ثِيرَانٌ كَثِيرَةٌ. أَقْوِيَاءُ بَاشَانَ اكْتَنَفَتْنِي. فَغَرُوا عَلَيَّ أَفْوَاهَهُمْ كَأَسَدٍ مُفْتَرِسٍ مُزَمْجِرٍ. كَالْمَاءِ انْسَكَبْتُ. انْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي. صَارَ قَلْبِي كَالشَّمْعِ. قَدْ ذَابَ فِي وَسَطِ أَمْعَائِي. يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي».

كان بين أكفّهم كهابيل الذي وجده أخوه في الحقل فقتله بلا ذنب. أمّا دمه الذي انتثر حوله وعلى سياطهم، فكان «دَمِ رَشٍّ يَتَكَلَّمُ أَفْضَلَ مِنْ هَابِيلَ».

كان بعد الجَلد ينزفُ دماً. الجسم قد ترضضت عظامه. الظَهر متورمٌ متشققٌ، وكذلك الصّدر. أمّا الرأس فَغَطَّتْهُ الكدمات. الجلادون بسياطهم نثروا لحمه. فَسَرت في جسده المتهرئ آلام كالموج بلا توقف. وبعد الجَلْدِ ألْبَسَهُ العسكَرُ ثيابَه عنوةً فانفتحت الجروح. وعندما صرخ متألّماً، لطموه ساخرين. وإذ اصطبغ ثوبه بدمه، أعطى جوابا عن السؤال القديم: «مَا بَالُ لِبَاسِكَ مُحَمَّرٌ وَثِيَابُكَ كَدَائِسِ الْمِعْصَرَةِ».

«فَمَضَى بِهِ الْعَسْكَرُ إِلَى دَاخِلِ الدَّارِ، الَّتِي هِيَ دَارُ الْوِلاَيَةِ».. «وَجَمَعُوا عَلَيْهِ كُلَّ الْكَتِيبَةِ». وعرّوه بعنفٍ ثانية، «وَأَلْبَسُوهُ أُرْجُواناً» –رداءً ملوكياً– فصرخ من شِدّة الألم.. «وَضَفَرُوا إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَصَبَةً فِي يَمِينِهِ. وَكَانُوا يَجْثُونَ قُدَّامَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ قَائِلِينَ: السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ». ثمّ بدأوا يمارسون مهنتهم بالضرب والتعذيب على جسم غضٍ ورأس كريمٍ. ثم أخذوا القصبة من يده وضربوه على رأسه ولطموه. ثمّ بدأوا «يَضْرِبُونَ قَاضِيَ إِسْرَائِيلَ بِقَضِيبٍ عَلَى خَدِّهِ».. و«يَبْصُقُونَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَسْجُدُونَ لَهُ جَاثِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ» قائلين: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ».

عجباً من أناس ينظرون الشمع محترقاً ويتفلون في وجه اللهيب.

أمّا بيلاطُس فإذ كان يتصارع مع ضميره وحُلم زوجته لم يتمالك نفسه. فتوجه بالكلام إلى اليهود ثانية قائلا: «هَا أَنَا أُخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً»، وبالكاد أمسك نفسه عن البطش بهم، ومثله كان قائد المئة الواقف بجواره يغلي غضباً. وإذ انهى بيلاطُس كلامه، خرج المعلّم من دار الولاية حاملاً إكليلَ شوكٍ، وقد ارتدى ثَوبَ الأُرْجُوان. نظر إليه بيلاطُس من أعلى، ثم حوّل نظره للجموع وقال أسيفاً: «هُوَذَا الإِنْسَانُ».. «فَسَمِعُوا لَهُ حَتَّى هَذِهِ الْكَلِمَةَ ثُمَّ صَرَخُوا قَائِلِينَ: خُذْ مِثْلَ هَذَا مِنَ الأَرْضِ لأَنَّهُ كَانَ لاَ يَجُوزُ أَنْ يَعِيشَ».

«فَلَمَّا رَآهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْخُدَّامُ صَرَخُوا قَائِلِينَ: اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!»، خشية أن يؤثر منظره في الجمهور فيطالبوا بإطلاق سراحه.

يا للجموع المتقلّبة. أحبوا المعلّم يوم الأحد إذ ظنّوه سيُعلن ملكوته من قوة. لكنّهم ابغضوه يوم الجمعة، عندما بدا أمامهم ضعيفاً منهار القوى. هذا حال النَّاس يحبون القوي، حتى لو بطش بهم. ويكرهون الضعيف، حتى لو بذل نفسه لأجلهم.

أمام ضجيج الجموع، خشي أصدقاء المعلّم ومحبوه أن يتكلموا مدافعين عنه، لئلا يكون مصيرهم كمصير من أحبوه. فحافظوا على صمتهم والألم يعتصر قلوبهم.

كاد يجّن بيلاطُس من حماقتهم، فقالَ لَهُمْ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلِبُوهُ لأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً». فأجابه الرؤساء وهم يستشعرون ميلاً لإطلاق سراحه: «حَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللهِ. فَلَمَّا سَمِعَ بيلاطُس هَذَا الْقَوْلَ ازْدَادَ خَوْفاً». فدخل إلى دار الولاية مع قائد المئة وطلب المعلّم. وفي الداخل كلّمه وقال له: «مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ جَوَاباً فَقَالَ لَهُ بيلاطُس أَمَا تُكَلِّمُنِي؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سُلْطَاناً أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَاناً أَنْ أُطْلِقَكَ؟ أَجَابَ يَسُوعُ: لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ. لِذَلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ». وكان القصد قيَافَا، رئيس الكهنة.

ازداد اضطراب بيلاطُس وخوفه فأُسقط في يده. وإذ تذكّر حُلم زوجته ازدادت معاناته. فخرج من جديد إلى اليهود محاولاً إنقاذه. لكنّهم كانوا له بالمرصاد، فضيَّقوا عليه الخناق. وكلما طلب أَنْ يُطْلِقَهُ «كَانُوا يَصْرُخُونَ: إِنْ أَطْلَقْتَ هَذَا فَلَسْتَ مُحِبّاً لِقَيْصَرَ. كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً يُقَاوِمُ قَيْصَرَ». وفي قولهم هذا مات رجاؤهم في المسيّا إلى الأبد.

«فَلَمَّا سَمِعَ بيلاطُس هَذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ» من دار الولاية، وإذ انهار الوالي من شدة المعاناة، «جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا»... فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «هُوَذَا مَلِكُكُمْ!». ١٥فَصَرَخُوا: «خُذْهُ! خُذْهُ! اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بيلاطُس: «أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ؟» أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: «لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلاَّ قَيْصَرَ!»»، مُتخلّين عن الله مَلكهم الحقيقي.

واذ لم يبقَ مجال للكلام ووقت الله قد انعقد. تبلورت القضية في النهاية، إن براءة المسيح تساوي كرسيَّ بيلاطُس. فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إلى جنوده لِيُصْلَب، فاستهزأوا به. «وَبَعْدَمَا اسْتَهْزَأُوا بِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ –ثانية– الأُرْجُوانَ وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ»، التي اصطبغت باللون القاني ليستروا جروحه وعارهم، «ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ لِيَصْلِبُوهُ».. «فَخَرَجَ وَهُوَ

حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ جُلْجُثَةُ». أمّا بَارَابَاس فأطلقَ سراحهُ، ليعود القاتل إلى الأمة القاتلة.

«وَيْلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ نَسْلِ فَاعِلِي الشَّرِّ أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ».. «هَل تُكَافِئُونَ الرَّبَّ بِهَذَا يَا شَعْباً غَبِيّاً غَيْرَ حَكِيمٍ».. «الصَّخْرُ الذِي وَلدَكَ تَرَكْتَهُ وَنَسِيتَ اللهَ الذِي أَبْدَأَكَ».. «أَسْلَمْتُمُوهُ أَنتُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ أَمَامَ وَجْهِ بيلاطُس وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِطْلاَقِهِ...أَنْكَرْتُمُ الْقُدُّوسَ الْبَارَّ وَطَلَبْتُمْ أَنْ يُوهَبَ لَكُمْ رَجُلٌ قَاتِلٌ. وَرَئِيسُ الْحَيَاةِ قَتَلْتُمُوهُ».. «أَيُّ الأَنْبِيَاءِ لَمْ يَضْطَهِدْهُ آبَاؤُكُمْ وَقَدْ قَتَلُوا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأَتبأُوا بِمَجِيءِ الْبَارِّ الَّذِي أَنْتُمُ الآنَ صِرْتُمْ مُسَلِّمِيهِ وَقَاتِلِيهِ».. حكمٌ يُسجّل ضدَّكم، ويوم الدين تُسألون عنه.

كان يليق بهم أن يقْبَلوا الملك السماوي، لكنهم أصروا على رفضه طالبين صلبه، فسقطوا. وبسقطتهم هذه «بَلْ بِزَلَّتِهِمْ صَارَ الْخَلاَصُ لِلأُمَمِ لإِغَارَتِهِمْ».

نظر بيلاطُس إلى المعلّم بخوفٍ مستذنبا نفسه. ومن بين ذلك البحر الزاخر من الوجوه الناظرة إلى فوق لم يرَ سلاماً إلا على وجه المعلّم. أمّا الملائكة الناظرة من فوق فانحصرت مذعورة وصمتت استعداداً لساعة الظلمة.

الفصل الثّامن عشر
إلى الجُلْجُثَة

كان طقس ذلك اليوم بارداً رطباً، وشمسه تختفي خلف أكفّ الغيوم. وإذ تدنو الساعة ببطء من التاسعة صباحاً، والعيد يطل خلف الباب مبتسماً. كان رجال المدينة يشحذون سكاكينهم لذبح خرفان الفصح، وبينها خروف دعي حمل الله.

كان المعلّم مرهقاً تعباً لم يذق شيئاً منذ تناول عشاء الفصح مع تلاميذه. وليس بعيدا عنه وقف قائدُ المئة، ولصان بعد إطلاق رفيقهم. يراقبون من في آلامه «لَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ».

استدعى بيلاطُس قائد المئة وأعطاه الأمر بصلب المجرمين، لصّين وملِك، «وَكَتَبَ بيلاطُس عُنْوَاناً....يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ»، «بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ»، وقال للقائد: ليفْهم هؤلاء الرعاع، هذا علّة البريء بين المذنبين، وأن روما قادرة على إذلال حتّى مَلك اليهود. وعندما رأى قيَافَا ومَن معه الكتابة شعروا بالإهانة، وغضبوا جداً، لأن الكتابة وصفت يسوع من يكون، وأكدت أنه لم يرتكب أيّة جريمة «فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ الْيَهُودِ لِبيلاطُس: لاَ تَكْتُبْ مَلِكُ الْيَهُودِ بَلْ إِنَّ ذَاكَ قَالَ (ادّعى) أَنَا مَلِكُ الْيَهُودِ. أَجَابَ بيلاطُس: مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ». ولم يُعرهم اهتماماً لأنهم أغاظوه كثيراً.

حملَ اللصّان كلٌّ صليبه المعدّ له. أمّا الثالث، القدّوس البار، الذي «بِمَعْرِفَتِهِ (بوداعته) يُبَرِّرُ كَثِيرِينَ وَآثَامُهُمْ هُوَ يَحْمِلُهَا»، فحمل نصيب بَارَابَاس، بل حمل نصيب كل المحكومين بالموت.

كان صليب بَارَابَاس ثقيلاً بمقدار خطاياه. وإذ حملهُ المعلّم، سُرّ بَارَابَاس وشكر الله لأول مرّة في حياته من أجل النعمة، لأنه في الزَّمَانِ الْحَاضِرِ أَيْضاً، هناك بقية من النَّاس اختارها الله بالنعمة.

سار الثلاثة كلٌّ يحمل صليبه، منطلقين من دار الولاية غرباً، وخلفهم جمع كبير من الكهنة والرعاع بقيادة الحبر الأعظم قيَافَا. وبينما هانَ على اللصان حملُ الصّليب، لأنهما بعدلٍ نالا استحقاق ما فعلاه، كسرَ العار قلْب المعلّم، فسقط تحت صليب غيره. ضحك اللصان من ضعف المعلّم وكذلك الجموع استهزأت، أما بيلاطُس فضمّ شفتيه ودخل دار الولاية.

كان المعلّم يئن تحت ثقلِ الصليب. وإذ هو منحن كان عرقه يتصبب ويتساقط من جبينه ممتزجاً بدم نازفٍ من إِكْلِيلِ الشَّوْكِ على رأسه. أمّا ظهره فمتورم وجروحه تنزف. رأسه مرضوض من الضرب، ووجه متألم من اللطم. المَهانة أحنت نفسه فيه، فحزن حتى الموت قبل الموت. وإذ نظر في الوجوه الناظرة إليه، ذكرَ قول النبي الباكي: «أَمَا إِلَيْكُمْ (ألا يعنيكم هذا) يَا جَمِيعَ عَابِرِي الطَّرِيقِ؟ تَطَلَّعُوا وَانْظُرُوا إِنْ كَانَ حُزْنٌ مِثْلُ حُزْنِي الَّذِي صُنِعَ بِي الَّذِي أَذَلَّنِي بِهِ الرَّبُّ يَوْمَ حُمُوِّ غَضَبِهِ».

كانت الطرقات ضيّقة، مرصوف معظمها بالحجارة. أمّا البيوت العتيقة بأبوابها الخشبية الصغيرة فكانت كَسورٍ يحيط بالمّارة. ومن النوافذ المرتفعة أطلت النسوة. البعض شاتمات، والبعض مستهجنات، فاختلط صياحهن بصياح الجموع، وأحدث جلبة رددت الجدران صداها.

وإذ وصل عند باب السور الغربي لمدينة أورشليم، توقف المعلّم قليلاً مستذكراً انّ «الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُدْخَلُ بِدَمِهَا عَنِ الْخَطِيَّةِ إِلَى الأَقْدَاسِ بِيَدِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ تُحْرَقُ أَجْسَامُهَا خَارِجَ الْمَحَلَّةِ». وإذ عَلِم أنها تشير إليه أدرك أنه «لِكَيْ يُقَدِّسَ الشَّعْبَ بِدَمِ نَفْسِهِ» عليه أن يتألَّم خَارِجَ الْبَابِ.

كان جسده يرتجف، ودمه ينزف دون توقف، فالتصق لسانه بحنكه عطشاً. قلبه خافق فيه، قوته فارقته، ونور عينيه أيضاً ليس معه. وإذ أعيت فيه روحه، وتحيّر فيه قلبه، ردد «أَكْثَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ. اعْتَزَّ مُسْتَهْلِكِيَّ أَعْدَائِي ظُلْماً...غَطَّى الْخَجَلُ وَجْهِي. صِرْتُ أَجْنَبِيّاً عِنْدَ إِخْوَتِي وَغَرِيباً عِنْدَ بَنِي أُمِّي....الْغَارُ قَدْ كَسَرَ قَلْبِي فَمَرِضْتُ. انْتَظَرْتُ رِقَّةً فَلَمْ تَكُنْ وَمُعَزِّينَ فَلَمْ أَجِدْ... أَمَّا أَنَا فَمِسْكِينٌ وَكَئِيبٌ». ثمّ رفع رأسه نحو السماء كأرض عطشى، وهوى ثانية تحت الصليب عند الباب الغربي لأُورُشَلِيم المؤدي إلى تلٍ، يُقَالُ لَهُ جُلْجُثَةُ، الواقع على أول طريق أريحا.

أحاط بالمعلّم جمهور كبير من محبيه، الَّذِينَ خرجوا على أصوات الجنود وهياج النَّاس، ومنهم يوسف الذي من الرامة، و«نِيقُودِيمُوسُ الَّذِي أَتَى أَوَّلاً إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً». وَيُوحَنَّا بْنُ زَبْدِي، ومريم أم يسوع التي قيل لها: «وَأَنْتِ أَيْضاً يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ سَيْفٌ»، ومريمات أُخر. وبعض النسوة اللواتي شفى المعلّم مرضاهن، أو أقام أمواتهن. و«جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْبِ وَالنِّسَاءِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَلْطِمْنَ أَيْضاً وَيَنُحْنَ عَلَيْهِ». كل هؤلاء الَّذِينَ أحبوا المعلّم وتبعوه في ذلّه كانت قلوبهم مفعمة حزناً، ونفوسهم منحنية تحت ثقل آمالهم المنهارة. أما بقية تلاميذه فتركوه من الخوف.

أثار عطف النسوة عليه، عطفاً أعمق عليهن في قلبه. وإذ تأثر من صوت الباكيات رفع رأسه والتفتَ إليهنَّ قائلاً: «يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ لاَ تَبْكِينَ عَلَيَّ بَلِ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِكُنَّ وَعَلَى أَوْلاَدِكُنَّ ٢٩ لأَنَّهُ هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُونَ فِيهَا: طُوبَى لِلْعَوَاقِرِ وَالْبُطُونِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ وَالثُّدِيِّ الَّتِي لَمْ تُرْضِعْ! ٣٠ حِينَئِذٍ يَبْتَدِئُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا! ٣١ لأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هَذَا، فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَابِسِ؟».

تأثر قائد المئة من المشهد، وتحركت الشفقة في قلبه على العود الرطب، فأوقفَ عند باب المدينة «رَجُلاً مُجْتَازاً كَانَ آتِياً مِنَ الْحَقْلِ، وَهُوَ سِمْعَانُ الْقَيْرَوَانِيُّ[1] أَبُو أَلَكْسَنْدَرُسَ وَرُوفُسَ»، وسَخَّرهُ ليحمل صليب المعلّم. وأمر الجند أن يأخذوا الصليب عن المعلّم المنهار تحت ثقله ويضعوه على سِمْعَان «لِيَحْمِلَهُ خَلْفَ يَسُوعَ» ما تبقى من الطريق. وإذ التقت العيون، ابتسم المعلّم، فسِمْعانُ الْقَيْرَوَانِيُّ (القيريني) هذا، جاء ليتمّم وعد سِمْعَانُ بُطْرُسَ، الهارب المذعور من جند الهيكل، وبعض الجواري عند صياح الديك.

«وَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ جُلْجُثَةُ، وَهُوَ الْمُسَمَّى «مَوْضِعَ الْجُمْجُمَةِ»، و «كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَدِينَةِ»، تقدّم الجند من المعلّم قبل أن يطرحوه أرضاً لصلبه، و «أَعْطَوْهُ خَلاًّ مَمْزُوجاً بِمَرَارَةٍ لِيَشْرَبَ. وَلَمَّا ذَاقَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَشْرَبَ». ثم «أَعْطَوْهُ خَمْراً مَمْزُوجَةً بِمُرٍّ لِيَشْرَبَ فَلَمْ يَقْبَلْ»، ليتمّ المكتوب: «وَيَجْعَلُونَ فِي طَعَامِي عَلْقَماً وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاًّ».

يا للعجب، يضربونه حتى تهرَّأ لحمه وتناثر دمه، ثم يسقونه خلاً لتخدير آلامه. أمّا هو فلم يشرب لئلا تُختزل كلماته على الصليب، ولكيلا يُفقد من ملكوته لصٌ تائب. وهكذا فعلوا مع اللصين اللَّذَيْنِ كانا معه، سقوهما خمراً ممزوجةً بمرّ فشربا.

حينئذ أمر قائد المئة أن يُصلب اللصان أولاً. فأمسك بهما الجند بعنف، ثم جردوهما من الثياب والنِعال. وإذ حاول اللصان أن يقاوما، أوسعهما الجند ضرباً، فامتَلأَ المكان صُراخاً وتجديفاً. ثمّ طرحوهما أرضاً كلٌّ فوق صليبه. وبسرعةٍ من يتّقن عملهُ، ربطوا أياديهما بالحبال، ثمّ سمّروها بالمسامير. وهكذا فعلوا أيضاً بالأقدام التي سمّروها فوق خشبة ناتئة. ثم أوقفوهما معلقين بين الأرض والسماء، وسط سخرية الجنود.

١– الكلمة في الأصل اليوناني Κυρην، وقد تُرجمت إلى القيروان، التي في تونس. بينما كان ينبغي ترجمتها إلى قيرين، التي في ليبيا كما وردت في الترجمة اليسوعية الجديدة، والترجمة المشتركة. لأن مدينة القيروان أُنشئت في عام (٦٧٠ م)، بينما نشأت مدينة قيرين في القرن السابع قبل المسيح. وهذا ما يؤكده (أعمال٢: ١٠).
أضواء على ترجمة البستاني فانديك (العهد الجديد)، الدكتور غسان خلف، ص٣٨–٤٠.

كانت مَرْيَم أمّ يسوع بين الجموع، تسير مستندة على كتف يُوحَنَّا. تشاهد عار ابنها وأحزانه، عاجزة عن عونه في ضيقه. ولمّا رأت اللصّان كلّ يوثق إلى صليبه امتلكها القلق، وتساءلت في عذابٍ: أيسمّرون اليد التي وهبت للموتى الحياة؟

بعد أن انتهى الجنود من صلب اللصين تقدما من المعلّم، وأمسكوه بعنفٍ ليصلبوه. كان يتلوى بين أيديهم كطفل لا يقاوم. حبسَ الآهات بين شفتيه. وإذ جردوه من ثيابه التي احتست الدماء من جسده، أي ثوبه المطرّز المفتوح من الأمام، مع ما تحته، الجبّة والقميص، انفتحت شفتاه، ومن الألم صرخ: «أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. عَارٌ عِنْدَ الْبَشَرِ وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ».

و «كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ». طرحوه أرضاً فوق صليب بَارَابَاس. فلما رأت مَرْيَم ابنها يتهاوى أرضاً، مدت يدها في الهواء شوقاً لتسند رأسه الجريح. وإذ سقط فوق الصليب صرخت، وسقطت معه، فغاص قلبها في أعماقها. وقبل أن تَهوي إلى الأرض أمسكها يُوحَنَّا بين يديه.

أمّا الجنود الَّذِينَ يحترفون عملهم جيداً، فلم يتوقفوا، بل انقضّوا على المعلّم المُلقى فوق صليبه، وربطوا بسرعة يديه بالحبال إلى الصليب، وإذ رفع الجندي يده، وقبل أن تنزل المطرقة على يد ابنها ترجّت مَرْيَم كالآخرين وهي بين يدي يُوحَنَّا، أن يُظهر ابنها قدرته ويخلص نفسه من أعدائه، لكن رجاءها خاب، فها هي يد الجندي الثقيلة تهوي بالمطرقة على معصم المعلّم مثبتة إياها بمسمار غليظ. وبينما المعلّم يصرخ من الألم، تمزقت أحشاءها، ولم تعد ركبتاها قادرتين على حملها، فأغميت بين يدي يُوحَنَّا الذي خنقته دموعه وآهاته، وتحشرجت الكلمات في فمه.

ما أسرعهم في إنجاز المهمة. بلمح البصر ثبتوا يديه وقدميه بالمسامير، ورفعوه بين الأرض والسماء، غير عابئين بمشاعره، ولا بمشاعر من رقّوا له وأحبوه. تعاملوا معه كدودة لا إنسان.

«وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ (التاسعة صباحاً) فَصَلَبُوهُ».. «وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِداً عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ فَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ»». ولأن علّة كل مصلوب ينبغي أن تُعلّق فوق رأسه ليعرف الجميع ما سبب الحكم علية بالموت صلباً. تقدم أحد الجنود من المعلّم ومعه سُلّم ركنها على صليبه، ثم حمل العلّة التي كُتبت في دار الولاية بأمر من بيلاطُس الوالي، وصعد السلّم، ليعلّقها فوق رأس المعلّم وقد كُتب عليها، «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ».. «فَقَرَأَ هَذَا الْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوباً بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّةِ». أمّا المعلّم فلم ينبس ببنت شفة، ليتمَّ المكتوب من جهته.

وهكذا «فَعَلَ الرَّبُّ مَا قَصَدَ. تَمَّمَ قَوْلَهُ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُنْذُ أَيَّامِ الْقِدَمِ».

عندما رأى نِيقُودِيمُوس، المعلّم مرفوعا على الصليب ذَكَرَ قوله في تلك الليلة «وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ». فاستنار عقله. وأخبر يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ، ويُوحَنَّا، بقول المعلّم، ثمّ أردف: لقد تنبأ المعلّم أيّة ميتة ينبغي أن يموت، ليضمن لنا الحياة الأبدية.

قال يُوسُف: الآن فهمت معنى قوله: «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ».

هزّ نِيقُودِيمُوس رأسه وقال: آه كم كنت غبياً لأني لم أفهم هذا قبل الآن!

أمّا يُوحَنَّا الممسك بمَرْيَم، فكان شارداً بأفكاره، ودموعه تروي قصّة حبٍ لمعلّمٍ قد ارتفع عن الأرض فوق صليب العار.

أنهى الحراس مهمتهم في صلبِ المعلّم، «ثُمَّ جَلَسُوا يَحْرُسُونَهُ هُنَاكَ» خشية نزوله من الصليب وهروبه بمعجزة كما أكد لهم الكهنة. فقلوب صالبيه لم تطمئن، وترتاح

رغم صلبه. إنهم يريدون رؤيته وقد وُضِع في القبر لتنتهي القصة التي أزعجتهم على مدار ثلاث سنين ونيّف.

كان عَرقه يتصبب على جبينه مختلطاً بالدّم، منساباً إلى عينيه فيحرقهما، ثمّ إلى أنفه وفمه فيدغدغهما. وإذ أراد أن يمسحهما أمسك المسمار يديه. ارتجف جسده. عضّ على شفتيه. وإذ أراد أن يصرخ، أمسك ثانية المسمار يديه، فنزّ الجرح ألماً ودماً.

مع كل شهيق كان يُضطر أن يضغط بقدميه على الخشبة الصغيرة التي وضعت تحتهما. ثمَّ يرفع بالجهد نفسه قليلاً ليلتقط أنفاسه، ثم يعود فيرخي جسده ليتعلق بيديه. كل شيء كان مؤلماً، وكثيرين من المصلوبين ماتوا خنقاً إذ لم يعد لديهم من شدة الألم قوّةً ليرفعوا أنفسهم بأقدامهم.

رفع المعلّم بجهدٍ رأسه، وحرّك فمه بتثاقل. لم يستمطر على الجنود اللعنات، ولا استنزل على الكهنة والرؤساء النقمات. لكنه نطق بكلمات لم يُسمع قبلها على صليبٍ: «يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ»، ملتمساً لهم العذر في جهالتهم وإثمهم.

«ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ» اشتهوا كالذئاب ثيابه الملوثة بالدماء فاقتسموها «مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا: مَاذَا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ؟».. «أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْماً. وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضاً. وَكَانَ الْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ مَنْسُوجاً كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لاَ نَشُقُّهُ بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ. لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». أمّا حذاؤه فما وجدوه لأنه لم يكن ممكنًا أن يملك ما قد منع تلاميذه منه، عندما أرسلهم ليبشروا بملكوت الله ويشفوا المرضى، قائلاً لهم: لا تحملوا كيس دراهمٍ ولا مزوداً ولا حذاءً.

وبينما المعلّم مصلوبٌ، «كَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ. وَكَذَلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضاً وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ قَالُوا: خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا. إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ. قَدِ اتَّكَلَ عَلَى اللهِ، فَلْيُنْقِذْهُ الآنَ إِنْ أَرَادَهُ! (إن كان راضياً عنه) لأَنَّهُ قَالَ: أَنَا ابْنُ اللهِ!».

«وَكَانَ الشَّعْبُ وَاقِفِينَ يَنْظُرُونَ وَالرُّؤَسَاءُ أَيْضاً مَعَهُمْ يَسْخَرُونَ بِهِ قَائِلِينَ: خَلَّصَ آخَرِينَ فَلْيُخَلِّصْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ هُوَ الْمَسِيحَ مُخْتَارَ اللهِ».

يا للعجب يسألونه: إن كنت المسيح مختار الله؟ ذات السؤال الذي طرحه الشيطان في البرّية على المعلّم في جوعِهِ. هل من اتفاق بين الاثنين!

كم هو مؤلم أن يسمع الْبَارُّ الذي اعتاد سماع صوت استغاثة النَّاس، أو صوت الآب القدوس، كل هذه الشتائم والتَعْيِيرَاتِ من أحبائه.

ولأن الوليمة كبيرة اشترك فيها اللصان وعيّرا المعلّم بلا حدود. واحدٌ منهما جدّف عليه قائلاً: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِيَّانَا». أمّا هُو فلم يقل في حقهما كلمة، مع أنهما لم يتركا في حقه كلمة. وكذلك «الْجُنْدُ أَيْضاً اسْتَهْزَأُوا بِهِ وَهُمْ يَأْتُونَ وَيُقَدِّمُونَ لَهُ خَلاًّ،٣٧قَائِلِينَ: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ مَلِكَ الْيَهُودِ فَخَلِّصْ نَفْسَكَ!».

كان المعلّم «تَعْزِيَةَ إِسْرَائِيلَ»، ينتظر تعزيةً. فجاءت من لصٍ راقبه لوقت قصير، منذ حوكم في دار الولاية إلى لحظة صلبه. وإذ أدرك اللص مالم يدركه رئيس الكهنة قيَافَا طيلة ثلاث سنوات ونصف، صرخ في وجه اللص الآخَر المصلوب معه «وَانْتَهَرَهُ قَائِلاً: أَوَلاَ أَنْتَ تَخَافُ اللهَ، إِذْ أَنْتَ تَحْتَ هَذَا الْحُكْمِ بِعَيْنِهِ؟ ٤١أَمَّا نَحْنُ فَبِعَدْلٍ، لأَنَّنَا نَنَالُ اسْتِحْقَاقَ مَا فَعَلْنَا، وَأَمَّا هَذَا فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ»، ثمّ التفت إلى المعلّم قائلاً: «اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ».

و «لأَنَّ الْقَلْبَ يُؤْمَنُ بِهِ لِلْبِرِّ وَالْفَمَ يُعْتَرَفُ بِهِ لِلْخَلاَصِ».. قال لَهُ يسوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ». كانت صلاة هذا اللص بالنسبة للمعلّم «مِيَاهٌ بَارِدَةٌ لِنَفْسٍ عَطْشَانَةٍ».

كان قائد المئة مشغولاً بشخص المعلّم وفي قلبه كان يرجو أن ينزل عن الصليب في أيّة لحظة. وإذ سَمع كلمات اللّص وصلاته انبهر، وانفتح ذهنه على عظمة المصلوب. وبالكاد امسك نفسه عن ترديد عبارة ذاك اللص. أمّا أولئك العسكر الجالسين عند الصليب يقترعون على ثياب المعلّم فأوقفوا شجارهم هيبة واحتراماً.

أدرك قائد المئة أنّه يمكن للناس أن يَضربوا المعلّم، وأن يجلدوه ويلكموه ويصلبوه، بل أن يجردوه من ثيابه ويقتسموها. أما صفته كملكٍ «يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضاً إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ»، فلا ينتزعها أحدٌ منه.

في غمرة آلامه جال المعلّم ببصره في الَّذِينَ حوله، وهو بالكاد يرى، فوقعت عيناه على «أُخْت أُمِّهِ مَرْيَمُ، زَوْجَةُ كِلُوبَا، وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ». ثم على أُمُّه مَرْيَم بوجهها الحزين، وهي تستند على ذراع تلميذه يُوحَنَّا الذي كان يُحِبُّهُ. وقالَ لأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ». ثُمَّ قالَ لتلميذه المحبط: «هُوَذَا أُمُّكَ. وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ»، حاجباً عنها ما تبقّى من آلام المعلّم. وإذ أوصلها إلى البيت على عجلٍ، عاد ثانية إلى المكان ليلتقي نِيقُودِيمُوس، ويُوسُف الذي من الرّامة.

وإذ داهم الوقت رؤساء الكهنة وشعروا أن المعلّم مائتٌ لامحالة، غادر معظمهم المكان إلى الهيكل على عَجل، وبينهم رئيس الكهنة قيَافَا، لأنّ موعد تقديم ذبيحة الفصح قد اقترب. إنهم للتذكار، ودون أن يعلموا، في يوم واحد وعلى غير المعتاد، سيقدمون خروفي فصح بدل واحد.

بينما قسم آخر من الكهنة بناءً على توصية قيَافَا، توجه إلى دار الولاية لمقابلة الوالي بيلاطُس لإنهاء قصة المصلوب دون مفاجآت. لأن قيَافَا قال لهم: قد لا يكون موت يسوع حقيقي، لذلك اذهبوا إلى بيلاطُس واطلبوا كسر سيقان الثلاثة.

الفصل التّاسع عشر
ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ

كانت قيود الشيطان، الحية القديمة، محلولة. ومأذون لها من الأعالي أن تفْعلَ ما يحلو لها مع المعلّم فسحقت عقبه. وإذ سمروا المعلّم على الصليب، انسحبت الشمس من فوق رؤوسهم، والتحفَ النور ظلاماً في وسط النهار. «وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ (الثانية عشرة ظهراً) كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ (الثالثة بعد الظهر)»، رغم كون القمر بدراً. وخوفاً من ظلمةٍ ليست في محلّها، بدأ الكثيرون بمغادرة المكان.

شيئاً فشيئاً كان الظلام يشتد، حتى صارت الغيمة السوداء جزءاً من الظلمة. استغرب قائد المئة وجنوده فأرسل إلى الوالي يطلب الأوامر، فقيل له: إنه ظلام عادي، ولا يعدو كونه مصادفة.

توتر القائد، وقال في نفسه لا بد أنه غضب الطبيعة على هذا المصلوب ظلماً. وخشية حدوث أمر ما قد يُعاقَب عليه، أمر الحراس بالتجمهر حول المصلوبين وقتل كل من يتقدم إليهم، فشكلوا طوقاً غريباً يشبه الحصن حول القلعة.

أمّا ما تبقى من تلاميذ المعلّم فلم يكونوا أقل دهشة من الجند، فاقتربوا هم أيضاً بعضهم من بعض وصاروا يهمسوا بتوقعاتهم عن نجاته. وهكذا أيضاً بعض الرعاع الَّذِينَ بقوا في المكان سيطر عليهم الخوف، لكنهم قرروا البقاء ليعرفوا النتيجة، معتبرين الأمر مغامرة تستحق البقاء.

كانت الغيمة السوداء تتلوى بشكل غريب فوق المعلّم، وبدت للبعض كأنها محارب بسيف مسلول يحاول قتل غريمه دون جدوى.

«وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ (الثالثة بعد الظهر) صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: إِيلِي إِيلِي لَمَا شَبَقْتَنِي أَيْ: إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي. فَقَوْمٌ مِنَ الْوَاقِفِينَ هُنَاكَ لَمَّا سَمِعُوا قَالُوا: إِنَّهُ يُنَادِي إِيلِيَّا».. «بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: أَنَا عَطْشَانُ».

على الصليب، لم يَشْكُ المعلّم كل آلام الجلد، ولا إكليل الشوك والمسامير، لكنه شكا عطشاً. فالذي حَمل خطايا النَّاس، حَمل عطشهم أيضاً، لئلا يصيبهم ما أصاب ذاك الغني عديم الإيمان وسط نيران الجحيم، وهو يشكو عطشاً.

وإذ سمع قائد المئة أن المعلّم يعاني من العطش، رقّ له، وأمر أحد الجند أن يسقيه، «وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوّاً خَلاًّ فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ» ليَتِمَّ الْكِتَابُ: «وَيَجْعَلُونَ فِي طَعَامِي عَلْقَماً وَفِي عَطَشِي يَسْقُونَنِي خَلاًّ». «وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَقَالُوا: اتْرُكْ (دعه وشأنه). لِنَرَى هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا يُخَلِّصُهُ»، ساخرين منه. فإن كان يسوع يتوقع أن يأتي إيليَّا ليقويه ويشدده فلا حاجة أن تعطوه شيئاً.

«فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ» لم يُرد أن يشرب. وصَرَخَ «أَيْضاً بِصَوْتٍ عَظِيمٍ» وقال: «قَدْ أُكْمِلَ».. «الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ». فسقطت الغيمة السوداء عند قدميه تتلوى ثم اختفت في التراب. وكمنتصرٍ، ما أن غرس رايته على المرتفعات الدهرية، حتى بدأ النور يعود والظلام ينقشع.

لم يفهم أحد من الحاضرين ما حدث، وأنه «كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ بِهَذَا وَيَدْخُلُ إِلَى مَجْدِهِ».

ولمّا استوفى المسيح متطلبات الموت وعلاماته، وأكملَ نزفُ الذبيحة بما يكفي خلاص العالم، زايله الإحساس بفقدان رِضَا أبيه فقال: «يَا أَبَتَاهُ فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي».. «وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ»، كمن يضع اللمسات الأخيرة على قصة

الحب العجيب. لِيَتِمَّ الْكِتَابُ القائل: «وَبَعْدَ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ أُسْبُوعاً يُقْطَعُ الْمَسِيحُ وَلَيْسَ لَهُ (ولا مَن يدافع عنه)».

لم تؤخذ نفسُهُ منه كبشرٍ، بل هو سكب للموت تَفْسَهُ. أمّا روحهُ فسكبها في يد الآب سكيباً، بل استودعها في يده كمن هو موشك أن يستردَّها منه في اليوم الثالث، في فجر الأحد. وقد قبل الآب بسرور هذه الوديعة.

«وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ الْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هَكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ»، و «الأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ»، قَالَ: «حَقّاً كَانَ هَذَا الإِنْسَانُ ابْنَ اللهِ!». ثمّ «مَجَّدَ اللهَ قَائِلاً: «بِالْحَقِيقَةِ كَانَ هَذَا الإِنْسَانُ بَارّاً!»»، وملأ الخوف قلبه. وأيضاً الَّذِينَ معه من الجند، الَّذِينَ «يَحْرُسُونَ يَسُوعَ فَلَمَّا رَأَوُا الزَّلْزَلَةَ وَمَا كَانَ خَافُوا جِدّاً وَقَالُوا: «حَقّاً كَانَ هَذَا ابْنَ اللهِ». «وَكُلُّ الْجُمُوعِ الَّذِينَ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ لِهَذَا الْمَنْظَرِ لَمَّا أَبْصَرُوا مَا كَانَ رَجَعُوا وَهُمْ يَقْرَعُونَ صُدُورَهُمْ». مدركين ذنبهم تجاه المصلوب.

«٥٥وَكَانَتْ هُنَاكَ نِسَاءٌ كَثِيرَاتٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ، وَهُنَّ كُنَّ قَدْ تَبِعْنَ يَسُوعَ مِنَ الْجَلِيلِ يَخْدِمْنَهُ، ٥٦وَبَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَيُوسِي، وَأُمُّ ابْنَيْ زَبْدِي» التي تدعى سالُومَة، وزوجة كِلُوبَا أخت مَرْيَم أم يسوع. «وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ اللَّوَاتِي صَعِدْنَ مَعَهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ» لِيَتِمَّ الْكِتَابُ: «أَحِبَّائِي وَأَصْحَابِي يَقِفُونَ تُجَاهَ ضَرْبَتِي وَأَقَارِبِي وَقَفُوا بَعِيداً».

الذي «لَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ»، أسندها أخيراً على الصليب.

«قَدْ أَقْسَمَ الرَّبُّ بِفَخْرِ يَعْقُوبَ: إِنِّي لَنْ أَنْسَى إِلَى الأَبَدِ جَمِيعَ أَعْمَالِهِمْ».

زحف عليه الموت حتى غطّاه عن حقٍّ وعدالةٍ. لأنّ الخطيّة التي لبِسَها واللّعنة التي صار إليها حينما وقف في مكاننا، هما والموت رفيقان لا يفترقان. فأخذهما كليهما، ليوفي بالموت كيلَ العدالة. وبموته «ابْتُلِعَ الْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ»، وصار الصوتُ قوياً: «أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ».

ما أعظم ما صنعه المعلّم، عندما «سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ»، «لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، وَيُعْتِقَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَوْفاً مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعاً كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ».

وإذ قال المعلّم: «قَدْ أُكْمِل». كان رئيس الكهنة في الهيكل متسربلاً بثيابه البديعة، والخوف يملأ قلبه من ظلمةٍ ليست في مكانها. ورغم المشاعل التي أمسكها الكهنة حول رئيسهم لطرد الليل من النهار، بقيت الظلمة أقوى.

أمسك رئيس الكهنة خروف الفصح فِي الْعَشِيَّةِ، نحو الثالثة بعد الظهر، شاهراً السكين بيده، والشعب ينظرون إليه باهتمام، لأن في موت الخروف نجاتهم، إذ هو كرمزٍ، بديلٌ عنهم، إلى أن يظهر المرموز إليه.

فجأة، «ارْتَجَّتِ الأَرْضُ وَارْتَعَشَتْ أُسُسُ الْجِبَالِ. ارْتَعَدَتْ وَارْتَجَّتْ لأَنَّهُ غَضِبَ».. «اِنْسَحَقَتِ الأَرْضُ انْسِحَاقاً. تَشَقَّقَتِ الأَرْضُ تَشَقُّقاً. تَزَعْزَعَتِ الأَرْضُ تَزَعْزُعاً»، وسُمعت دمدمةٌ كقصفِ الرعد الثقيل.

اهتزّ النَّاس وتمايلوا، وسقطوا على بعضهم أكواماً فوق أكوامٍ. وفي الجبال المجاورة تشققت الصخور وتدحرجت إلى السهول بصوت تحطيمٍ شديد. وبدا كأنّ الخليقة كلّها ترتجف وتتحطّم وتتطاير شظاياها.

انطرح الكهنة حول رئيسهم المذعور على الأرض، والرعب قد عقد ألسنتهم. أمّا الخروف المُمسك به فهرب قافزاً فوق رئيس الكهنة، مستثمرا فرصة لن تتكرر. وإذ أخذت الظلّمة تنقشع، تراكض الكهنة من داخل الأقداس مذعورين صارخين: إِيخَابُودَ، إِيخَابُودَ. «قَدْ زَالَ الْمَجْدُ مِنْ إِسْرَائِيلَ».

أمسكَ أحدهم بيد رئيس الكهنة قيَافَا وأقامه. ونظر الاثنان كليهما برعبٍ واحدهما للآخر، «وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ». وعندما علمَ قيَافَا أنّ الحجاب قد انشقّ، وانفتح

الطريق إلى قدس الأقداس صرخ مذهولاً، وسقط على وجهه مغشياً عليه.

يا لفصحٍ قديمٍ صارَ نَوحاً، فيه بكت النسّوة، وغابت الشّمس، وانشّق حجاب الهيكل من وسطه من فوق إلى أسفل. ويا لفصحٍ جديدٍ أعطى المؤمنين بالمسيح ثقة «بِالدُّخُولِ إِلَى الأَقْدَاسِ بِدَمِ يَسُوعَ، طَرِيقاً كَرَّسَهُ لَنَا حَدِيثاً حَيّاً، بِالْحِجَابِ، أَيْ جَسَدِهِ».

بعد فوات الأوان، ورغم كلّ علمه، أدرك الشيطان أن مملكته قد ضاعت. كان غبياً إذ ظنّ المعلّم المقيّد اليدين والقدمين على الخشبة ضعيفاً مهزوماً، ففوجئ به وقد «جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ اشْهَرَهُمْ جِهَاراً، ظَافِراً بِهِمْ فِيهِ». فهزمه مع أتباعه على الصليب هزيمة تُحسب بداية النهاية له.

الفصل العشرون
قَبْرٌ جَدِيدٌ

بينما قيّافَا رئيس الكهنة كان قد غادر تل الجلجثة مع كثيرين إلى الهيكل، توجه قسم آخر من الكهنة إلى دار الولاية لمقابلة بيلاطُس وإنهاء قصة يسوع بطريقة لامجال فيها لأي احتمال بالخطأ. فيسوع ليس فقط ينبغي أن يموت مصلوباً، بل ينبغي أن يُدفن أيضاً لتطمئن قلوبهم. كانت هذه خطتهم لئلا يحدث ما ليس في الحسبان.

«ثُمَّ إِذْ كَانَ اسْتِعْدَادٌ فَلِكَيْ لاَ تَبْقَى الأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ لأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيماً سَأَلَ الْيَهُودُ بِيلاَطُس أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا».

كانت هذه هي الطريقة المعتادة لإنهاء حياة المصلوب. فما أن تُكسر ساقاه اللتان ارتكز عليهما كلّ ثقله، واللتان سُمرتا فوق قطعة خشبيةٍ ناتئةٍ موجودة على خشبة الصليب، حتى يختنق بسبب عدم قدرته على دفع نفْسه للأعلى ليتنفس.

قالوا لبيلاطُس بمكرٍ: «إِذَا كَانَ عَلَى إِنْسَانٍ خَطِيَّةٌ حَقُّهَا الْمَوْتُ فَقُتِلَ وَعَلَّقْتَهُ عَلَى خَشَبَةٍ فَلا تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلَى الْخَشَبَةِ بَل تَدْفِنُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لأَنَّ الْمُعَلَّقَ مَلْعُونٌ مِنَ اللهِ. فَلا تُنَجِّسْ أَرْضَكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيباً». وكان قصدهم أن تُكسر ساقي المعلّم ليعجّلوا بموته. فأجابهم بيلاطُس إلى طلبتهم، وأرسل معهم بعض العسكر.

أمّا «يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ»، ونِيقُودِيمُوسُ، ويُوحَنَّا، المتواجدون في المكان، دون سائر التلاميذ الَّذِينَ هربوا تاركين المعلّم في وحدته، ما أن تيقّنوا من موت المعلّم حتى رتبوا لموضوع دفنه منفردين. لأن أمه غير قادرة على فعل ذلك، ولأن إخوته لا يعرف أحدٌ أين هم متواجدون. فهم لم يؤمنوا به، ولم يحضروا صلبه لئلا يشتركوا بعار الصليب.

«وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، إِذْ كَانَ الاِسْتِعْدَادُ، أَيْ مَا قَبْلَ السَّبْتِ»، ذهبَ يوسُف وهو رجلٌ غَنِيٌّ مِنَ الرَّامَة، مُشِيرٌ شَرِيفٌ، وَرَجُلاً صَالِحاً بَارّاً، «وَكَانَ هُوَ أَيْضاً تِلْمِيذاً لِيَسُوعَ» مُنْتَظِراً مَلَكُوتَ اللهِ إلى بيلاطُس «خُفْيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ»، فَتَجَاسَرَ وَدَخَلَ إليه بعد الكهنة بقليل، وطَلَبَ جَسَدَ يَسُوع، «فَتَعَجَّبَ بيلاطُس أَنَّهُ مَاتَ كَذَا سَرِيعاً». فأرسل أحد جنوده إلى موقع الصّلب، ودَعَا قَائِدَ الْمِئَةِ ليتأكد منه. فجاء قَائِدَ الْمِئَةِ إلى بيلاطُس تاركاً جنده في الموضع، ليقصّ عليه رِوايةً لم تُسمع من قبل.

سأل بيلاطُس: «هَلْ لَهُ زَمَانٌ قَدْ مَاتَ؟». فروى له قَائِدَ الْمِئَةِ كل ما حدث. كلّمه عن ظلمةٍ، وزلزالٍ رافقا موت يسوع، وعن كلمات قالها المصلوب، لم يُسمع أن إنساناً قد قال مثلها. فلما سمع بيلاطُس القصّة أصغى جيداً. وإذ تذكر حُلم زوجته قال لِقَائِدِ الْمِئَةِ: حقاً كان هذا الرجل باراً. ويبدو أن الطبيعة بالمصادفة وقفت متضامنة معه في محنته ضد هؤلاء الرعاع الهمج. ثم بعد لحظات صمت استطرد يقول: كان هذا اليوم متعباً من بدايته وأرجو أن تكون متاعبه قد انتهت. ثم سار مبتعداً قليلاً عن القائد، وتوقف دون أن يلتفت إليه وقال: إنسَ أمر يسوع هذا، فما هو إلا واحد من العشرات الَّذِينَ صلبناهم.

«وَلَمَّا عَرَفَ مِنْ قَائِدِ الْمِئَةِ وَهَبَ الْجَسَدَ لِيُوسُفَ» كي يُدفن باحترام لائق، احتقاراً لليهود الَّذِينَ أذلّوه، وألزموه حتى يأمر بصلب البارّ على غير إرادته. فذهب يوسُفُ مسرعاً قبل أن يحلّ السبت حيث لا بيع ولا شراء، واشترى كتاناً، ومضى إلى الموضع حيث صُلب المعلّم، قبل أن يُدفن الْبَارُّ مع الأشرار. لأن العادة جرت أن كل المحكومين بالموت صلباً يُدفنون في قبر جماعي يدعى، قبر الأشرار، حيث لا يجرؤ أحدٌ من أقربائهم على دفنهم في مقابر العائلة، خشية أن يلصق العار بهم وبنسلهم.

وإذ وصل الكهنة مع العسكر إلى الموضع ومعهم تعليمات بإنهاء حياة المصلوبين، «أَتَى الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقَيِ الأَوَّلِ وَالآخَرِ الْمَصْلُوبَيْنِ مَعَهُ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ». فتمّ المكتوب: «يَحْفَظُ جَمِيعَ عِظَامِهِ. وَاحِدٌ مِنْهَا لاَ يَنْكَسِرُ».

«لَكِنَّ وَاحِداً مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ» ليتأكد من موته خشية أن يكون مغشياً عليه. وبنفس الوقت ليُطمئن الكهنة الَّذِينَ معه أن يسوع قد مات. فيختم بحربته، وبطريقته الخاصة، قصة موت البار، وينهي قصّة الحبّ العجيب. «وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ. وَالَّذِي عَايَنَ (يُوحَنَّا) شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ».

وإذ «كَانَ يَوْمُ الاِسْتِعْدَادِ وَالسَّبْتُ يَلُوحُ»، ذهبَ نِيقُودِيمُوس وأحضرَ «مَزِيجَ مُرٍّ وَعُودٍ نَحْوَ مِئَةِ مَناً». وبالمشاركة مع يُوسُفَ الَّذي مِنَ الرَّامَةِ، ويُوحَنَّا، أنزلا بكل وقارٍ جسد المعلّم الممزق إلى قبرٍ يخصُّ يُوسُف الرَّامي، وهو «قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ» .. «كانَ قَدْ نَحَتَهُ في الصَّخْرَةِ»، وهو قريب من الموضع الذي صلبوا فيه المعلّم.

«وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الأَطْيَابِ كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا». فطووا اليدين المثقوبتين على صدره، ووضعوا المنديل على رأسه. ثمّ دحرجوا «حَجَراً كَبِيراً عَلَى بَابِ الْقَبْرِ» ومضوا «إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظِّلاَلُ».. ليتمّ المكتوب: «وَجُعِلَ مَعَ الأَشْرَارِ قَبْرُهُ وَمَعَ غَنِيٍّ عِنْدَ مَوْتِهِ».

«وَكَانَتْ هُنَاكَ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى -أُمُّ يُوسِي- جَالِسَتَيْنِ تُجَاهَ الْقَبْرِ»، و «كُنَّ قَدْ أَتَيْنَ مَعَهُ مِنَ الْجَلِيلِ وَنَظَرْنَ الْقَبْرَ وَكَيْفَ وُضِعَ جَسَدُهُ. ٥٦ فَرَجَعْنَ وَأَعْدَدْنَ حَنُوطاً وَأَطْيَاباً. وَفِي السَّبْتِ اسْتَرَحْنَ حَسَبَ الْوَصِيَّةِ».

يا للعجب، عندما احتاج المعلّم قبراً لتتميم عمله، اقترضه من يُوسُفَ الَّذي مِنَ الرَّامَةِ، إذ لا قبر لمن هو رئيس الحياة. وهكذا لم يكتف المعلّم أن يشارك البشرية أحزانها، لكنه صنع عجباً وعجيباً إذ شاركها قبرها.

لم تقَم للمرفوض من خاصته جنازة، إذ لم يكن وقتٌ لجنازة، أو مراسيم دفن. ولم يكن هناك ندّابات، ولا أحباء يبكون موت عزيز. وقبل أن تميل الشمس للغروب، دُفن شَمْسُ الْبِرِّ على عَجَل.

وكما ولد يسوع من مستودع جديد لم يتقدمه فيه غيره، وضع في قبر جديد لم يوضع فيه غيره، حتى لا يُظنّ في اليوم الثالث أنّ القيامة صارت لآخر غيره.

أخيراً، ومع الشمس الغاربة ليوم الجمعة، وبعد مشوار طويلٍ من العار والعذاب، طوى المعلّم يديه ذلك السبت العظيم، واضطجع هادئاً في قبر يُوسُفَ البارد والمظلم. وإذ امتلأت قلوب محبيه حزناً، امتلأت السماء «بِفَرَحٍ لاَ يُنْطَقُ بِهِ وَمَجِيدٍ».. و «تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعاً وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ» قائلين: المسيح، «هُوَ الصَّخْرُ، الكَامِلُ صَنِيعُهُ (عمله كامل)».

في ذلك السَّبْتِ العظيم لم تُسمع أصوات المغنين في الهيكل، ولا أصوات الأبواق والآلات الموسيقية. فالزلزلة، والصخور التي تشققت، والحِجَابُ الذي انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَل، والرعب الذي حلّ على الكهنة، كلّها أمور حجبت أفراح العيد عنهم فصار نَوحٌ في تلك السّنة. ومنذ تلك اللحظة فتّش كثيرون النبوات، فأدركوا معنى العيد، وأدركوا أن المعلّم المصلوب، هو مسيّا الكتاب.

وإذ جاء عيد الفطير ذَلِكَ السَّبْتِ العظيم، لم يتبقّ خمير في كلّ البيوت. فالنجاسة قد رُفعت. وفرِحَ النَّاس واستراحوا. واسْتَرَاحَ المعلّم في اليوم السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ.

عَرفهُ المجوس عند ميلاده، فسجدوا له.

عرفهُ البحر، فامتثل لصوته.

الأمراض والموت عرفتْ سلطانه فسلّمته قتلاها.

الصخور عرفتْ صوته على الصليب فارتعدت وتشققت، وكذلك الشمس، فحجبت نورها.

أمّا قضاة إسرائيل والرؤساء فلم يعرفوه ليتم المكتوب، «قَدْ هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ».

قيلَ عن المعلّم: «فَذَاعَ خَبَرُهُ فِي جَمِيعِ سُورِيَّةَ». والآن إذ رقد في القبر ذاع خبره بين خاصته أكثر، وأصابهم الخوف من مصير مماثل. أمّا تلاميذه الأحد عشر فذهب أغلبهم إِلى بَيْتِ مَرْيَمَ أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّبِ مَرْقُسَ. والبقيّة إلى بيت زَبْدِي.

الفصل الحادي والعشرون
مُرْ بضَبْطِ القَبْرِ

أُورُشَلِيم/ السبت، ١٥ نيسان العبراني

استيقظ سكان أُورُشَلِيم صباح السبت كعادتهم، وإذ أرادوا أن يفرحوا بالعيد كانت رِواية الأمس تسيطر على عقولهم. فقصة صلب المعلّم الذي كان عند الكثيرين منهم نبياً أصابتهم بالحيرة والإرباك. فتساءلوا كيف تخلى الله عنه؟ أما المعذَّبون والمرضى الَّذِينَ كان المعلّم رجاؤهم، فها هم يتقاطرون إلى الهيكل والعيون تبحث عمّن يشفي.

أمّا الكهنة الَّذِينَ سرَّهم موت يسوع، إذ نظروا المرضى في الهيكل يبحثون عن شفاء، تضايقوا، واحتاروا في أمرهم، فلا هم قادرين على شفائهم، ولا من بديل ليسوع الذي قتلوه يوم أمسٍ، فما كان منهم إلا أن طردوا الجموع من الأروقة ومنعوا النَّاس من الدخول.

في غمرة اليأس، ووسط البكاء والعويل، تعالت الأصوات مذكّرة بالمعلّم الشافي. وإذ أدرك الجميع أن نورا قد انطفأ، أدرك قضاة الأمة أن مؤامرتهم ستنكشف، وانّ ما فعلوه في الظلمة سيعلن في النور. وأنّ الذي دفنوه في البستان مازال حياً في مدينة الملك العظيم. وأنَّ ما أوقعوه من نَقمة على يسوع أسعدتهم، انقلبت عليهم مرارة. ومن الآن عليهم مواجهةُ لومِ مَنْ حرّضوهم، ولومِ ضميرٍ استيقظ جرّاء فعلتهم المشينة.

ارتجف الرؤساء إذ سمعوا الألسنة تتناقل أخبار المحاكمة الظالمة ليسوع، ووحشية من حاكموه، وقول البسطاء: «لَيْسَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ حَقُّ الْمَوْتِ لأَنَّهُ إِنَّمَا كَلَّمَنَا

بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهَنَا». وأنّ لعنةً تنتظر الأمة لأجلِ مَنْ «يَزْدَحِمُونَ عَلَى نَفْسِ الصِّدِّيقِ وَيَحْكُمُونَ عَلَى دَمٍ زَكِيٍّ».

وعندما انتهى رؤساء الكهنة والفريسيون من مراسم العيد الحزين، جلسوا يَسْمُرُونَ في دار قَيَافَا رئيس الكهنة، مهنئين أنفسهم بموت يسوع. وإذ حاولوا إقناع انفسهم بخداع يسوع، انفتح ذهنهم وتذكروا أعماله.

قال أحدهم مخاطباً قيَافَا: كنتُ أمام قبرٍ قام منه لعازر. وسَمعتُ يسوع يقول عن نفسه: «لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضاً».

قال آخر معقباً: قال يسوع أيضاً: «انْقُضُوا هَذَا الْهَيْكَلَ وَفِي ثلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ».

عندها تغيَّرت فجأة هيئتُهم، وأفزعتهُم أفكارُهُم، وَانْحَلَّتْ خَرَزُ أحقائهم، وَاصْطَكَّتْ رُكَبُهُمْ، خوفاً من قيامة ليست في حسبانٍ.

وإذ ذكّرهم عَمِّينَادَاب بما أخبرهم به الإِسْخَرْيُوطِيُّ عن نبوة يسوع: «ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى الأُمَمِ لِكَيْ يَهْزَأُوا بِهِ وَيَجْلِدُوهُ وَيَصْلِبُوهُ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ». ازداد قلقهم.

كان حَنَّان يسمع كل شيء والكلمات التي تقال هنا وهناك كانت تقود لخاتمة لم يرغب بها أحد. فوقف ليصمت الجميع، ثم قال: أمرنا الرّب على فم موسى قائلاً عن خروف الفصح الذي يُذبح: «لا يُبْقُوا مِنْهُ إِلى الصَّبَاحِ وَلا يَكْسِرُوا عَظْماً مِنْهُ». والذي صلبناه في وقت تقديم ذبيحة الفصح مات دون أن نكسر منه عظماً. مع أنكم يا أخوتي طلبتم من بيلاطُس الوالي أن تُكسر سيقان المصلوبين الثلاثة، فكُسرت ساقي اللصين، أمّا هو فلمْ «يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ».

كان الاستنتاج بأن يسوع هو المرموز إليه بخروف الفصح مخيفاً، فلم يجرؤ أحد على قوله. وبدل ذلك، تلمّسوا رؤوسهم وتصبب العرق منهم. وأدركوا أن الظلمة التي

خيّمت على عقولهم، كانت أشدّ من الظلمة التي لفت الأرض في وشاحها عند الصليب. وإنه بغبائهم حققوا النبوة، ويسوع سيقوم كما قال.

«وَفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ الاسْتِعْدَادِ (السبت) اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ إِلَى بيلاطُس قَائِلِينَ: يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ لِئَلَّا يَأْتِيَ تَلاَمِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ فَتَكُونَ الضَّلاَلَةُ الأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الأُولَى». ثم تابعوا: ونحن ندفع للجنود أجرهم!

مرّة أخرى دخلوا بيت أممي وتنجسوا في العيد حسب قولهم. يا لعارهم، يجتمعون مع بيلاطُس يوم السبت عوض اجتماعهم بيهوه.

فوجئ بيلاطُس بزيارتهم غير المرغوب فيها. وفوجئ أكثر بطلبهم حراسة مَيْتٍ، مع تغطية تكاليف الحراسة. فاستهجن الأمر، وقال لهم: لم اسمع أبداً بحراسة قبر مَيْت، ولم يُكلف الجنود الرومان في كل الإمبراطورية بهكذا مهمة. ثم التفت إلى قائد المئة قائلاً: ماذا سيقول الإمبراطور عني لو أرسلت جنود روما لحراسة قبر مَيْت؟ ثم التفت إلى رؤساء الكهنة قائلاً: نحن لسنا في مصر لنحرس قبر الفرعون.

قال قائد الجند معقباً: سيدي، من هو الشخص الذي سيسرق مَيْت، وماذا سيفعل به. لقد صلبنا يسوع، وتأكدنا من موته. ودُفن يوم أمس في قبر يُوسُف الرَّامي. ثم توجه بالحديث للكهنة قائلاً: اليوم هو سبتٌ، وانتم لا تعملون شيئاً في هذا اليوم. فمن هو اليهودي الذي سيكسر يوم السبت، ويسرق ميتاً، ويتنجس به؟

قال بيلاطُس: ما تقوله أيها القائد حق. ثم قال للرؤساء: أليس في طلبكم جنوناً؟

عندها قال له أحد الرؤساء: يا سمو الحاكم بيلاطُس. نحن قادة الأمة التي أنت واليها، ونحن لسنا بمجانين. لكننا إذ نتكلم من جهة هذا المضل نقول لك: أرسل جنداً ليحرسوا قبره، خشية أن يأتي بعض تلاميذه ويسرقوه، لأن يسوع قد

سبق وادعى أنه سيقوم في اليوم الثالث، أي في يوم الأحد. واليوم هو سبت، أي سيكون الجنود عند القبر ليومين فقط. ثم استطرد يقول: طبعاً نحن لا نصدق هذا الأمر ولا سموّك. لكن لو سُرقت جثته فسَيُشيعُ اتباعه أنه حيٌّ. فتكون هذه الضلالة أشر ما قيل في وسط أمتنا.

قال بيلاطُس وعلامات التعجب ظاهرة على وجهه: هو قال أنه سيقوم! أجابه أحد الرؤساء: نعم، هو قال. قال بيلاطُس بشيء من الشك: وهل يقدر؟ قال أحد الرؤساء: كلا لا يقدر. لكن القول انتشر بين تلاميذه. قال بيلاطُس: وكيف عرفتم أنتم، أن القول انتشر بين تلاميذه؟ قال أحد الرؤساء: يا سمو الوالي، ما لنا وهذا الحديث. سندفع لك أجرة الجنود، وكل ما تطلبه من نفقات.. طلبُنا ليس صعباً، وأرجو أن تجيبنا وتريحنا مِن همّ هذا المائِت.

حديث الكهنة عن قيامة يسوع من قبره ملأ الوالي بيلاطُس رعباً، وجَعَلَها أمراً متوقعاً. وإذ لم يرغب بيلاطُس في مواجهة يسوع ثانية قَالَ لَهُمْ بضجرٍ وبقليل من الخوف: «عِنْدَكُمْ حُرَّاسٌ. اذْهَبُوا وَاضْبُطُوهُ كَمَا تَعْلَمُونَ. فَمَضَوْا وَضَبَطُوا الْقَبْرَ بِالْحُرَّاسِ وَخَتَمُوا الْحَجَرَ» ليحجزوا فيه المعلّم إلى الأبد.

وسرعان ما انتشرت الأخبار أن الوالي أمر بضبط القبر بحراس حتى اليوم الثالث من موت المعلّم. وإذ شاهد النَّاس الحراس حول القبر كانوا يقولون: يبدو أنّ الوالي لديه خوف من نبي الناصرة حتى وهو مَيْت في قبره. بينما آخرون كانوا يقولون: لا بد أن هذه هي رغبة الكهنة، فهم الَّذِينَ يخافون نبي الناصرة حتى وهو مَيْت في قبره.

قالوا كلمتهم: لن يصبح القبر فارغاً. لكنّ «اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ. الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ».. صخرُ الدهور لا يسكن الصخور. فلا الحجر، ولا الختم، ولا الحراس، ولا جيشٌ بأكمله يقدر أن يَحول بين المعلّم وقيامته من بين الأموات. وغداً لناظره قريب.

الفصل الثّاني والعشرون
زلزالٌ جديد وقَبْرٌ مفتوحٌ

أُورُشَلِيم/ الأحد، ١٦ نيسان العبراني

مع نهاية يوم الجمعة، أدركت النسوة أن عملية تكفين المعلّم الذي دُفن في قبر يُوسُف الرَّامي على عَجلٍ لن تتم. فذهبت مَريم المجدَلِيَّة[١] الَّتي كانَ المعلّم قَدْ أَخرج منها سَبْعَةَ شَيَاطِين، ومَريم أُمُّ يَعْقُوب[٢]، وسَالُومَة[٣]، قبل أن يدخل السَّبْت، واشترين حنوطاً وأطياباً ليكملن عملية تكفينه. «وَفِي السَّبْتِ اسْتَرَحْنَ حَسَبَ الْوَصِيَّةِ».

كان بيت زَبْدِي كبيراً، فاستضاف، مَريم أمّ يسوع، وأختها زوجة كِلُوبَا، ومَريم المجدَلِيَّة، وسَالُومَة، وَيُوَنَّا امْرَأَةُ خُوزِي وَكِيلِ هِيرُودُسَ أَغْرِيبَاس، وَسُوسَنَّةُ وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ. اللواتي أمضين يوم الجمعة والسبت وهن يتحدثن عن أعمال يسوع، وقصة صلبه، وموته، ودفنه في قبر يوسف الرَّامي. وكانت المجدَلِيَّة أغلب الوقت تكرر السؤال على الجميع وهي تقول: يا ترى من سيدحرج لنا الحجر لنكمل عملية تكفين المعلّم؟ إذ كانت مشغولة جداً وقلقة من حجم الحجر الضخم الذي دُحرج على قبر المعلّم. وفي كلّ الحوارات كانت أم يسوع شاردة الذهن وكأنها لا

١– لُقبت بالْمَجْدَلِيَّة نسبة إلى موطنها الأصلي في مجدل، التي تقع على الساحل الغربي لبحر الجليل. وقد شفاها الرب عندما أخرج منها سبعة شياطين. كانت ثريّة. وهي إحدى النساء اللواتي تبعن الرب وكن يخدمنه من أموالهن (مرقس١٥: ٤١).

٢– هي مَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ الصَّغِيرِ وَيُوسِي. إحدى النسوة الجليليات اللواتي كان الرب قد شفاهن من أرواح شريرة وأمراض، وقد تبعنه من الجليل، وخدمنه من أموالهن. وابنها يَعْقُوب الصغير هو نفسه، يَعْقُوب بن حَلْفَى أحد الرسل الاثني عشر (متى١٠: ٣).

٣– هي زوجة زبدي. ابناها يُوحَنَّا ويَعْقُوب من رسل المسيح الاثني عشر.

تسمع ما يُقال. حتى عندما اتفقت النسوة على المجيء إلى القبر فجر الأحد، وشاركنها الأمر. نظرت إليهنّ دون أن تجيب. فقالت أختها زوجة كِلُوبَا للبقيّة: ليكن الرّب في عونها، حتى دموعها لم أرها، يبدو أنها قد جفّتْ.

وفي أول الأسبوع، إذ لم تستطع النسوة النوم. غادرن المنزل «بَاكِراً وَالظّلاَمُ بَاقٍ»، و«أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ حَامِلاَتٍ الْحُنُوطَ الَّذِي أَعْدَدْنَهُ وَمَعَهُنَّ أُنَاسٌ» ليُكرمن جسد المعلّم. أمّا زوجة كِلُوبَا، أخت مَريم أم يسوع، بقيت معها في المنزل.

في طريقهم نحو أسوار أُورُشَلِيم، كنّ يتحدثن عن أعمال المعلّم المجيدة، وعن الأحداث التي رافقت صلبه ودفنه، وإذ تذكرن تحنيطه الذي تمّ على عجلٍ ترقرقت الدموع في عيونهن. وقبل أن تشرق الشمس، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، وصلن إلى الباب الغربي لأُورُشَلِيم المؤدي إلى تلٍ، يُقَالُ لَهُ، جُلْجُثَةُ. الواقع على أول طريق أريحا. فالتهبت قلوبهنّ للقاء الحبيب.

قالت الْمَجْدَلِيَّة وهي تبكي: يصعب عليّ أن أقابل المعلّم وهو في الكفن. قالت سَالُومَة وهي تبكي: معكِ حق، جسدي كله يرتجف، هل يعقل أن يكون لقاؤنا الأخير معه في قبر بارد. أجابت مَريم أُمُّ يَعْقُوب وهي تبكي أيضاً: إذ فقدنا المعلّم لم يبق لدينا رجاء. لطالما أدخل الأمل والبهجة إلى قلوبنا. كنّا نخرج معه في الصباح نجول في الحقول وبين النَّاس يكلمنا بأطيب الكلمات، يشفي المرضى ويطهّر البُرص ويصنع الخير للجميع، والآن سنقابله في قبرٍ مظلمٍ. أكاد لا أصدق، أن المعلّم قد مات.

كان الحزن قد خيّم عليهن، لذلك لم يفكرن أبداً بقيامة المعلّم، متناسياتٍ قوله: «وَلَكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ». وفي يأسٍ «كُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ». ورغم ذلك، تقدّمن نحو البستان.

كانت الأوامر أن يُضبط القبر حتى اليوم الثالث. وإذ لاح فجر الأحد، صار حقّ للتلاميذ أن يرفعوا الحجر. لكن قبل أن يرفعوه، نزل ملاك من السّماء محدثاً زلزلة

عظيمة أرعبت النسوة وهن ما زلن عند أبواب أُورُشَلِيم، ذكّرتهم بالزلزلة التي حدثت عندما أَسْلمَ يسوع الروح وهو على الصّليب.

كان المعلّم الذي «السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءَ السَّمَاوَاتِ لاَ تَسَعُهُ» لايزال سجيناً في قبرٍ ضيّق. والحجر الكبير لايزال في مكانه. وختمُ الرومان سليماً غير مكسور. والجند الرومان في مكان حراستهم. «وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ».. و «تَرَنَّحَتِ الأَرْضُ تَرَنُّحاً كَالسَّكْرَانِ وَتَدَلْدَلَتْ كَالْعِرْزَالِ»، «لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ وَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ. فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ» منطرحين على الأرض، ومرعوبين من الزلزلة ومنظره.

وإذ دُحرج الحجر تكريماً للمسيح، كما تُفتح الأبواب أمام الملوك. خرج المعلّم الرّب من باب القبر، ليخرّ أمامه ملاك الرّبّ ساجداً هاتفاً: «لَكَ يَا رَبُّ الْعَظَمَةُ وَالْجَبَرُوتُ وَالْجَلاَلُ وَالْبَهَاءُ وَالْمَجْدُ، لأَنَّ لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. لَكَ يَا رَبُّ الْمُلْكُ، وَقَدِ ارْتَفَعْتَ رَأْساً عَلَى الْجَمِيعِ».

بقيامة المعلّم الرّب، بعض «الْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ».

إنّ الأسير الّذي هزأوا به. الّذي ضفروا إكليل شوك ووضعوه على رأسه. الّذي وقف مستسلماً أمام بيلاطُس وهِيرُودُس. الّذي تمزّق جسده من الجَلد والمسامير. الّذي عُلّق مصلوباً بين اللصوص. الّذي وضِع على عَجلٍ في قبر يُوسُف الجديد. الّذي قبضوا ثمن حراسته ميتاً، خرج من القبر مُمجداً أمام الحرّاس، فغشي عليهم، و «أَخَذَتْهُمُ الرَّعْدَةُ هُنَاكَ وَالْمَخَاضُ كَوَالِدَةٍ».

يا له من يوم عجيب. زلزال، وملائكة، وقبر مفتوح، ومَيْتٌ يقوم والحراس بعد يحرسون. ارتعب الحراس شهود القيامة الأوائل. كانت الثواني لهم ساعات من

الخوف، فانطرحوا على الأرض كالسكارى. البعض اختبأ خلف صخرة، والبعض التصق برفيقه مختبئاً خلفه.

مشهد الملاك المنحني أمام يسوع المسيح، المَيْتُ المُقام، مرعبٌ. راقبُوا الملاك فرأوه أعظم من روما في كل مجدها. راقبوا المُقام فاختفى. تلفتوا حولهم برعبٍ لئلا يباغتهم أمر ما. وبينما عيونهم كالبوم مفتوحة، وأنفاسهم محتبسه خوفاً، ظهر بغتةً أمام القبر نسوة، فتعطر المكان من طيبهنَّ وحنوطِهنَّ.

وإذ وصلت النسوة البستان «طَلَعَتِ الشَّمْسُ»، وكنّ يتساءلن: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ»؟ «فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ»، مع أنه كانَ كبيراً جداً. ورأين الحرّاس أيضاً مُنطرحين على الأرضِ كَأَمْوَاتٍ بلا حراكٍ، فتحيّرن جداً.

تقدّمت الْمَجْدَلِيَّة بجرأة تاركة خلفها رفيقتيها، وتجاوزت دائرة الحراس حول القبر دون أن يعترضها أحد، فقد كانوا مشلولين من الرعب. ثمّ دَنت من القبر بخوف. وإذ أطلّت من الباب ولم ترَ جسد المعلّم الرّب، ظنّت أنه سُرق. فتركت النِسوة اللواتي كن معها دون أيّة كلمة، وتركت الأَطْيَابَ عند القبر وعادت مسرعة إلى المدينة، إلى بُطْرُس، في بيتِ مريَم أُمّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، وهناك قالت بلسانِ جميع من كانوا معها: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».

احتار بُطْرُس في الأمر غير مصدقٍ، ولم تعد قدماه تحتملانه، استند على الجدار ملتقطاً أنفاسه، ثم طلب منها أن تكرر ما قالته، فكررته بأكثر قوة. كان الغضب في عينيها لا يخفي نفسه، فقال لها بُطْرُس: حسناً، حسناً، هيا لنذهب إلى بيت يُوحَنَّا ابن زَبْدِي. أسرعا الخُطى، وإذ لم يكن البيت بعيداً وصلاه بعد وقت قليل. وهناك أمام بُطْرُس ويُوحَنَّا كررت القول بفزعٍ: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ». وإذ بدا عليهما الارتباك، ولم يعرفا بماذا يجيباها، تركتهم الْمَجْدَلِيَّة ، وعادت إلى القبر ثانية.

استغربت النسوة تصرف الْمَجْدَلِيَّة التي غادرتهم، وإذ رأوا الحرّاس منطرحين على الأرض ولم يعترضوا الْمَجْدَلِيَّة، تجاسرن، ودخلن القبر البارد متجاوزين الحرّاس بدافع الفضول، ومعهن الأَطْيَاب. وإذ اكتشفن غياب الجسد تحيرن. وإذ نظرنَ «الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَحْدَهَا»، «وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الأَكْفَانِ بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ» زادت حيرتهنّ. وتساءلن: كيف انسحب جسد المسيح من الأكفان الملفوفة حوله؟ ثم خرجن ووقفن عند باب القبر وتساءلن: لماذا الحراس مشلولين في مكانهم لا يتحركون؟

«وَفِيمَا هُنَّ مُحْتَارَاتٌ فِي ذَلِكَ إِذَا رَجُلاَنِ وَقَفَا بِهِنَّ بِثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ. وَإِذْ كُنَّ خَائِفَاتٍ وَمُنَكِّسَاتٍ وُجُوهَهُنَّ إِلَى الأَرْضِ قَالاَ لَهُنَّ: لِمَاذَا تَطْلُبْنَ الْحَيَّ بَيْنَ الأَمْوَاتِ؟ لَيْسَ هُوَ هَهُنَا لَكِنَّهُ قَامَ! اُذْكُرْنَ كَيْفَ كَلَّمَكُنَّ وَهُوَ بَعْدُ فِي الْجَلِيلِ قَائِلاً: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُسَلَّمَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي أَيْدِي أُنَاسٍ خُطَاةٍ وَيُصْلَبَ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ». ثم قال الملاك الآخر: «هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعاً فِيهِ». فنزلن ثانية إلى القبر كما قال الملاك ونظرن فتحيرن. فتابع الملاك كلامه قائلاً: «اذْهَبَا سَرِيعاً قُولاَ لِتَلاَمِيذِهِ إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ».. «إِذْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِناً أَنْ يُمْسَكَ مِنْهُ (الموت)». ومن شدة الدهشة لم يفهمن كلام الملاك فبقين مُسمَّرات في مكانهما. عندها تدخل الملاك الأول واقترب منهن وقال لهن بلطف: هيا «اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ». وإذ تيقنتا أن المسيح قد قام أمسكت كل واحدة بيد الأخرى. «فَخَرَجَتَا سَرِيعاً مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ»، تاركتين الأَطْيَاب في القبر. وفي الطريق إلى بيتِ مريَم أُمّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، «لَمْ يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيْئاً لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ». أمّا منظرهن فكان مثيراً للتساؤل.

الفصل الثّالث والعشرون
سَرَقُوهُ وَنَحْنُ نِيَامٌ

لما اختفت الملائكة والنسوة من أمامهم، وقف الحراس على أقدامهم ممسكين أيادي بعضهم بعضاً. تشاوروا، ثم على قدر المستطاع حملتهم أرجلهم المرتعدة خلف النسوة إلى باب البستان. ثم «جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرُوا رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ بِكُلِّ مَا كَانَ»، لِتُحمل بشارة القيامة إلى الأصدقاء والأعداء بذات الوقت.

منظرهم كان غريباً، حراسٌ صناديدٌ يرتجفون خوفاً. وجوههم قد شحبت وهم يشهدون عن الميْتِ المُقام. كانت شهادتهم صادقة إذ لا وقت للتلفيق والتزوير. قالوا كل شيء كما قد رأوه. كلّ الحق. وبأصوات متلعثمة رددوا: المصلوب، بالحقيقة قام. ونحن شهود لذلك.

تغيّرت وجوه الكهنة، فبدت كوجوه الحرّاس شاحبة. «فَاجْتَمَعُوا مَعَ الشُّيُوخِ وَتَشَاوَرُوا» مشورة سوءٍ زكّوها بالفضة.

حاول قيَافَا أن يتكلّم. انفرجت شفتاه، لكنّه لم ينبس ببنت شفة. جلس على كرسيّه يحتضن رأسه بيديه. وإذ التفت الحرّاس إلى الباب استوقفهم قائلاً بصوت محشرج: «قُولُوا إِنَّ تَلاَمِيذَهُ أَتَوْا لَيْلاً وَسَرَقُوهُ وَنَحْنُ نِيَامٌ». توقّف الحراس قليلاً، وأصابهم الرعب، لأنهم يدركون أن هذا يعني نهاية حياتهم. فالقانون الروماني يعاقب الحارس الذي يهرب منه المجرم بنفس عقوبة المجرم. فإن هرب المصلوب ينتظرهم الصليب.

أدرك قيَافَا ما يفكر به الجنود المرعوبون، فاستكمل كلامه: «إِذَا سُمِعَ ذَلِكَ عِنْدَ الْوَالِي فَنَحْنُ نَسْتَعْطِفُهُ وَنَجْعَلُكُمْ مُطْمَئِنِّينَ». ثم أشار بإصبعه فأَحضر مَلْخُسَ الفضة «وَأَعْطَوُا الْعَسْكَرَ فِضَّةً كَثِيرَةً». وقال لهم: اطمئنوا فخزائن بيت المال في الهيكل

ملآنة من فلوس الأرامل. «فَأَخَذُوا الْفِضَّةَ وَفَعَلُوا كَمَا عَلَّمُوهُمْ فَشَاعَ هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَ الْيَهُودِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ». وفي حيرتهم تناسى الحراس أن يسألوا قيّافا، بماذا سنجيب لو سألنا أحدهم: كيف عَرَفتم أن التلاميذَ سرقوا الجسد.. طالما أنتم نيام؟

لو سَرق التلاميذ الجسد، أو نام الحراس عند القبر، أَما كان الكهنة أول المشتكين عليهم. ثم كيف يمكن لتلاميذ مرعوبين أن يخططوا لسرقة جسد مَيْت من قبرٍ يحرسه جنود رومان أشدّاء، فيعرضوا أنفسهم لخطر الموت. ثمّ ما هو دافعهم لذلك إن كانوا أصلاً لم يؤمنوا بقيامة المعلّم من بين الأموات؟ ولكن ليتمّ المكتوب: «إِنِّي بِذَوِي أَلْسِنَةٍ أُخْرَى وَبِشِفَاهٍ أُخْرَى سَأُكَلِّمُ هَذَا الشَّعْبَ وَلاَ هَكَذَا يَسْمَعُونَ لِي يَقُولُ الرَّبُّ».

انتشرت الأخبار سريعاً. التلاميذ سرقوا الجسد والحرّاس نيام، ووصلت الوالي بيلاطُس الذي في غضبه قرر قتل الحراس صلباً. وإذ طَلب الحراس للمحاكمة، سبقهم رؤساء الكهنة وقايضوه بالمال. فأطلق الحرّاس ودخل مَخدعه مُغلِقاً أبوابه بالمزاليج. هناك التقى زوجته صاحبة الأحلام وكلّمها بخوفٍ عن المصلوب المُقام، وعن الكهنة الأشرار الَّذِينَ ألزموه أن يصلب البريء ويطلق سراح القاتل. وإذ نظر إلى الجدار شارداً همست من خلفه: قد يلتقيك يسوع في الشوارع، أو خلف المزاليج في الغرف المغلقة، سائلاً عن ماء غسلت فيه يديك «قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ».

هؤلاء الكهنة «أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ...يَدُسُّونَ بِدَعَ هَلاَكٍ. وَإِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ الرَّبَّ الَّذِي اشْتَرَاهُمْ، يَجْلِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَلاَكاً سَرِيعاً...الَّذِينَ بِسَبَبِهِمْ يُجَدَّفُ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ...الَّذِينَ دَيْنُونَتُهُمْ مُنْذُ الْقَدِيمِ لاَ تَتَوَانَى وَهَلاَكُهُمْ لاَ يَنْعَسُ». هؤلاء قد كَتبوا مصيرهم بأيديهم وفي سجلاتهم دوّنوه.

وإذ بات الكهنة يخشون غضب الشعب، نشروا بالمال والتهديد أَقْوَالاً كَاذِبَة عن المعلّم الرّب في كلّ مكانٍ. لكنّ الَّذِينَ «خَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ» أرعبوهم فوق كراسيهم.

الفصل الرّابع والعشرون
لقاءٌ مع الرّب المُقام

تركت الْمَجْدَلِيَّةُ بُطْرُس وَيُوحَنَّا في حيرة وقلقٍ، وعادت ثانية إلى القبرِ حيث وُضع الحبيب. كانت تركض متلهّفة حزينة، والسؤال يلحّ عليها: أين وضعوا الحبيب. اصطدمت بالبعض فلم تأبه. تعثرت وسقطت وسط الآهات فلم تأبه. ناداها البعض فلم تسمع. لوّحت لها بعض النسوة فلم ترَهنَّ. غطّى الشال عينيها فلم ترفعه. كانت تسابق الريح مضطربة، ولم يوقفها إلا مشهد القبر المفتوح.

أمّا النسوة المرتبكات اللواتي غادرن القبر «بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ» في أورشليم، لم يلحظن الْمَجْدَلِيَّةُ في الطريق. كُنَّ يتبادلن الحديث عن القيامة ويتساءلن: تُرى أَيُصدِّق الرّسل الكلام.

أمّا الْمَجْدَلِيَّةُ إذ وصلت إلى البستان وحيدة، وقفت «عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ». مشاعرها الفياضة سمّرتها في الموضع. حبّها الفائق للمعلّم الغائب جعلها بين الحين والآخر منحنية نحو القبر، متنسمة رائحة الأطياب الموضوعة، متطلّعة لعلّه يوجد ما يعزّيها.

فجأة نظرت «ملاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِداً عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعاً. فَقَالاَ لَهَا: يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ». إذ أدهشهم في يوم القيامة أن يقف البشر عند القبر باكين. فقالتْ لَهُمَا وهي لا تعلم أنهما ملاكين: «أَخَذُوا سَيِّدِي وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».

بكت وتذللت. انحنت إلى الأرض بمرارة إذ لم يكلمّها الملاكان. وقفت من جديد وعيناها متورمتان، وإذ أرادت الكلام غصّت فاختنق بين شفتيها.

فجأة انحنى الملاكان، فأدركت مجيء سيّد خلفها، «الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفاً وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ: يَا امْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟ فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ فَقَالَتْ لَهُ: يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ وَأَنَا آخُذُهُ»، وأجهشت باكيةً.

أجاب المعلّم الرّب: يا مَرْيَم، «امْنَعِي صَوْتَكِ عَنِ الْبُكَاءِ وَعَيْنَيْكِ عَنِ الدُّمُوعِ لأَنَّهُ يُوجَدُ جَزَاءٌ لِعَمَلِكِ». ففكّ عنها أكفانها وانفتحت عيناها وأبصرت. «فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: رَبُّونِي[1]».. «صَوْتُ حَبِيبِي». واندفعت نحوه بكل قواها، ورمت نفسها باكيةً في حضنه. ثمّ طوقته بذراعيها حتى لا يَفلت منها. يا له من امتياز أن يظهر لها أولاً قبل التلاميذ.

قال لها المعلّم الرّب بلطفٍ: كفى يا مَرْيَم، لا تلمسيني وتعانقيني هكذا، أنت تملكين فرصاً أخرى لرؤيتي ثانيةً «لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلَكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ»، إني سوف «أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُم». واختفى المعلّم الرّب عن ناظريها.

يا للعجب. الملائكة تسجد للمسيح، والبشر يعانقونه.

طارت من الفرحة، وركضت من جديد تسابق الريح إلى حيث أمرها المعلّم الرّب. تارة كانت تضحك، وتارة كانت تقفز مكلمةً نفسها غير عابئة بكل من رآها. وبينما جاءت حزينة بعيون لا تبصر، عادت فرحة بعيون مفتوحة.

---

[1] – وردت هذه الكلمة ῥαββί، ١٥ مرة في العهد الجديد، وتُلفظ (رابي). وهي كلمة آرامية، تُفيد لقب احترام، وتعني حرفياً (يا معلّم، أو يا سيّدي). والأفضل أن نكتبها رابي بدل (ربّي)، أو رابوني بدل (رَبُّونِي) لتمييزها من لقب السيادة الذي نطلقه على الرّب.
أضواء على ترجمة البستاني فانديك (العهد الجديد)، الدكتور غسان خلف، ص٣٤–٣٥.

أمّا النسوة، «وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: سَلاَمٌ لَكُمَا. فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: لاَ تَخَافَا. اذْهَبَا قُولاَ لِإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي». ثمّ اختفى المعلّم الرّب عن ناظريهما.

عند بوابة أورشليم التقت الْمَجْدَلِيَّةُ مع النسوة. تبادلن الأخبار. تعانقن. قفزن كالأيائل على المرتفعات، وسُمِع الصوتُ: الربّ قام، الربّ قام. ومنذ هذه اللحظة، صار الرّجاء حياً للباكين عند القبور.

الفصل الخامس والعشرون
أخبارٌ لا تُصدَّق!

أما بُطْرُس وَيُوحَنَّا فبعد أن تركتهم الْمَجْدَلِيَّة، صاروا في ارتباك. تشاورا بخوفٍ، ثم انطلقا إلى البستان لاكتشاف الحقيقة والتأكد من قول الْمَجْدَلِيَّة.

ركض بُطْرُس فسبقه يُوحَنَّا. تعثر أحدهما وهو يَسأل: كيف يُسرق المعلّم والحراس عند القبر في البستان. أجابه الآخر: لعلّهم الكهنة ورؤساء الدّين هم من سرقوه. وإذ كان الطريق مزدحماً بسبب العيد، لم يلحظا النسوة العائدات إلى أُورُشَلِيم.

توقف بُطْرُس في البستان مستغرباً غياب الحرّاس. أمّا يُوحَنَّا فتوقف عند القبر لاهثاً «وَانْحَنَى فَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتْبَعُهُ وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً. وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الأَكْفَانِ بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَه».. «فَمَضَى مُتَعَجِّباً فِي نَفْسِهِ مِمَّا كَانَ».. «فَحِينَئِذٍ دَخَلَ أَيْضاً التِّلْمِيذُ الآخَرُ- يُوحَنَّا - الَّذِي جَاءَ أَوَّلاً إِلَى الْقَبْرِ وَرَأَى فَآمَنَ» بقول الْمَجْدَلِيَّة، «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».

في طريق العودة سأل بُطْرُس: كيف انسلَّ الجسد الْمَيْتُ من اللفائف دون فكّها كما تنسل الفراشة من شرنقتها. أجاب يُوحَنَّا بعدم إيمان: حقاً أخذوا المعلّم وما ينتظرنا رهيب. ثمّ سأل بُطْرُس: أليس في مثل هذه المواقف يأتي مزيد من الحراس والقادة، فما بالهم غائبين.

كانت أقواله مع صديقه نافية افتراض القيامة، «لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ: أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ مِنَ الأَمْوَاتِ». فبدا إيمانهم أضعف من الَّذِينَ وضَعوا حراساً على القبر وختموه.

وإذ أُمسكت أعينهما لم يَريا النسوة وسط الزحام. كانت من الخوف أرجلهم سريعة، فسبقا النسوة إلى أُورُشَلِيم. وهناك جمعا الإخوة إلى بيتِ مريَم أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، «الأَحَدَ عَشَرَ وَجَمِيعَ الْبَاقِينَ». وأخبراهم انّ القبر فارغٌ والحجر مدحرجٌ والحرّاس غائبون، وأنهم «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».. «وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ[1] إِسْرَائِيلَ».

وبينما يخمّنون الأحداث «وَهُمْ يَنُوحُونَ وَيَبْكُونَ»، والخوف قد ملأ قلوبهم من الكهنة. دخلت النسوة مهللات «مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَيُونَّا وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَالْبَاقِيَاتُ مَعَهُنَّ»، والْمَجْدَلِيَّةَ تقول: نظرتهُ، قد قام، قد قام، بالحقيقةِ قامْ. طارحاً أردية الموت لبني الموت، لابساً النور كثوب من جلال.

«فَلَمَّا سَمِعَ أُولَئِكَ أَنَّهُ حَيٌّ وَقَدْ نَظَرَتْهُ لَمْ يُصَدِّقُوا». وإذ أكّدت الباقيات ذلك، أضفنَ، قال المعلّم الرّب: «اذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي».. «فَتَرَاءَى كَلاَمُهُنَّ لَهُمْ كَالْهَذَيَانِ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُنَّ». لكنّ قوماً مَضَوا «إِلَى الْقَبْرِ فَوَجَدُوا هَكَذَا كَمَا قَالَتْ أَيْضاً النِّسَاءُ وَأَمَّا هُوَ فَلَمْ يَرَوْهُ»، فتحيروا. أمّا التلاميذ فتفرقوا متعاهدين على اللقاء ثانية مساء هذا اليوم في بيتِ مريَم أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس.

أمّا النسوة فذهبن إلى بيت زبدي وهناك أخبرن مَرْيَم أم يسوع وأختها زوجة كِلُوبَا بقيامة الرب. ما أن سمعت مَرْيَم الخبر حتى نهضت مبتسمة وهي تقول: ربي وإلهي.

---

[1] – **المقصود أن ينجّي إسرائيل من نير الرومان ويقيم مملكة داود.**

الفصل السّادس والعشرون
على الطريق إلى عِمْوَاس

أُورُشَلِيم/ الأحد، الاثنين ١٦، ١٧ نيسان العبراني

بعد مشاورات طويلة تفرّق التلاميذ وتعاهدوا على الاجتماع عشية هذا اليوم. أمّا كَلْيُوبَاس ورفيقه فقد انطلقا «فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قَرْيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أُورُشَلِيمَ سِتِّينَ غَلْوَةً[1] اسْمُهَا عِمْوَاسُ». والعبارة الحزينة: «كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ» لم تفارق ألسنتهم، ظانّين أنّ رِواية المعلّم الرّب قد انتهت.

في الطريق «كَانَا يَتَكَلَّمَانِ بَعْضُهُمَا مَعَ بَعْضٍ عَنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ» وقلباهُما مثقّلان بالحزن. «وَفِيمَا هُمَا يَتَكَلَّمَانِ وَيَتَحَاوَرَانِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمَا يَسُوعُ نَفْسُهُ».. وقد «ظَهَرَ بِهَيْئَةٍ أُخْرَى».. «وَكَانَ يَمْشِي مَعَهُمَا».. «وَهُمَا يَمْشِيَانِ مُنْطَلِقَيْنِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ».. «وَلَكِنْ أُمْسِكَتْ أَعْيُنُهُمَا عَنْ مَعْرِفَتِهِ فَقَالَ لَهُمَا: مَا هَذَا الْكَلاَمُ الَّذِي تَتَطَارَحَانِ بِهِ وَأَنْتُمَا مَاشِيَانِ عَابِسَيْنِ».. «١٨فَأَجَابَ أَحَدُهُمَا، الَّذِي اسْمُهُ كَلْيُوبَاسُ وقالَ لهُ: «هَلْ أَنْتَ مُتَغَرِّبٌ وَحْدَكَ فِي أُورُشَلِيمَ وَلَمْ تَعْلَمِ الأُمُورَ الَّتِي حَدَثَتْ فِيهَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ؟» ١٩فَقَالَ لَهُمَا: «وَمَا هِيَ؟» فَقَالاَ: «الْمُخْتَصَّةُ بِيَسُوعَ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي كَانَ إِنْسَاناً نَبِيّاً مُقْتَدِراً فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ اللهِ وَجَمِيعِ الشَّعْبِ. ٢٠كَيْفَ أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَبُوهُ. ٢١وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ»، فيخلّصه من الرومان ويقيم مملكة أبينا داود. «وَلَكِنْ، مَعَ هَذَا كُلِّهِ، الْيَوْمَ لَهُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ مُنْذُ حَدَثَ ذَلِكَ. ٢٢بَلْ بَعْضُ النِّسَاءِ مِنَّا حَيَّرْنَنَا إِذْ كُنَّ بَاكِراً عِنْدَ الْقَبْرِ، ٢٣وَلَمَّا لَمْ يَجِدْنَ جَسَدَهُ أَتَيْنَ قَائِلاَتٍ: إِنَّهُنَّ رَأَيْنَ مَنْظَرَ

[1] – نحو عشرة كيلومترات.

مَلاَئِكَةٍ قَالُوا إِنَّهُ حَيٌّ. ٢٤وَمَضَى قَوْمٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَنَا إِلَى الْقَبْرِ، فَوَجَدُوا هَكَذَا كَمَا قَالَتْ أَيْضاً النِّسَاءُ، وَأَمَّا هُوَ فَلَمْ يَرَوْهُ».

وإذ أجابا بغير حكمةٍ، قالَ لَهُمَا: «أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَا الْقُلُوبِ فِي الإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ ٢٦أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ بِهَذَا وَيَدْخُلُ إِلَى مَجْدِهِ؟» ٢٧ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ».

«ثُمَّ اقْتَرَبُوا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَا مُنْطَلِقَيْنِ إِلَيْهَا وَهُوَ تَظَاهَرَ كَأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ. فَأَلْزَمَاهُ قَائِلَيْنِ: امْكُثْ مَعَنَا لأَنَّهُ نَحْوُ الْمَسَاءِ وَقَدْ مَالَ النَّهَارُ. فَدَخَلَ لِيَمْكُثَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا اتَّكَأَ مَعَهُمَا أَخَذَ خُبْزاً وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَنَاوَلَهُمَا». وإذ بسط يديه رأيا أثار المسامير فيهما، «فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَرَفَاهُ». تراجعا في دهشة، واختنقت الكلمات في شفاههم، وخرّا ساجدين أمامه، أمّا هو فاختفى عن ناظريهما.

وقف كَلْيُوبَاس ورفيقه، ثمّ تطلّعا إلى حيث كان يجلس المعلّم الرّب، الذي كان جسمه مدفونا في القبر إلى وقت قريب، وقال أحدهما للآخر: «أَلَمْ يَكُنْ قَلْبُنَا مُلْتَهِباً فِينَا إِذْ كَانَ يُكَلِّمُنَا فِي الطَّرِيقِ وَيُوضِحُ لَنَا الْكُتُبَ».

في هذا الوقت كان بُطْرُس وتُومَا يسيران في أزقة أورشليم بحذر وهما يتحدثان عن قصة القيامة التي أَخبرت بها النسوة، وكل واحد منهما يبدي رأيه من زاوية مختلفة. ولكن كلاهما اتفقا أنّ كلام النسوة ضربٌ من الهذيان. وإذ تكلّم بُطْرُس عن الجسد المفقود من القبر قائلاً: ما هو تفسيرك يا أخي لما حدث معي، عندما دخلتُ القبر ونظرتُ الأكفان ملقاة على الأرض. والمنديل الذي كان على رأس المعلّم وجدته ملفوفاً وحده في مكان منفصل عن الأكفان. وقد شاركت الأمر مع نِيقُودِيمُوس، ويُوسُف الَّذي مِنَ الرَّامَةِ، فأبديا استغراباً كبيراً، وحيرة من الأمر. أجابه تُومَا بشيء من اللامبالاة: الأقوال كثيرة في هذا الأمر، وقصة اختفاء الجسد ربما تكون من

صنع الكهنة، أو الجند. فهم لا يريدون أن يتركوا أثراً للمعلّم حتى ننساه جميعاً. هزّ بُطْرُس رأسه علامة الحيرة. ثمّ صمت قليلاً كمن يفكر بالكلام ويزنه بالمنطق. وإذ لم يجد ما يقوله سأل تُومَا: هل ستأتي في العشية إلى بيتِ مريَم أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، كما اتفقنا؟ قال تُومَا: أعتقد إني لن أحضر، فما تكلمت به معك سيكرره الأخوة في العشيّة، وبصراحةٍ أكثر يا أخي بُطْرُس، موضوع قيامة المعلّم أمر غير معقول، والقبر الفارغ لا يعني القيامة، وأنا لن أصدق القيامة إلا في حالة واحدة. ما هي، قال بُطْرُس. أجابه تُومَا: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ لاَ أُومِنْ». ثم تابع يقول وهو يربت على كتف بُطْرُس: هيا يا أخي، اذهب لعملك في صيد السمك، وانسى أمر المعلّم. كانت بضع سنين جميلة قضيناها سويّة، والآن طواها الموت إلى غير رجعة، وانتهى حلمنا الجميل بإقامة مملكة أبينا داود، وردِّ الملك لإسرائيل. ثمّ تابع يقول: هل تعرف يا بُطْرُس منذ قليل دعاني كَلْيُوبَاس للذهاب معه إلى عِمْوَاس والمبيت عنده بضعة أيام، لكني رفضت الدعوة خشية أن نُمضي وقتنا ونحن نتكلم عن وهم القيامة، أو عن ذكريات جميلة أمضيناها مع المعلّم. لأن ذلك سوف يزعجني أو يدخلني في كآبة. هيا يا أخي، امضي بسلام، الرب معك.

لم يعرف بُطْرُس بماذا يجيب، فكلام تُومَا فيه الكثير من المنطق. إنه مع غيره لم يسمعا عن شخص قام من الأموات، وحتى لو قام فإن الجند سيقتلونه ثانية ويدفنونه في القبر. حقاً كما قال تُومَا كلام النسوة نوع من الهذيان. والجسد المفقود قصة من صنع الكهنة. وبينما بُطْرُس وتُومَا يفترقان، توقف تُومَا عند مدخل الزقاق، والتفت إلى بُطْرُس قائلاً وهو يبتسم: حسناً يا أخي، سآتي في المساء، إذ لا يمكن البقاء بعيداً عن الأخوة.

كان بُطْرُس يتمشى في شوارع أورشليم عابساً، «مُتَعَجِّباً فِي نَفْسِهِ مِمَّا كَانَ». أمضى الساعات وهو يتكلم مع نفسه، حتى كاد يصاب بالجنون. ومع مغيب الشمس،

في إحدى الممرات الضيّقة الخالية من المارّة، سَمع صوتاً مألوفاً من الخلف يقول: يا بُطْرُس. وإذ التفت لينظر الصوت، صرخ: رَبُّونِي وإلهي.

لم يعرف ماذا يفعل، فتقدم وأمسك بقدميه وسجد له. قال له المعلّم: اذهب يا بُطْرُس إلى إخوتي، وقل لهم إني سأصعد إلى أبي، ولكن حتى ذلك الوقت سأراكم كثيراً. وقل لهم أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي.

انطلق بُطْرُس مسرعاً إلى بيتِ مريَم أُمّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، حيث اجتمع التلاميذ في العلّية ومعهم تُومَا، وأغلقوا الأبواب «لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ». وإذ فُتح له الباب، دخل مهرولاً. وفي وسط الجماعة رفع قبضته وقال: قد رأيت المعلّم، الرّب قام.

في تلك الساعة، كَلْيُوبَاس ورفيقه ما عادا يشعران بالجوع والإعياء. تركا الطعام دون أن يذوقا منه شيئاً، ورجعا باختبار عميق إلى أُورُشَلِيم، إلى بيتِ مريَم أُمّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، حيث اجتمع التلاميذ في العلّية. قرعا الباب فلم يفتح لهما أحد، وإذ ذكرا اسميهما فُتحَ الباب بحذر. ثم أُغلق خلفهما «لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ». وهناك في العليّة «وَجَدَا الأَحَدَ عَشَرَ مُجْتَمِعِينَ هُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّبَّ قَامَ بِالْحَقِيقَةِ وَظَهَرَ لِسِمْعَانَ».

كان سِمْعَان بُطْرُس يُقدم شهادته بقوة وفرح ليقنع الجميع بحقيقة قيامة المعلّم من بين الأموات، إلا أنّ معظم الحاضرين كانوا يشكّون في أقواله، وأخذوا يتساءَلُون: «مَا هُوَ الْقِيَامُ مِنَ الأَمْوَاتِ؟». بينما تُومَا أكثر المشككين كان يؤكد للجميع، إن رسالة المعلّم انتهت بالفشل، وعلينا أن نقبل هذه الحقيقة.

انزعج بُطْرُس من كلمات تُومَا وصرخ في وجهه غاضباً: إذاً لماذا اختارنا المعلّم مادامت رسالته مصيرها الفشل؟ لا، لا. القيامة من بين الأموات وحدها تؤكد أن المعلّم لم يفشل. ابتسم تُومَا وأجاب: أنت واهم يا أخي، لا توجد قيامة من بين الأموات، توجد قيامة للأموات في اليوم الأخير. المعلّم لم يَقمْ، وكفاك وهماً. محبتك

للمعلّم أصابتك بالهلوسة. هزّ بطرس رأسه ثم جلس على الأرض وهو يقول لتُومَا: سيقتلني شكُّكَ يا أخي.

عندها شارك كَلْيُوبَاس ورفيقه اختبارهم مع التلاميذ والبقية، «فَكَانَا يُخْبِرَانِ بِمَا حَدَثَ فِي الطَّرِيقِ وَكَيْفَ عَرَفَاهُ عِنْدَ كَسْرِ الْخُبْزِ»، وأمّا «الْبَاقِينَ فَلَمْ يُصَدِّقُوا وَلاَ هَذَيْنِ». إذ كيف يظهر الرّب في مكانين بوقتٍ واحدٍ كما قال تُومَا. واحتدّم الجدال واستمرّ بين مصدقٍ وغير مصدقٍ، حتى قطعه إعلانٌ جديد. أمّا تُومَا فقرر أن يغادر الاجتماع معبراً عن انزعاجه من هذا النقاش، وهو يقول: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ لاَ أُومِنْ».

الفصل السّابع والعشرون
جُسُّونِي وَانْظُرُوا

أُورُشَلِيم/ الأحد– الاثنين، ١٦–١٧ نيسان العبراني

كانت أصوات التلاميذ ذلك اليوم ضعيفة، وكذلك الإنارة في العلّية، في بيتِ مريَم أُمّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، «لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ». أمّا رائحة الخشب المتقد للتدفئة مع رائحة السمك المشوي، فكانت تزكم الأنوف بسبب الأبواب المُغَلَّقَة.

وفي عَشِيَّة ذلك اليوم، وهُوَ أَوَّلُ الأُسْبُوعِ، حَيْثُ كَانَ التّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ، وَكَانَتِ الأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً. وفيما التّلاميذ يتكلمون همساً وهُمْ مُتَّكِئُون لتناول الطعام، قال مَتَّى لبُطْرُس: أخبرنا يا أخي هل رأيت المعلّم كما نعرفه؟ أجاب بُطْرُس بعد تفكير قليل: لستُ متأكداً يا أخي، لم أتعرّف عليه من شكله، ولا من صوته. ما أن التفتُّ لأنظر الصوت، حتى وقعت هيبته عليّ فسقطت على الأرض. وعندما كان يكلمني لم ينتابني الشك في أنه هو. لا أعرف كيف أشرح لك الأمر. قال أَنْدَرَاوُس: ربما هو ملاكٌ. انزعج بُطْرُس وقال: لا ..لا. ليس ملاكاً ولا روحاً.. لقد عرفته ولكن كيف، لا أعرف. عندها تدّخل كَلْيُوبَاس قائلاً: أنا أفهم ما يقوله أخي بُطْرُس، لأن الأمر حدث معي أيضاً.. كنا في الطريق وظهر لنا الرب. لم نعرفه. لكن قلبُنا كانَ مُلتَهِباً فينا كلّ الوقت.. وعندما دخل بيتنا وجلس على المائدة لم نعرفه، مع أننا كنا ننظر إليه كلّ الوقت. لكن عندما كسر الخبز أمامنا عرفناه فوراً من أثار المسامير في يديه.. لا .. ربما ليس من أثار المسامير.. هناك شيء ما حصل في أعماقنا أكدّ لنا أنه هو.. لا أعرف كيف أشرح الموضوع.

قال يوحنا: إنه فعلاً أمر غريب.. ويتقاطع مع ما قالته أُختنا الْمَجْدَلِيَّة عندما

التقت بالمعلّم. كلّمها لم تعرفه، نظرت إليه، لم تعرفه. ولكن فجأة إذ ذكر اسمها عرفته.. يبدو أن هناك أمر ما يحصل فجأة.. حتى تتعرفوا عليه. قال بُطْرُس وهو يهز رأسه موافقاً: نعم هو كذلك.

وبينما هم يتابعون حديثهم، «وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسَطِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: سَلاَمٌ لَكُمْ. فَجَزِعُوا وَخَافُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَظَرُوا رُوحاً»، إذ لم يشعروا بخطوات أحدٍ يتسلل، ولا سمعوا أحداً يقرع الباب طالباً الدخول. ثمّ قال لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ مُضْطَرِبِينَ، وَلِمَاذَا تَخْطُرُ أَفْكَارٌ فِي قُلُوبِكُمْ؟ ٣٩انْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي».. «وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ فَفَرِحَ التّلاَمِيذُ إِذْ رَأَوُا الرَّبَّ».. «وَبَيْنَمَا هُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ الْفَرَحِ وَمُتَعَجِّبُونَ قَالَ لَهُمْ: أَعِنْدَكُمْ هَهُنَا طَعَامٌ. فَنَاوَلُوهُ جُزْءاً مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ وَشَيْئاً مِنْ شَهْدِ عَسَلٍ. فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ» لقمتين أو ثلاث، دون أن يجلس، وبدا حزيناً لضعف إيمانهم، «وَوَبَّخَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ، لأَنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا الَّذِينَ نَظَرُوهُ قَدْ قَامَ».

وأخيراً قال لهم: «سلاَمٌ لَكُمْ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا. وَلَمَّا قَالَ هَذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ. مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ». ثم اختفى عنهم. وعندها لم يعودوا لحديثهم ثانية في تلك الليلة، إذ اختبر الجميع في حواسّهم، وفي أعماقهم، أن المتكلّم هو المعلّم الرب. ومع ذلك كانت القيامة قصة تفوق مداركهم.

ونحو منتصف الليل ووسط فرحة الجميع، ما أن ذُكر اسم مَرْيَم أم يسوع حتى قرر بُطْرُس وَيُوحَنَّا أن يذهبا إلى بيت زَبْدِي، ويخبراها، ومن معها، بما حدث معهم، ليشاركوهم أفراح القيامة.

«أَمَّا تُومَا، أَحَدُ الِاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ» فقد كان غائباً عن المشهد.

الفصل الثّامن والعشرون
وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ

أُورُشَلِيم/ الاثنين، ٢٤ نيسان العبراني

كانت وصية المعلّم الرّب للنسوة: «اذْهَبَا قُولاَ لِإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي». لكنّ التلاميذ لم يبرحوا أُورُشَلِيم. ليس كسراً للوصية، لكن مراعاة للطقوس المرتبطة بالعيد. إضافة لعدم تيقّنهم من القيامة، وخاصة تُومَا. مع أن المعلّم الرّب ظهر لهم وأكل قُدّامهم «جُزْءاً مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ وَشَيْئاً مِنْ شَهْدِ عَسَلٍ»، وأَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ، ليؤكد لهم أنه ليس وهماً أو روحاً. لكن القيامة قصّة أكبر من أن يصدّقوها، حتى لو شاهدوها. لذلك بقي المعلّم الرّب مع تلاميذه مدة أربعين يوماً يَظهر لهم في أماكن ومناسبات مختلفة ليؤكد لهم حقيقة قيامته.

في الأسبوع الثاني من قيامة المعلّم، كان عيد الفصح وعيد الفطير الذي يعقبه مباشرة قد انتهيا. ولأن أول يوم من عيد الفطير، وآخر يوم منه هما يومي سبت، أي يومي راحة (محفل مقدس)، فيهما لا يعمل اليهود عملاً ما من الشغل إلا الإعداد الضروري للطعام، لم يكن من اللائق أن يترك التلاميذ أورشليم قبل نهاية أسبوع الفصح.

تُومَا بين التلاميذ صَلبُ المراس. يطلب البراهين في كل الأمور، حتّى الّتي لا براهين لها. أمّا شهادة الآخرين عنده فلا تسبق البرهان، بل تليه. هذا كلّمه بُطْرُس قائلاً: رأينا المعلّم الرّب، قد «أَقَامَهُ اللهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَأَعْطَى أَنْ يَصِيرَ ظَاهِراً لَيْسَ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ بَلْ لِشُهُودٍ سَبَقَ اللهُ فَانْتَخَبَهُمْ. لَنَا نَحْنُ الَّذِينَ أَكَلْنَا وَشَرِبْنَا مَعَهُ بَعْدَ قِيَامَتِهِ مِنَ الأَمْوَاتِ».

كلّمته المريمات، واللَّذَيْنِ عادا من عِمْوَاس، بحقيقة القيامة، بل بضرورتها قائلين: «قَدْ رَأَيْنَا الرَّبَّ». لكن جواب تُومَا للجميع: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ لاَ أُومِنْ».

كانت المسامير قد أصابت فكره بأكثر مما أصابت يدي المعلّم، فأذهبت من عقله كل احتمال للحياة والقيامة بعد الموت.

على مدار الأسبوع كلّموه، كما كلّمهم الرّب، لكنّه لم يقبل. لأن شهاداتهم مع مرور الوقت كانت تخلو من الحماسة، والفرح، والدليل. تكلّموا معه كأنهم حالمين، لذلك لم يصدقهم بل ظنهم جميعاً يهذون بسبب محبتهم للمعلّم. وبقي طيلة الأسبوع غائبا عن اللقاء معهم في بيت زَبْدِي، أو بيت مريَم أُمّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس.

وإذ فاض بهم الكيل، قال له فِيلُبُّس: «تَعَالَ وَانْظُرْ». فأعطى القبول على مضضٍ، دون التخلي عن شرطه اللامعقول. وهو يقول: أرجو أن لا يكون لقاؤنا هذه المرة كسابقه.

«وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ» أي في عشيّة الأحد التالي، «كَانَ تلاَمِيذُهُ أَيْضاً دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ». وبينما يناقشونه البراهين على ضوء القناديل كان يتساءل: لماذا لم يظهر لي، كما لكم؟ ففاجأهم «يَسُوعُ وَالأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: سلاَمٌ لَكُمْ».

وبينما هم ساجدون قال أحدهم: يا لطلعته البهيّة، يا لمنظر عينيه كغالب الموت وقاهر الهاوية، يا لبهاء نور الآب الذي يشعّ من كلّ كيانه. أمّا يُوحَنَّا فقال لتُومَا بلغة الانتصار: انظر، «اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ».

نظر المعلّم الرّب بحزنٍ إلى تُومَا قائلاً: «هَاتِ إِصْبَعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي وَلاَ تَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً». أَجَابَ تُومَا: «يَا رَبُّ قَدِ

اخْتَبَرْتَنِي وَعَرَفْتَنِي. أَنْتَ عَرَفْتَ جُلُوسِي وَقِيَامِي. فَهِمْتَ فِكْرِي مِنْ بَعِيدٍ. مَسْلَكِي وَمَرْبَضِي ذَرَّيْتَ وَكُلَّ طُرُقِي عَرَفْتَ. لأَنَّهُ لَيْسَ كَلِمَةٌ فِي لِسَانِي إِلاَّ وَأَنْتَ يَا رَبُّ عَرَفْتَهَا كُلَّهَا».. «رَبِّي وَإِلَهِي». فقَالَ لَهُ يَسُوعُ من خلال الجماعة، إذ عَلِم صعوبة الإيمان بالقيامة: أخبرتكم بهذا قبل أن يحدث، حتّى متى حدث تؤمنون. ثمّ نظر إليه قائلاً: «لأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَا تُومَا آمَنْتَ! طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا».

وإذ اختفى المعلّم الرّب عنهم، ذكرَ التلاميذ الأحد عشر وصيته، فتعاهدوا على لِقَائهِ في الجليل.

الفصل التّاسع والعشرون
هُوَ الرَّبُّ

الجليل، بَحْرِ طَبَرِيَّة

في الأسبوع الثاني من قيامة المسيح، كان عيد الْفِصْح وعيد الْفَطِير قد انتهيا، فانطلق التلاميذ الأَحَدَ عَشَر من أورشليم إلى بحيرة الجليل شمالاً، إلى حَيْثُ أَمَرَهُمْ المعلّم الرّب ليلتقوا معه. وقد احتاجوا نحو خمسة أيام حتى يصلوا. فلمّا تأخر قليلاً عن لقائهم ضَعف إيمانهم. وإذ لم يعرفوا كيف يلتقوه أو ماذا يعملون، ذهبَ سبعة منهم لصيد السَّمَك في بحرِ طَبَرِيَّة. وهم «سِمْعَانُ بُطْرُسُ، وَتُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ، وَنَثَنَائِيلُ الَّذِي مِنْ قَانَا الْجَلِيلِ، وَابْنَا زَبْدِي، وَاثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ.٣قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ: «أَنَا أَذْهَبُ لأَتَصَيَّدَ»، يقصد، هل تذهبون معي للصيد؟

لم يكن هذا فكر الرّب من جهته إذ سبق ودعاه كما بقية التلاميذ ليكونوا صيَّادين للناس. ولكن مع الأسف كما نسي دعوته، نسي الآخرون دعوتهم فقالوا له: «نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ». وللوقت دخلوا السَّفِينَة وأبحروا في اليمّ بحثاً عن السَّمَكِ.

كان البحر رائعا هادئاً. رائحته، وصوت ارتطام أمواجه بالشطِّ، قلّبت ذكرياتهم. وإذ حَلّوا الحبل، ودفعوا السَّفِينَة في اليّم، تطاير رذاذ الماء على وجوههم، فذكروا ذلك اليوم المرعب عندما سفينتهم «قَدْ صَارَتْ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الأَمْوَاجِ. لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً». وكيف في «الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ». فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ «اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ خَيَالٌ. وَمِنَ الْخَوْفِ

صَرَخُوا. فَلِلْوَقْتِ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: تَشَجَّعُوا أَنَا هُو. لاَ تَخَافُوا». وإذ دخل «السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ».

وذكروا يوماً آخر عندما حدث «نَوْءُ رِيحٍ عَظِيمٌ فَكَانَتِ الأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى صَارَتْ تَمْتَلِئُ». وكان المعلّم الرّب «فِي الْمُؤَخَّرِ عَلَى وِسَادَةٍ نَائِماً. فَأَيْقَظُوهُ وَقَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ أَمَا يَهُمُّكَ أَنَّنَا نَهْلِكُ فَقَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيحَ وَقَالَ لِلْبَحْرِ: اسْكُتْ. ابْكَمْ. فَسَكَنَتِ الرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ». يا لسلطانه، «فَإِنَّ الرِّيحَ أَيْضاً وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ».

ثم ذكروا ذلك المساء عند الشاطئ والألوف تتبعهم، عندما قالوا للمعلّم الرّب: «اصْرِفْهُمْ لِكَيْ يَمْضُوا إِلَى الضِّيَاعِ وَالْقُرَى حَوَالَيْنَا وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ خُبْزاً لأَنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ...فَقَالَ لَهُمْ: كَمْ رَغِيفاً عِنْدَكُمْ؟ اذْهَبُوا وَانْظُرُوا. وَلَمَّا عَلِمُوا قَالُوا: خَمْسَةٌ وَسَمَكَتَانِ. فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْجَمِيعَ يَتَّكِئُونَ رِفَاقاً رِفَاقاً عَلَى الْعُشْبِ الأَخْضَرِ... فَأَخَذَ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَبَارَكَ ثُمَّ كَسَّرَ الأَرْغِفَةَ وَأَعْطَى تَلاَمِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا إِلَيْهِمْ وَقَسَّمَ السَّمَكَتَيْنِ لِلْجَمِيعِ فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا ثُمَّ رَفَعُوا مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوَّةً وَمِنَ السَّمَكِ. وَكَانَ الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الأَرْغِفَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُلٍ».

ثم ذكروا قول المعلّم الرّب لبُطْرُس بعد ليلة صيدٍ فاشلةٍ: «ابْعُدْ إِلَى الْعُمْقِ وَأَلْقُوا شِبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ...وَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ أَمْسَكُوا سَمَكاً كَثِيراً جِدّاً فَصَارَتْ شَبَكَتُهُمْ تَتَخَرَّقُ».

مضى الليل بأكمله وهم يسترجعون فيه الذكريات، وفي «تِلْكَ اللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً». هل هي مصادفة؟ أم فشل مرتب من الله.

قد أَمر السمك أن يسلك غير مسالكهم، والبحر ليناصبهم ويبخل عليهم. فكلّت أياديهم مع قلوبهم إذ يطرحون الشباك ويجمعونها كما طرحوها. هربت فنونهم.

خابت أحابيلهم. تناجوا فيما بينهم: لعلّ يوناناً آخر وسطنا. ثمّ قالوا: حظاً عاثراً. لكنّ الذي «يُجْرِيَ وَيُقِيمَ مَقَاصِدَ قَلْبِهِ» يقول: «فِي آخِرِ الأَيَّامِ تَفْهَمُونَ فَهْماً».

«وَلَمَّا كَانَ الصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى الشَّاطِئِ» مستعلناً ذاته لهم، ولكنهم «لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ»، لأنه بعد القيامة كان يظهر لهم كل مرّة بهيئة مختلفة. «٥فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «يَا غِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَاماً (سمكاً)؟». أَجَابُوهُ: «لاَ!»٦فَقَالَ لَهُمْ: «أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَةِ الأَيْمَنِ فَتَجِدُوا».

والظاهر أنهم كانوا قد يئسوا ورفعوا الشبكة ووضعوها في السَّفِينَةِ وعادوا أدراجهم إلى الشاطئ. فقبلوا نصيحته دون أن يسألوه، لماذا؟ وأَلْقَوْا الشبكة مع أنهم كانوا قد تعبوا الليل كله عبثاً. وإذ ألقوها «لَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَكِ.٧فَقَالَ ذَلِكَ التِّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ: «هُوَ الرَّبُّ!». فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ الرَّبُّ، ائْتَزَرَ بِثَوْبِهِ، لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَاناً، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ»، ليصل إلى المعلّم الرب سريعاً، فمحبته لسيده ألجأته إلى ذلك غير مكترث بالسَّمك أو الشبكة أو السَّفِينَة أو الرفاق.

كان يُوحَنَّا أول من ميّز الرب، ليس من شكله، لكن من أفعاله، فهو أسرع من بُطْرُس في الإدراك. ثم سارع إلى إعلام بُطْرُس الذي هو أسرع منه في العمل، فاتزر هذا الأخير بثوبه الخارجي أي شد وسطه به، إذ كان قد نزعه عنه وهو يصيد، فلبسه احتراما للمعلّم الرب، وسار نحو الشاطئ. وبينما يُوحَنَّا يراقب بُطْرُس لم يستطع أن يميّزه من شدة الماء المتطاير حوله، إن كان قد اعتمد التخويض في الماء، أو المشي على الماء باتجاه الشاطئ.

ومع أن يُوحَنَّا أصغر من بُطْرُس وأسرع منه جرياً، لكن في هذه المرة استطاع بُطْرُس أن يسبق يُوحَنَّا، وإذ وصل الاثنان إلى الشاطئ اقتربا من المعلّم، وتوقفا أمامه كمن ينتظر الإرشاد لعمل ما.

«٨وَأَمَّا التَّلاَمِيذُ الآخَرُونَ فَجَاءُوا بِالسَّفِينَةِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ الأَرْضِ إِلاَّ نَحْوَ مِئَتَيْ ذِرَاعٍ، وَهُمْ يَجُرُّونَ شَبَكَةَ السَّمَكِ.٩فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الأَرْضِ نَظَرُوا جَمْراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً»، فاصطفوا جميعاً قرب بُطْرُس ويُوحَنَّا، والصّمت يُطبق عليهم.

«قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «قَدِّمُوا مِنَ السَّمَكِ الَّذِي أَمْسَكْتُمُ الآنَ»». وإذ ببُطْرُس وحده من بين الجميع المذهولين والخائفين يسارع إلى السَّفِينَة ثانية ويصعد إليها ويمسك بالشبكة ليجذبها، لكنه لم يستطع، عندئذ، نظر يُوحَنَّا إلى البقية وقال لهم: هيّا يا رفاق، هيّا، لن نترك بُطْرُس وحده. فركض الجميع نحو السَّفِينَة، وصعدوا إليها وجذبوا الشبكة إلى الأرض، وقد كانت «مُمْتَلِئَةً سَمَكاً كَبِيراً، مِئَةً وَثَلاَثاً وَخَمْسِينَ. وَمَعْ هَذِهِ الْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ». كانوا غير مصدقين ما يحدث، ومنظر المعلّم الواقف أمامهم كان يُدخل الرهبة إلى قلوبهم، فأصابهم الارتباك جداً.

كان المعلّم الرب قد أعدَّ الطعام للتلاميذ شفقة عليهم، لأنه قد عَلم أنهم قد تعبوا وجاعوا لِما قاسوه في ليلتهم، وتعبيراً عن محبته لهم رغم كل ما فعلوه معه. «قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلُمُّوا تَغَدَّوْا!». وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ التَّلاَمِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ». وأمام هيبته ووقاره لم يكن الرسل محتاجين إلى شهادة المسيح بأنّه هو، لتيقنهم ذلك في أعماقهم.

أمّا قصة قيامته من الأموات التي لم يستوعبوها حتى الآن، فأدخلت الخوف إلى قلوبهم، ومنعتهم من التقدّم خطوات باتجاه المعلّم ليتناولوا الطعام، فما كان منه إلا أن اقترب منهم لكي يشجع قلوبهم. «ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ الْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ وَكَذَلِكَ السَّمَكَ». وجلس معهم وأكل، ليؤكد لهم مرة ثالثة قيامته من بين الأموات.

نظر بُطْرُس ذلك الجمر المتّقد. وإذ التقت عيناه مع المعلّم الرّب، تذكر تلك الليلة في دار قَيَافَا، وسَمع في أعماقه صياح ذلك الدّيك، فسالت دمعته، وخطّت على الخدّ طريقاً.

عند ذلك الجمر المتقد. بعدما أكلوا والصمت يلفّهم «قَالَ يَسُوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلاَءِ؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ خِرَافِي». ١٦قَالَ لَهُ أَيْضاً ثَانِيَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟» قَالَ لَهُ: «نَعَمْ يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ: «ارْعَ غَنَمِي». ١٧قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: «يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي؟» فَحَزِنَ بُطْرُسُ لأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً: أَتُحِبُّنِي؟ فَقَالَ لَهُ: «يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أُحِبُّكَ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «ارْعَ غَنَمِي».

ثمّ تنبأ عنه «إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُمَجِّدَ اللهَ بِهَا» قائلاً: «١٨اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْتَ تُمَنْطِقُ ذَاتَكَ وَتَمْشِي حَيْثُ تَشَاءُ. وَلَكِنْ مَتَى شِخْتَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ، وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لاَ تَشَاءُ».. «وَلَمَّا قَالَ هَذَا قَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». وبقوله هذا بدأ بمغادرة المكان. فما كان من بُطْرُس إلا أن سار وراء المعلّم الرّب تلبيةً لدعوته. وبينما هو يتبعه ولا يدري إلى أين، سمع صوت خطواتٍ تمشي وراءه. التفت، فنظر يُوحَنَّا يتبعهم، ومن شدة محبته لرفيقه يُوحَنَّا أراد أن يستفهم من الرب عن مستقبله، فسأل المعلّم عنه قائلاً: «يَا رَبُّ، ما هو مصير يُوحَنَّا، كيف ستكون نهايته، هل سيموت مثلي؟».

لم يكن السؤال في محله، ولا ينبغي على بُطْرُس أن يهتم بأمور غيره، فكيف سيموت كل واحد هذا ليس جزءاً من رسالته وخدمته، عليه فقط أن يتبع المعلّم بالمحبة، لأنها الدافع الوحيد لخدمته.

التفت يسوع إلى بُطْرُس، وقال له معاتباً: لو شئت أن يبقى إلى أن أجيء، فماذا يعنيك؟ وبعد برهة صمت، تابع المعلّم مسيره وهو يقول لبُطْرُس: تابع مسيرك ورائي.

وبسبب الغيرة ذاع القول بين الأخوة: «إِنَّ ذَلِكَ التِّلْمِيذَ لاَ يَمُوتُ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَسُوعُ إِنَّهُ لاَ يَمُوتُ، بَلْ: إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ، فَمَاذَا لَكَ؟». ثمّ أَمَرَهُمْ أن يمضوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى الْجَبَلِ.

الفصل الثلاثون
وَهَا أَنَا مَعَكُمْ

الْجَلِيل/ الخميس من شهر إيَّار العبري[1]، المصادف لليوم الأربعين ابتداءً من القيامة

ما أن اختفى المعلّم الرّب من أمام التلاميذ السبعة حتى لملموا أغراضهم ونزلوا إلى كَفْرِنَاحُوم حيث باعوا أسماكهم على عَجلٍ، ثم انطلقوا إلى بقية رفاقهم، فالتقوهم مجتمعين في بيت سِمْعَان وَأَنْدَرَاوُس.

كانت حماة سمعان موجودة في هذا اللقاء، فسألت: هل اصطدتم شيئاً، أم أنكم قادمين من فشل. أم أن الرّب ظهر لكم وملأ شباككم صيداً.

ضحك بُطْرُس حتى أضحك معه الباقين، وكاد يقع من شدّة الضحك، وحين تماسك، اقترب من حماته وقال لها وهي تستغرب هذا الضحك: قولي لي، ثم ضحك ثانية وتابع، قولي لي، هل رأيت الرّب المقام من الأموات؟

استغربت قوله وأجابت: لا. قال لها بُطْرُس وهو يضحك، إذا من أعلمك أن الرّب ملأ شباكنا صيداً؟ عندها توقف بقية التلاميذ الَّذِينَ لم يرافقوا بُطْرُس في رحلته، والتفوا حوله، وقال أحدهم: هل حقاً ظهر لكم الرّب.

نعم نعم، قال بُطْرُس وهو يضحك: وقد اصطدنا مِئَةً وَثلاَثاً وَخَمْسِينَ سمكة.. ليس هذا فقط، بل أكلنا مع الرب خبزاً، وسمكاً مشوياً. كان مهوباً، طلته كالأرز في لبنان. ليس لعظمته استقصاء.

---

[1] – هو ثاني الشّهور العبريّة المقدّسة، والشهر الثامن من السّنة العبريّة المدنيّة. عدد أيامه (٢٩)، وقد دُعي قبل السّبي (زِيُو).

نظر بُطْرُس في عيون الجميع وقال بشكل جدي وحازم: من الآن فصاعداً لن نفترق. قد أمرنا الرّب أن نلتقي به على الجبل، فهيا أخبروا الأخوة أننا سنتوجه ظهراً إلى الجبل حيث التقانا الرب كثيراً، وسمعنا من فمه أعظم الكلام.

وبسرعة، وكأن الجميع في أرض المعركة وقد تلقوا أمراً من قائدهم، توزعوا في كَفْرِنَاحُوم ليبحثوا عن الأخوة، فأرسلوا البعض إلى طبرية، والآخر إلى بيت صيدا، ومجدل، وكُورَزِين، وغيرهم.

وفي الموعد المحدد من بُطْرُس مضى «الأَحَدَ عَشَرَ تِلْمِيذاً فَانْطَلَقُوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى الْجَبَلِ حَيْثُ أَمَرَهُمْ يَسُوعُ». ومضى معهم جمعٌ كثيرٌ من الإخوة، «١٧وَلَمَّا رَأَوْهُ سَجَدُوا لَهُ، وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ شَكُّوا. ١٨فَتَقَدَّمَ يَسُوعُ وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً: «دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ، ١٩فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. ٢٠وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ».

ثم التقى التلاميذ مرة ثانية وقد تضاعف عددهم «١٥وَقَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. ١٦مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ. ١٧وَهَذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. ١٨يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئاً مُمِيتاً لاَ يَضُرُّهُمْ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ».

ثم تطايرت الأخبار بسرعة عن قيامة المسيح وظهوره للتلاميذ في الجليل على الجبل، حتى غطت كل مكان، فجاء كثيرون من «أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنّ» إلى الجليل، فالتقوا مع بقية التلاميذ على الجبل، وبينما هم يترقّبون، «ظَهَرَ دَفْعَةً وَاحِدَةً لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِئَةِ أَخٍ»، بينهم إخوته الَّذِينَ لم يكونوا يؤمنون به. «وَلَمَّا رَأَوْهُ سَجَدُوا لَهُ وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ شَكُّوا». «٤٤وَقَالَ لَهُمْ: «هَذَا هُوَ

الْكَلاَمُ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ وَأَنَا بَعْدُ مَعَكُمْ: أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَتِمَّ جَمِيعُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِّي فِي نَامُوسِ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمَزَامِيرِ». ٤٥ حِينَئِذٍ فَتَحَ ذِهْنَهُمْ لِيَفْهَمُوا الْكُتُبَ. ٤٦ وَقَالَ لَهُمْ: «هَكَذَا هُوَ مَكْتُوبٌ، وَهَكَذَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ وَيَقُومُ مِنَ الأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، ٤٧ وَأَنْ يُكْرَزَ بِاسْمِهِ بِالتَّوْبَةِ وَمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا لِجَمِيعِ الأُمَمِ، مُبْتَدَأً مِنْ أُورُشَلِيمَ. ٤٨ وَأَنْتُمْ شُهُودٌ لِذَلِكَ. ٤٩ وَهَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ مَوْعِدَ أَبِي. فَأَقِيمُوا فِي مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَنْ تُلْبَسُوا قُوَّةً مِنَ الأَعَالِي».

ومن ذلك الوقت توجه الكثيرون إلى أورشليم، بناء على رغبة المعلّم، وكانوا «نَحْوَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ» شخصاً، وعلى رأسهم الرسل الأَحَدَ عَشَرَ. «الَّذِينَ أَرَاهُمْ أَيْضاً نَفْسَهُ حَيّاً بِبَرَاهِينَ كَثِيرَةٍ بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْماً»، وكلّمهم «عَنِ الْأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ». هؤلاء كانوا يواظبون على اللقاء في العليّة في بيت مَرْيَمَ أُمِّ يُوحَنَّا الْمُلَقَّب مَرْقُس، حَيْثُ كَانَ كَثِيرُونَ مُجْتَمِعِينَ وَهُمْ يُصَلُّونَ، «بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ وَفِيلُبُّسُ وَتُومَا وَبَرْثُولَمَاوُسُ (نثنائيل) وَمَتَّى وَيَعْقُوبُ بْنُ حَلْفَى وَسِمْعَانُ الْغَيُورُ وَيَهُوذَا بْنُ يَعْقُوبَ. مع كثير من النِّسَاء، وَمَرْيَمَ أُمِّ يَسُوعَ، وَمَعَ إِخْوَتِهِ.

«وَفِيمَا هُوَ مُجْتَمِعٌ مَعَهُمْ أَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَبْرَحُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ بَلْ يَنْتَظِرُوا مَوْعِدَ الآبِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي لأَنَّ يُوحَنَّا عَمَّدَ بِالْمَاءِ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَتَعَمَّدُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الأَيَّامِ بِكَثِيرٍ. أَمَّا هُمُ الْمُجْتَمِعُونَ فَسَأَلُوهُ: يَا رَبُّ هَلْ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَرُدُّ الْمُلْكَ إِلَى إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الأَزْمِنَةَ وَالأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الآبُ فِي سُلْطَانِهِ لَكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُونَ لِي شُهُوداً فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ».

وفي يوم الخميس من شهر إيَّار العبري، المصادف لليوم الأربعين ابتداءً من قيامته «أَخْرَجَهُمْ خَارِجاً إِلَى بَيْتِ عَنْيَا»، وهي قرية على جبل الزيتون، على بعد نحو ميلين إلى الجنوب الشرقي من أُورُشَلِيم، على الطريق إلى أريحا. ومن هناك، «رَفَعَ

يَدَيْهِ وَبَارَكَهُمْ وَفِيمَا هُوَ يُبَارِكُهُمُ انْفَرَدَ عَنْهُمْ وَأُصْعِدَ إِلَى السَّمَاءِ».. «وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللهِ».. «وَأَخَذَتْهُ سَحَابَةٌ عَنْ أَعْيُنِهِمْ وَفِيمَا كَانُوا يَشْخَصُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِذَا رَجُلاَنِ قَدْ وَقَفَا بِهِمْ بِلِبَاسٍ أَبْيَضَ وَقَالاَ: أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقاً إِلَى السَّمَاءِ».. «فَسَجَدُوا لَهُ وَرَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ».. «مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي يُدْعَى جَبَلَ الزَّيْتُونِ الَّذِي هُوَ بِالْقُرْبِ مِنْ أُورُشَلِيمَ عَلَى سَفَرِ سَبْتٍ». ثمّ خرجوا «وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ» بمسيحٍ مخلصٍ قد قام من بين الأموات. ليس لأن قبره صار فارغاً، بل لأنهم عاينوا قيامته. وكان «الرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ وَيُثَبِّتُ الْكَلاَمَ بِالآيَاتِ التَّابِعَةِ. آمِينَ».

كُتب للمؤلف

١) عالم يتغير برسالة لا تتغير ج١، ٢٦٣ صفحة. لاهوت نظامي. صَدَرَ في دمشق، ٢٠٠٥.

٢) هل حقا يسكن الله في خيمة، ١٦٠ صفحة. دراسة تأمليّة. صَدَرَ في القاهرة، ٢٠٠٧.

٣) الكنيسة والعبادة، ٢٣٧ صفحة. عقائد. صَدَرَ في دمشق، ٢٠٠٨.

٤) مُخلّص العالم، ٤٤٦ صفحة. دراسة انجيلية، صَدَرَ في دمشق، ٢٠١٢.

٥) الحقيقي والمزيف، ٨٠ صفحة. أقاصيص. صَدَرَ في دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.

٦) هل نحتاج الى الله، ١١١ صفحة. دراسة تأملية. صَدَرَ في دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.

٧) عالم يتغير برسالة لا تتغير ج٢، ١٨٥ صفحة. لاهوت نظامي. صَدَرَ في دمشق، ٢٠١٦.

٨) من يصنع هُويّتي، ٨٦ صفحة. بحث اجتماعي مسيحي. صَدَرَ في دمشق، ٢٠١٧.

٩) ملائكةُ الِّله المُقتدرونَ قُوَّةً، ١١٧ صفحة. دراسة تأملية. صَدَرَ في دمشق، ٢٠١٨.

١٠) سلسلة «أَحْبَبْتُ شَرِيعَتَكَ ج١+ ج٢». باقة من العِظَات. صَدَرَ في دمشق ٢٠١٩.

١١) تحدّي الإنسان، وردُّ الله، ٩٦ صفحة. (دراسة تأملية). صَدَرَ في دمشق، ٢٠٢٠.

هذه الرواية قد حدثت على أرض الواقع منذ ما يقرب من القرن عام بطلها تفاعل مع احتياجات الناس لأبعد الحدود، وعندما اقتضى احتياجهم موته لم يتردد أبداً، فبذل نفسه لأجلهم.

من سيرة هذا البطل الذي أحببته، اخترت الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته التي عاشها في عالمنا، والتي انتهت بموته مصلوباً، اخترت أن أبدأ من قوله: "تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ يَكُونُ الْفِصْحُ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسْلَمُ لِيُصْلَبَ" (متى٢٦: ٢) فكانت هذه الرواية المأخوذة من الأصل دون إضافة عناصر تشويق وإثارة ومع أنها مقتطفة من الأصل، إلا لا تعطي من حياة بطلها إلا ساعات قليلة، لكني أرجو أن تترك في قلوبكم نفس الأثر الذي تركته قصته الكاملة في قلبي منذ نحو ثلاثين عاماً.